د. ليلى عنان

الحملة الفرنسية

تنوير أم تزوير؟

Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الإسكندرية
01173485

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

KITAB
AL-HILAL

الاصدار الاول
يونيو ١٩٥١

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

عبدالحميد حمروش — نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٦٧ – ذو القعدة – مارس ١٩٩٨ No. 567-MA-1998

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

عادل عبدالصمد — سكرتير التحرير

٥ قرش
١٥٠٠ فلس– السعودية ١٥ ريالا –
سلطنة عمان ١,٥ ريال

الحملة الفرنسية
تنوير أم تزوير ؟

بقلم

أ . د . ليلى عنان

أستاذ الحضارة الفرنسية

جامعة القاهرة

●

دار الهلال

«اذهب إلى فرعون إنه طغى. قال رب اشرح لى صدرى. ويسر لى أمرى. واحلل عقدة من لسانى. يفقهوا قولى»

صدق الله العظيم

سورة طه (آية ٢٤-٢٨)

أهدى مجهودى هذا إلى أجدادى الفلاحين :

« .. وعلى الرغم من مدافعنا ، فإنهم لم ينسحبوا، كانت شجاعتهم وتفانيهم يحلان محل الأسلحة التى افتقروا إليها.. »

«ڤيڤان دينون»

سبق للباحثة نشر : الحملة الفرنسية ، بين الأسطورة والحقيقة

دار الهلال ، ١٩٩٢

الغلاف للفنان

حلمى التونى

المقدمة

يعجب القارئ الموضوعي لتاريخ نابليون بونابرت ، للمكانة التي تبوأتها حملته على مصر في سرد أحداث حياته الحافلة ، فالمؤرخ الفرنسي يتحدث عنها، وكأنها جسم غريب ، لا علاقة لها بما سبقها أو ما لحقها من أحداث ، وكأن لم يكن لها أثر على سياسات نابليون ، وتجاربه اللاحقة ، والعجيب في ذلك أنها كانت ، وهذا أضعف الإيمان، السبب الرئيسي في تكوين التحالف الأوربي الثاني ضد جمهورية فرنسا ، الذي بدأ سلسلة التحالفات الحربية ضد نابليون ؛ التحالفات التي لم تنته إلا بسقوط دولة نابليون سنة ١٨١٥ ، أي بعد الحملة بنحو خمسة عشر عاما. وعلى الرغم من اعتراف الجميع - وهو ما لا يمكن إنكاره - بأن الحملة قد فشلت فشلا عسكريا ذريعا بل فشلت أيضا في كل أهدافها المعلنة ، فإن أحدا لم يذكر أنها كانت ، من ثم ، أولى هزائم «بونابرت القائد الذي لا يهزم» ولا يكون هذا التجاهل منطقيا إلا إذا اعتبرنا - مثلهم - الحملة جسما غريبا ، هامشيا، لا علاقة لها بباقي حروب فرنسا في ذلك العصر ، وهو أمر جد عجيب .

من هنا، كانت ضرورة معرفة مبرراتهم - إن هم فطنوا إلى هذه الضرورة - لمثل هذا الموقف الغريب من حدث ، تؤكد أهميته غزارة ما كتب عنه بعد ذلك .

★★★

وانطلاقا مما سبق ستحاول هذه الدارسة استقراء أهم سمات تطور ما كتب عن هذه الحملة، التى عرفت في حياة نابليون - بعد ذلك - كصفحة رائعة ، تغنى بها الشعراء والفنانون .

والملاحظ أن هذا التمجيد كان يقوم ، دائما على ما يعد مسلمات لا تحتاج إلى إثبات ، كأن يقال - افتراء - إن تاريخ مصر المعاصر بدأ بدخول الجيش الفرنسى إلى الإسكندرية ، وإن المصريين انبهروا ببونابرت وجنده والحضارة التى أهدوها إليهم ، وإن الشعب المصرى مازال يتغنى بفضائلهم حتى يومنا هذا ، لأن الجنود الفرنسيين علموهم الحرية وأسس الديمقراطية ومبادئ ثورة ١٧٨٩ المجيدة ، وإن محمد على ، إن فعل شيئا ، فإنما فعله لأنه كان تلميذا لبونابرت ، وهو الذى حقق كل المشروعات التى كان بونابرت قد وضع أسسها فى السنة التى قضاها في مصر؛ فما الحملة الفرنسية إذن إلا السبب الوحيد للانطلاقة الحضارية لمصر فى القرن التاسع عشر .. الخ الخ الخ .

ولن تستطيع هذه الدراسة - بالطبع - تقديم كل ما قيل فى هذا الصدد ، خاصة أن ذلك ليس هدفها الأساسى فهدفها محاولة التعرف

على أسباب نشأة هذه الأفكار وكيفية تطورها حتى أصبحت من المسلمات التي لا تناقش !! فالدراسات التاريخية الحديثة قد دحضت الكثير مما كان المؤرخون يرددونه من قبل : لقد أصبح من المعترف به الآن مثلا، أن الحملة لم يكن لها ذلك التأثير الذى كانوا يتحدثون عنه ، ولهذا التغير الكامل في النظرة إلى الحملة ، سبب بعينه .

★★★

علينا ، حتى نفهم ما حدث بالنسبة لتأريخ فرنسا فى العصر الحديث ، وانقلابه على ما كان يقال فى الماضى أن نرجع إلى الوراء ، أن نرجع إلى عام ١٨٧٠ .

ففى ذلك العام ، حاصر الجيش البروسى عاصمة فرنسا ؛ وكانت الهزيمة النكراء ، وسقوط الامبراطور «نابليون الثالث» أكثر مما يحتمله الشعب الباريسي، فكانت «ثورة الكوميونة» سنة ١٨٧١ بعد ثورات ١٧٨٩ و١٨٣٠ و ١٨٤٨ و ١٨٥١ ، وبعد هذه الأحداث العنيفة – من هزيمة نكراء إلى ثورة دموية بشعة – جاءت «الجمهورية الثالثة» لتحاول معالجة ما أصاب الشعب الفرنسي من صدمات وأهوال .

بقيت هذه «الجمهورية الثالثة» ومبادؤها ، إلى بدايات الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٠ ، وأراد المولى عز وجل أن يكون هذان التاريخان – ١٨٧٠ و ١٩٤٠ – من أخطر السهام التى أصابت الشخصية الفرنسية

فى مقتل ، ولهما - بالنسبة لنا - أهمية قصوى ، إذا ما أردنا استقراء التأريخ الفرنسى فى العصر الحديث ، وانقلابه على كل ما كان يقال سابقا .

فمن الآثار العديدة لهزيمة ١٨٧٠ ، ما قررته وزارة التعليم بعد ذلك فى الثمانينات من مناهج دراسية تستقطب الميول الثورية لدى التلميذ الفرنسى لتصنع منه جندى المستقبل ، الذى سيحارب لمجد فرنسا خارج حدودها ، فيأمن المواطن من شر عنفه الذى دائما ما يهيج الثورات .

ومنذ ذاك الحين فصاعدا يجب على المواطن الفرنسى أن يكون «حامل لواء الحضارة فى العالم» ليبتعد عن رغبة قتل أخيه فى ثورة جديدة، لذا قررت «الجمهورية الثالثة» - علاوة على أسباب أخرى - التوسع فى المستعمرات حتى ينسى الشعب الفرنسى هزيمته. فأرسلت الجيوش إلى آسيا وافريقيا والشرق الأوسط ، حتى أصبحت فرنسا الامبراطورية الاستعمارية الثانية فى العالم ، بعد الامبراطورية البريطانية .

لم يتغير منهج التدريس فى فرنسا لعقود عديدة ، نشأت خلالها أجيال من الأطفال الفرنسيين ، الذين يعرفون التاريخ المجيد لبلدهم ويعبدون رموز الماضى المنتصرين، حتى يستعدوا لحمل البندقية ، وحمل

«عبء الرجل الأبيض» ، وعبء المواطن الفرنسى بالذات تلك الأعباء التى حملهم الله إياها لتنوير الشعوب المتخلفة الجاهلة فى العالم ، وذلك كما قررت «الجمهورية الثالثة» ، لأن «فرنسا رمز الحضارة» . وقد أصبح هذا المبدأ واجبا لا يستطيع أن يرفض أداءه المواطن الفرنسي، فواجب فرنسا الأول هو أن تحمل لواء «الحضارة» إلى العالم كله .

ثم جاءت سنة ١٩٤٠ ، وفرّ الجيش الفرنسى أمام جحافل هتلر الغازية ، فكان لزاما عليه - بعد هزيمة ألمانيا على يد الحلفاء سنة ١٩٤٥ - أن يمحو هذه الوصمة عن جبينه : فعندما بدأت المستعمرات تثور لتحصل على استقلالها ، حاربتها فرنسا حتى لا تفقد ما بقى لها من مجد استعمارى استيطانى سابق ولكنها خسرت ، أيضا ، هذه المعارك ، وخسرت مستعمراتها التى استقلت عنها .

شب الجيل الجديد من الفرنسيين الذين أصبحوا لا يرون شيئا من المجد الذى تتحدث عنه كتب التاريخ، ووصل إلى سن النضج ، فبدأ فى مراجعة ما يقال له ويعتبر من المسلمات، جيل يحطم الأساطير بعد كُشف زيفها ، وقد تواكب هذا مع ما سمى «بانهيار الايديولوچيات» والشيوعية الماركسية - اللينينية منها بالذات - والمعروف أن المدرسة التاريخية الفرنسية كانت من أهم معاقل اليسار فى فرنسا ..

هكذا وبعد الحرب العالمية الثانية ، وفي عصرنا الحالي ، نجد نوعين من المؤرخين : الجيل الذي عاش الحرب العالمية الثانية وتعلم في ظل مبادئ «الجمهورية الثالثة» وأساطيرها المبهرة وتغنى في طفولته وفي مدرسته بكل أمجاد الماضي ، كما نجد الجيل الجديد ، الذي ولد بعد الحرب وعاصر أحداث تقلص الهيمنة الفرنسية ، فبدأ يمحص وينقب ويؤرخ بنظرة جديدة ، غابت عنها غشايات الأساطير الكاذبة :

إنه ما سمي بجيل «المؤرخين الجدد»

★★★

ومن الأساطير التي حطمها هذا الجيل، أسطورة الحملة ، ونتائجها؛ ولسنا هنا بصدد تعريف القارئ بها ، خاصة أن الكتب موجودة ، يقرؤها من يريد زيادة معرفته بالقضية ، وإن تعرضنا لها عند الضرورة بإيجاز .

ولكننا سنعرض ، في بضعة أسطر ، ما كان يدرس للتلاميذ المصريين في المدارس الفرنسية * حتى يعرفوا – منذ نعومة أظفارهم – كل ما تدين به مصر لفرنسا ، وكل ما أنعمت به فرنسا على مصر ، خاصة أن الحملة صورت على أنها بعثة علمية ثقافية ، وليست حملة عسكرية استعمارية ، فالجند والمصريون عاشوا في وئام تام أثناء وجودهم في مصر ، وئام لا تشوبه ثورة أو عنف دموي (١) .

★★★

* انظر الملحق «١» في الجزء الثاني من الكتاب .

ونظرا لأن صاحبة هذه الدراسة كانت طوال حياتها تلميذة المدارس الفرنسية وأساتذتها، منذ نعومة أظفارها حتى حصولها على الدكتوراه؛ ونظرا لأنها قرأت الكثير مما لم يقنعها ، وبلبل فكرها بين ما تقرؤه فى الكتب الفرنسية ، وما تسمعه من آثار تركتها الحملة فى ذاكرة الشعب المصرى ، فقد قررت أن تقطع الشك باليقين ، وتستجلى الأمر بطريقة علمية ، وبالمنهج نفسه الذى تعلمته من أساتذتها الفرنسيين: فقد علموها ضرورة الأمانة العلمية ، وعدم الجهر إلا بما تراه حقا ، بعد التمحيص والتحليل والاستنباط ، ولذا كان عليها أن تدلى بانطباعاتها وما توصلت إليه من نتائج ، مستندة فى عرضها إلى مراجع موثقة لا شك فيها ، وبما أنها قررت أن تدرس ما قيل عن الحملة ، ولأنها تعرف أن الأساطير عادة ما تبنى بعيدا عن الأحداث ، ولاحتياج معين للشعب الذى يطلقها فى ظروف بعينها ، فقد رجعت إلى ما كان يقال عن الحملة حتى أثناء قيامها ، أى على لسان معاصريها وشهودها العيان ، أو بأقلامهم .

وهذه الدراسة لا تدعى الموضوعية المطلقة ، لأن الدارسة نفسها لا تعترف أساسا بالموضوعية العلمية فى الدراسات الإنسانية والتأريخى منها بالذات (وهو ما سنرجع إليه فى حينه) فهى لم تجد هذه «الموضوعية العلمية» يوما فى قراءاتها الغربية المتعددة ، إلا فيما ندر.

وعلى الرغم من ذلك فإن الدارسة حاولت جاهدة ألا تطغى مشاعرها - كابنة فلاح مصرى - على ما تقرؤه وتحلله ، وكان الأمر بالطبع صعبا، ولكن «العرض العلمى» كان دائما يؤازرها فى تلك الحالات ، لأنه - فى المقام الأول - سبب تحليلها لما تقدمه .

لا ننسى أن الهدف من هذه الدراسة كان ، منذ البداية ، معرفة الحقيقة ، ولو على مستوى الباحثة نفسها ولشخصها المتواضع .

ونظرا لأن المديح المستمر كان صفة كل الكتابات التى تناولت الحملة، فقد يظهر للقارئ أن عدم وجود هذا المديح هنا تحيز وطنى من قبل الدراسة والحقيقة أن الباحثة كتبت ، بأمانة ، ما قابلته ورأته جديرا بالنشر وسط مواطنيها من مصريين وعرب . إنها لم تخف شيئا فى محاولة للتأثير على القارئ ، ولكنها كشفت فقط ما كان مستورا عنه ، فى كتابات كان هدفها غير علمى ، بغية فرض رؤية بذاتها . ولا ننسى أن الدارسة - تلميذة المدارس الفرنسية - بدأت هى نفسها مشوارها وهى مؤمنة بما تعلمته فى المدرسة ، أى أن التنوير كان هدف الحملة ونتيجتها المؤكدة .

ثم كان التساؤل المؤرق ..

السؤال هو هل صحيح ما يقوله الفرنسيون من أن تلك الحملة الاستعمارية حولت مصر من حال إلى حال ؛ وأن مشروعها كان

حضاريا ، ساهمت فيه القوات التي آمنت بمبادىء ١٧٨٩ ، خاصة مبدأ الحرية ، فكان مشروعها وكأنه هبة للشعب المصرى ؟ هل حقا فتحت الحملة لمصر أبواب الحضارة والعلم والتحديث ، فى عصر لم يكن لها فيه مخرج آخر غير هذه الأبواب ؟ درس فهمه محمد على فأنشأ دولة مصر الحديثة .. ولكن ألا يقال أيضا إن ما فعله محمد على لم يكن إلا تطبيقا لنظريات بونابرت أستاذه ؟ بمعنى أنه لولا الحملة الفرنسية ما دخلت مصر القرن التاسع عشر والعصرالحديث ، ولولاها ، لاختلف تاريخ مصر كلية . من هنا ، انطلقت الباحثة وسط سيل من المطبوعات المتخصصة وغير المتخصصة .

★★★

ولنعرض الآن على القارىء بعض ما استخدم فى هذه الدراسة من وسائل البحث ، لتعريف القارىء على ما توصلت إليه من نتائج . إن الطريق الذى سلكته الباحثة ، فرأته يتحول فجأة إلى سلاح يفرض عليها نتائجه الموضوعية ؛ هو اللجوء إلى المراجع الفرنسية فقط – أى أن الرؤية المعروضة ، تعرض من داخل الثقافة الفرنسية نفسها ، أى رؤية أصحاب الحملة أنفسهم . إنها سلاح رادع ، فمن يستطيع أن يرفض رؤيتهم ، أو يشكك فيها ، وأولهم الباحثة نفسها ؟ وعلى مر الصفحات ، اكتشفت الباحثة أن هذا المنهج يضع تحت قلمها سلاحا

قويا، يشق طريقا جديدا يهدى إلى نتائج يصعب النيل من موضوعيتها، بغض النظر عن الاعتقادات التى سبق أن آمنت بها هذه الدارسة ، إن الكُتَّاب الذين تقرأ لهم ، هم أنفسهم خالقو الأسطورة أو المدافعون عنها، كيف يكون إذن الرد عليهم بالنفى أو التشكيك فيما قالوا ؟

★★★

ولكن هناك مشكلة الجبرتى الذى يجب أن يرجع إليه كل دارس للحملة ، وبالرغم من أننا لن نعرض له إلا للضرورة القصوى ، لأن دراسة الجبرتى ، بما فيها استعمال الفرنسيين له تحتاج إلى مجلد مستقل ، لا علاقة له بهدف الدراسة التى بين أيدينا . ومع ذلك ، فلا مناص من شرح الموقف ، حتى تتضح ، للقارئ ، الخلفية التى بنى عليها المؤرخون الفرنسيون فهمهم ، أو عدم فهمهم ، له . فهم أولا لم يقرأوا حولياته بالكامل ، وهى تناهز ألفى صفحة . فإذا قرأنا الجزء الخاص بالحملة – وهو مكون من ثلاثمائة وخمسين صفحة فقط ، خارج السياق العام لباقى تاريخ مصر فى هذه الحقبة من الزمن – تغير المعنى كلية ، وسهل على القارئ سلخ بعض الجمل ، وبالتالى ، تحوير معناها، ثم يتناسى الجميع ، مما كتب ، أجزاء فى غاية الأهمية ، تضفي على ما قاله عن الحملة ضوءا لمن يحبذها ومن يريد تمجيدها .. ومن هنا كان التدليس التام .

عندما يتحدث الجبرتى مثلا، فى بداية الجزء الأول من كتابه عن مراجعه ، وما ضاع منها ، يقول : «ذهبت بقايا البقايا فى الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسيس ما وجدوه إلى بلادهم ..» . وبهذه السرقة، تاهت كل آثار الثقافة المصرية المعاصرة ، وضاعت فى طى النسيان ، وانقطع حبل التوارث الثرى ، وكان ذلك من أسوأ النتائج السلبية للحملة ومما يحسب عليها ، ولم يذكره أحد . ولا نذكر ، أيضا ، أن أحدا علق على ما كتبه الجبرتى – فى نهاية سرده لأحداث الحملة – عما تركه الفرنسيون من خراب ، سواء فى القاهرة أو الاسكندرية ، من أجل تأمين حياتهم وبناء الطوابى لجندهم . فالجبرتى يصف قائلا : « .. وانقضت هذه السنة بحوادثها وما حصل فيها ، فمنها توالى الهدم والخراب وتغيير المعالم وتنويع المظالم ، وعم الخراب خطة الحسينية خارج باب الفتوح والخروبى، فهدموا تلك الأخطاط والحارات والدروب والحمامات والمساجد والمزارات والزوايا والتكايا وبركة جناق وما بها من الدور والقصور المزخرفة وجامع الجنبلاطية العظيم بباب النصر وما كان به من القباب العظام المعقودة من الحجر المنحوت ، المربعة الأركان الشبيهة بالأهرام ، والمنارة العظيمة ذات الهلالين . واتصل هدم خارج باب النصر بخارج باب الفتوح وباب القوسى إلى باب الحديد حتى بقى بعد ذلك كله خرابا متصلا واحدا (..) ونبشوا ما

بها من القبور فوجدوا الموتى فى توابيت من الخشب فظنوا داخلها دراهم فكسروا بعضها فوجدوا بها عظام الموتى فأنزوا تلك التوابيت وألقوها فى خارج ... » . وهلم جرا لخمس صفحات كاملة (٢) .

لم نقابل مؤرخا واحدا تحدث عن هذا * بينما سنقابل الرحالة الفرنسيين الذين لا يتحدثون إلا عن الآثار الرائعة للحضارة الفرنسية على ضفاف النيل ، على الرغم من أنهم لم يذكروا أبدا ماهية هذه الآثار.

ثم تكون المشكلة الكبرى مع الجبرتى نفسه ، وهى سلاح ذو حدين ، لأنه - لأمانته كمؤرخ - لم يرو إلا ما كان متأكدا منه ، أو واثقا كل الثقة بمصدره ، ومن ثم يظن القارئ أن الثورات والمقاومة الشعبية ، لم تحدث إلا فى القاهرة والإسكندرية ، وهما اللتان لم يتحدث الجبرتى إلا عنهما ، ولا نعرف منه إلا النزر اليسير عما حدث فى الأقاليم والوجه القبلى ، كأن مصر كلها لم تكن فى واقع الأمر إلا «مصر المحروسة» وهى التى يهتم بها الشيخ عبدالرحمن الجبرتى فى المقام الأول .

ثم تكون النقطة التى كلفت المصريين الكثير ، وهى سوء فهم المؤرخين الفرنسيين له ، أولا بسبب قراءتهم المبتورة للجبرتى ، كما

---

* انظر الملحق «١١» فى الجزء الثانى من الكتاب .

سبق وأشرنا، ثانيا أن الجبرتى - مثله فى ذلك مثل غالبية المؤرخين - كان ذاتيا فى كتابته : جاءت نظرته الطبقية لتؤثر بشدة على أحكامه التى قد توصف أحيانا بأنها غير وطنية ، فتحولت عند قرائه ، إلى «رؤية المصريين كلهم» . فما من مصدر آخر عرفنا من خلاله رأى المصريين آنذاك . فمن يعرف ، أو قرأ كتاب نيقولا ترك مثلا ؟ ولا ننسى أن الفرنسيين ، علاوة على كل ذلك ، لا يقرأون العربية ، ومن ثم لم يعرفوا الجبرتى إلا من خلال ترجمته ؛ والترجمة المعروفة ، مع الأسف غير أمينة ، بل عنصرية وغاية فى السوء من حيث نية المترجم فى التشوية المستمر والمقصود ، لتحسين صورة الفرنسيين من جهة ، والاستخفاف ، بل حتى الاستهزاء ممن كانوا يسمون «بالمسلمين» ، (وهم العثمانيون والمصريون) من جهة أخرى [٣] .

نرى إذن أن الرجوع إلى الجبرتى لن يفيدنا فى الواقع ، إلا إذا قمنا بدراسة خاصة به ، لابد من دراسة تأثيره على المؤرخين الفرنسيين، أو بالأصح استعمالهم له لتبرير وجهة نظر ، غالبا ما تكون مغلوطة ، وغير موضوعية ، وتبحث دائما عن خدمة الأسطورة بدلا من التمحيص عن الحقيقة التاريخية من ورائها .

★★★

رأت الدارسة إذن أن تترك كل هذه المشاكل جانبا لتتفرغ لنقطة واحدة ، وهى دراسة أسطورة الحملة على مصر عند الفرنسيين

أنفسهم : نشأتها ، تطورها ، وما يمكن أن يفسر انتشار تلك الأسطورة بينهم .

ولذا كان على الدارسة التى ستبحث من خلال الكتب الفرنسية لمعرفة ما دار حول الحملة أثناء قيامها وبعدها ، والتى لن تلجأ – بطبيعة الحال – إلى الكتب العربية إلا للضرورة القصوى ؛ كان عليها أن تختار ، لأن الموضوع يتطلب معرفة تفاصيل كم هائل من الكتب ، من المستحيل نقلها دون نزعة غرور من جانب الدارس ، غرور لن يسبب إلا الملل للقارىء ، دون فائدة حقيقية تعود عليه ، فالكلام يتكرر لأن المنطلق واحد . وبدا الاختيار سهلا لأن معظم من تحدث عن الحملة من المشاهير الذين يسهل الحصول على نصوصهم ، فالحجج هنا كلها موثقة ، فى كتب يسهل الحصول عليها فى مصر ، إن استحال أمر احضارها من فرنسا . ولن يشار إلى حادثة ، أو يعبر عن رأى ، إلا ومرجعه مشار إليه، حتى إن كان الرأى رأى الباحثة ، فهى ، إن وجدت رأيا لباحث فرنسي يشبه رأيها اختارت أن تعبر عنه بلسان الباحث الفرنسى ، وأشارت إلى المرجع الذى وجدته فيه ، ليطمئن قلب القارئ المتشكك فى موضوعية هذا الرأى . وهكذا لن تدافع الدارسة عن نتائج بحثها إلا بقول واحد :

« وشهد شاهد من أهلها » .

مدخل

دراستنا هذه ليست تأريخا للحملة الفرنسية ، ومن يبغى معرفة أحداث الحملة بكل تفاصيلها ، فليرجع إلى الدراسة الشاملة للأستاذ الفرنسى « هنرى لورانس » عن الحملة والتى ترجمت أخيرا إلى العربية (١) . ويبدو أن الناشر الفرنسى وجد أن وجود كلمات مثل «بونابرت والإسلام (و ..) صدام الحضارات » على غلاف الكتاب سيزيد الرغبة فى شرائه ، فوجدنا قطعا من الورق المستطيل تحمل هذه الكلمات، وقد التفت حول الغلاف الأصلى ، وهى ورقة مستقلة عنه ، وفى الحقيقة أن المؤلف يستعرض ، فيما يستعرض ، موقف بونابرت من الإسلام ، ولكننا لا نرى داعيا لإضافة هذا العنوان لنص لا يهتم اهتماما خاصا بهذا الموضوع بالذات لدرجة لفت نظر القارىء إليه ؛ ولا داعى أيضا لكلمة «صدام الحضارات» لأن القارئ المحبط لن يقابل فى هذا التأريخ الشامل إلا صدام جيوش وصدام الثوار بالجيش المحتل ، مثل هذا العنوان يجعل القارئ ينتظر ما قد يسفر عنه لقاء هذه الحضارات التي ينوه عنها العنوان ولا يجده بتاتا . فالكتاب على أية حال أحدث ، وأشمل ما ظهر في دور النشر الغربية ، فما ظهر من بعده

– على الأقل حتى كتابة هذه السطور – لا يروى ظمأ الباحث عن معرفة كل ظروف الحملة، كما يسردها هنرى لورانس فى كتابه الجامع . وهنرى لورانس هو الوحيد، بين المؤرخين الغربيين ، الذى اعترف بالدور المصرى والذى استطاع أن ينقل مشاعر المصريين إلى قرائه الفرنسيين ، وقد يكون سبب ذلك أنه يتحدث العربية بطلاقة ، ويقرؤها بسهولة ، بجانب أمانته العلمية ، فهو الوحيد ، مثلا ، الذى فهم حقيقة ما سمى بـ «انبهار الجبرتى بالعدالة الفرنسية» ، أثناء محاكمة سليمان الحلبى . كانت جملة مديح من مؤرخنا الشيخ العلامة ، تستعمل فى كل مناسبة ، لإثبات عدالة الفرنسيين وحسن إدارتهم لشئون مصر ، حتى أن الجبرتى نفسه – أى كل المصريين – انبهر بهم . والذى يقرأ حوليات الجبرتى كلها – وهذا ما فعله «هنرى لورانس» – يفهم أن الأمر يختلف كلية . فلنقرأ معا ما قاله لورانس فى هذا الصدد : « والحال أن الجبرتى وهو يحرر النسخة الأخيرة من حولياته فى عصر فتن وأعمال تدمير ، سوف يعلن الجانب النموذجى للإجراءات التى اتبعها الفرنسيون : إن هؤلاء الناس الذين لا يسترشدون إلا بالعقل ، قد سلكوا مسلكا أكثر لياقة وأكثر عدالة من مسلك المسلمين المزعومين الذين يخربون مصر . وخلافا لبعض التعليقات ، فإن ذلك لا يعنى

تأكيدا لتفوق العقل على الوحى الإسلامى ، بل هو مجرد إدانة أدبية لأولئك الذين يحكمون مصر فى وقت التحرير النهائى للحوليات » .

لقد فهم لورانس أن كلام الجبرتى لم يكن رأيا عفويا ، وإنما كان تقريعا لمعاصريه المغترين ، وتأنيبا لاذعا لتصرفاتهم ، كان هذا هو رأى الباحثة المصرية نفسه عند قراءتها للنص الكامل لحوليات الجبرتى .

وننتهز هذه الفرصة لنحيي المجهود الرائع الذى بذله هنرى لورانس، في الرسالة التي حصل بها مؤرخنا على درجة الدكتوراه ، ونحيى كتابه الذى يكاد يشمل كل ما قيل من قريب أو بعيد عن الحملة ، حتى ما قاله فرويد العالم النفسانى الشهير فى تحليله لشخصية بونابرت . نحييه وإن كان لم يقنعنا فى كثير من نتائج دراسته . ولا تتعارض دراستنا – بطبيعة الحال – مع دراسته ، نظرا لكوننا ندرس الأسطورة ولا نتعرض للتأريخ ، وإن كانت دراسته قد أمدتنا بكثير من المعلومات الجديدة علينا .

فالهدف من الدراسة التى بين أيدينا هو محاولة التوصل إلى حقيقة الأسطورة التى جعلت من الحملة الاستعمارية ، حملة «فريدة في نوعها» لأنها كانت – كما يقال – سبب وصول نور التحضر إلى المصريين، بعد أن كانوا يرزحون تحت وطأة ظلمات الجهل ، والتى جعلتها تصبح ، عند الكثيرين ، هى الباب الأول فى تاريخ مصر الحديث : فمصر كانت قبلها

لا تعرف معنى الحرية أو الديمقراطية أو العلم الحديث ، بل لم يكن لها حتى وجود يذكر (!!) .

وملخص ما يقال ببساطة شديدة إنه لولا الحملة ، لما كانت مصر ؛ بالمعنى الذى يقال عن اكتشاف كولومبس لأمريكا ، فإذا قيل « الحملة على مصر » ، كان الرد : « من هنا تبدأ مصر » .

وفى التاريخ الفرنسى ما يبرر ، أو بالأصح ، ما يشرح مثل هذه المقولة وغيرها . ولزاما علينا أن نعرف لم ، وكيف أطلقت مثل هذه الشعارات المبهمة ، حتى أصبحت من الحقائق الثابتة لديهم ؟ ، وهل تبرر الأحداث التاريخية مثل هذا التقرير القاطع فى حكمه على مصر فى ذلك العصر ؟ أم أن أحداثا تخص فرنسا ذاتها ، وسياستها الداخلية ، هى التى أوجدت ضرورة خلق أسطورة بونابرت فى مصر ؟ .

★★★

وحتى تتضح الصورة للقارئ العربى الذى عادة ما يجهل تفاصيل التاريخ الفرنسى ، علينا ، بادىء ذى بدء ، أن نتعرف على المناخ الذى انبعثت منه فكرة الاستيلاء على مصر ، بعد أن هجمت حكومات الثورة منذ عام ١٧٩٢ ، على جيرانها من الدول المجاورة بحجة نشر مبادئ ثورتها العظيمة . ونتعرف بعد ذلك على ما قاله الشهود العيان للحملة ، قبل أن يتحول كل ما يمس نابليون بونابرت إلى أسطورة مشرقة .

الجــزء الأول

عصر الأساطيــر

«لــم يكونـوا رجـالا ، بـل آلهـة ..»

٣٠ يوليو ١٧٨٩

الفصل الأول

الحملة
فى تاريخ الثورة

«ما من أحد يحب المبشرين المسلحين»

«روبسبير»

التسلسل الزمنى لبعض الأحداث التى سنتعرض لها:

- ١٧٦٣ : فقدت فرنسا معظم مستعمراتها فى الهند وأمريكا .

- ١٧٧٤ : « إعلان حقوق المواطن » للثوار الامريكان .

- ٤ يوليو ١٧٧٦ : إعلان انفصال ثلاث عشرة مستعمرة بريطانية بأمريكا الشمالية مكونة ما يعرف باسم الولايات المتحدة الأمريكية.

- ١٧٨٣ : معاهدة «فرساى» بفرنسا : انتصار ثوار أمريكا الشمالية على انجلترا بمساعدة فرنسا .

- ١٧٨٣ : إلغاء آخر قوانين تعذيب المساجين فى فرنسا .

- ١٧٨٨ : احتفال انجلترا بمئوية ثورتها على الملكية ، وترسيخ نظام الملكية الدستورية .

- ٥ مايو ١٧٨٩ : أول اجتماع « لمجلس طبقات الأمة » الذى سيتحول بشكل سريع إلى « جمعية وطنية » ثم إلى « مجلس تشريعى » .

- ١٤ يوليو ١٧٨٩ : الاستيلاء المسلح الدموى على سجن الباستيل .

– ٤ أغسطس ١٧٨٩ · النبلاء يبادرون بالتنازل عن امتيازاتهم طوعا.

– ٢٦ أغسطس ١٧٨٩ : « إعلان حقوق الإنسان والمواطن » .

– نوفمبر ١٧٨٩ . الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة – القساوسة يصبحون موظفين لدى الدولة .

– ٢٢ مارس ١٧٩٠ : « إعلان سلام إلى العالم » ، وحق الشعوب فى تحديد مصيرها .

– يوليو ١٧٩٠ : التنظيم المدنى للكنيسة .

– ٢١ يونيو ١٧٩١ : محاولة هروب الملك الفاشلة .

– ١٢ سبتمبر ١٧٩١ : الاستيلاء على أراضى بابا روما فى جنوب فرنسا .

– ٢٠ ابريل ١٧٩٢ : فرنسا تعلن الحرب على النمسا ، فتدخل الدويلات الالمانية الحليفة للنمسا الحرب بجانبها ، وهى متاخمة للحدود الفرنسية ثم الاستيلاء على بليچيكا .

– ١١ يوليو ١٧٩٢ : إعلان «الوطن فى خطر» .

– من ٢ إلى ٥ سبتمبر ١٧٩٢ : مذبحة المساجين المسماة «بمجازر سبتمبر» .

- ٢٠ سبتمبر ١٧٩٢ : أول انتصار لفرنسا فى «فالمى» .
- ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢ : إعلان «السنة الأولى للجمهورية الفرنسية بعد إعلان إلغاء الملكية» .
- ١ يناير ١٧٩٣ : إعلان الحرب على إنجلترا وهولندا .
- ٢١ يناير ١٧٩٣ : إعدام الملك «لويس السادس عشر» .
- ١١ مارس ١٧٩٣ : بداية الحرب الأهلية فى «الڤانديه» .
- ١ أغسطس ١٧٩٣ : الحكومة تصدر قرار إبادة «الڤانديه» .
- ٥ سبتمبر ١٧٩٣ : الحكومة تقرر «الإرهاب» كسياسة للدولة .
- ٩ أكتوبر ١٧٩٣ : الجمهوريون يستردون مدينة «ليون» .
- ١٩ ديسمبر ١٧٩٣: الجمهوريون يستردون ميناء «تولون» بمساعدة مدفعية بونابرت .
- ٤ فبراير ١٧٩٤ : إلغاء الرق فى المستعمرات .
- ١ أكتوبر ١٧٩٤ : ضم بلچيكا إلى الأراضى الفرنسية .
- ١٧٩٤ : نهاية «الإرهاب الأحمر» وبداية «الإرهاب الأبيض» .
- أكتوبر ١٧٩٥ : إنشاء «المعهد القومى» . كذلك يعرف اسم بونابرت لأول مرة جماهيريا .
- مارس ١٧٩٦ : «الجنرال بونابرت» قائد عام لجيش إيطاليا .

- ١٧٩٦ : فشل إنزال قوات فرنسية في ايرلندا لمساعدة الثوار ضد انجلترا .

- ١٧ أكتوبر ١٧٩٧ : معاهدة صلح مع النمسا التى هزمها بونابرت .

- ١٧٩٨ : جيوش فرنسا تدخل سويسرا وروما لتحريرها . وبداية الثورات ضد المستعمر الفرنسى .

- ١٧٩٨ : تكليف بونابرت بغزو انجلترا بعد فشل المحاولات السابقة .

- ١٧٩٨ : طرح فكرة غزو مصر كبديل لغزو إنجلترا .

- ١٩ مايو ١٧٩٨ : بونابرت يبحر إلى مصر على رأس جيش الشرق .

- ١٧٩٩ : تحالف تركيا وانجلترا ومملكة نابولى ضد فرنسا بسبب غزو مصر .

- ٩ أكتوبر ١٧٩٩ : عودة بونابرت إلى فرنسا .

- ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ : انقلاب «١٨ برومير» : «القنصل الأول بونابرت» يستولى على كل السلطات .

- ١٥ ديسمبر ١٧٩٩ : «الثورة انتهت» .

الجنرال بونابرت القائد العام لجيش الشرق

الحقيقة الكاملة كالنسيج المزخرف تتفاعل فيه الخيوط فى اتجاهات متوازية ومتقاطعة ، وتمتزج فيه الألوان الصارخ منها والباهت ، وقد يكون صاحب الفضل الحقيقى فى تحديد خصوصية النسيج وتناسقه خيطا نحيلا غير ملحوظ ، أو لونا باهتا قليل الاستعمال .

ولا يلم بكل التفاصيل إلا صانع النسيج ، كما لا يلم بالحقيقة الكاملة إلا الله سبحانه وتعالى . فكثيرا ما نرى باحثا يتتبع خيطا فى قضية ما ظنا منـــه أنه العنصر الرئيسى ، ثم يأتى باحـــث آخر تتضح له رؤية عناصر أخرى ، فتتغير الصورة . ومن تضارب الآراء قد تظهر بعض الخطوط الأساسية ، إلى أن يأتى باحث جديد باكتشاف آخر . ولذا ، لن تكون دراســتنا هذه إلا دراسة جزئية ، مثلها فى ذلك مثل كل الدراســـات ، والإنسانية منها بالذات ، أيا كان هدف الباحث أو مجهوده .

★★★

والحملة – كأى حدث ، سواء كان تاريخيا أو غير تاريخى – تتشعب أسبابها ، وتعود جذورها إلى ماض سحيق ؛ فالبعض يراها آخر الحروب الصليبية ، ويرى البعض الآخر أنها أول موجة من موجات الغزو الاستعمارى الأوربى الكاسح فى القرن التاسع عشر . لكن بعض المؤرخين يتعاملون معها على أنها حدث ثانوى ، يمرون عليه مرور الكرام .

وهم يسردون تاريخ فرنسا ؛ والبعض الآخر يتعامل معها منفصلة عما سبقها أو لحقها من أحداث ، فيقتلها بحثًا بصفتها الذاتية ، وكأنها ثمرة أتت من فراغ ، دون شجرة تحملها ، اللهم إلا علاقتها بقائدها الشهير ، نابليون بونابرت ، الذى أصبح إمبراطورا غيّر ، بعد ذلك ، مجرى الأحداث فى أوربا كلها .

أما الآن ، فنحن بصدد محاولة دراسة الشجرة التى أنبتت هذه الثمرة . فما الحملة ، فى حقيقة الأمر ، وببساطة شديدة ، إلا حدث من أحداث الثورة الفرنسية نفسها ، قبل أن تكون إحدى غزوات بونابرت ، وهذا ما يتناساه دارسو هذه المرحلة من تاريخ فرنسا . وعلينا أن نوضح حقيقة علاقة الحملة بالثورة ، لأن معرفتنا بالثورة ورجالاتها ، ستفسر لنا الكثير من أفعال الفرنسيين على أرض مصر ، وما قيل عن الحملة بعد ذلك . لأن الثورة قامت فى فرنسا سنة ١٧٨٩ ، واستمر حكمها إلى أن استولى الجنرال بونابرت على السلطة إثر عودته من مصر ؛ فما الحملة واقعيا إلا جزء من تاريخ السياسة الخارجية للثورة نفسها : إنها لا تنتمى إلى قائدها الجنرال بونابرت وحده ، فهو لم يرأسها إلا بتفويض من حكومة «الإدارة» آخر حكومات الثورة بفرنسا .

★★★

القرن الثامن عشر : عصر التنوير والثورة

الحديث المتداول عن الثورة يضعها ، بصفة عامة ، فى اطار بذاته ؛ فتجد تاريخ القرن الثامن عشر مبتورا ، يقف عند ١٧٨٩ وكأن هذه السنة نهاية قرن ، وليست نهاية حكم . ثم يبدأ الحديث عن الثورة ، التى تنتهى بالفعل مع تولى بونابرت زمام الحكم المطلق عام ١٨٠٠ ، أى عند النهاية الحقيقية للقرن الثامن عشر . وقد يكون للمؤرخين الذين يسلخون الثورة هكذا من القرن الثامن عشر مبررات وجيهة ، نرى بجانبها مبررات أخرى ترفض هذه القطيعة بين القرن ونهايته ؛ وكل المبررات لها ما يؤازرها ؛ فالحقيقة أغنى من أن تنحصر فى اتجاه واحد ، والنظرة الأحادية عادة ما تفقر الموضوع وتضعفه حتى إن أوضحته .

نقول هذا لأننا بصدد التعرف على رجالات الثورة ومنهم أعضاء حكومة «الإدارة» نفسها بالطبع . وأول ما يبدو لنا بديهيا ، أن كل هؤلاء الرجال ، نظرا لأعمارهم ، إنما كانوا ينتمون - ثقافة وفكرا - إلى القرن الثامن عشر . فهم أبناء ذلك القرن قبل أن يكونوا رجالات ثورة قامت وهم رجال ناضجون . كان بونابرت ، مثلا ، من أصغر الجنرالات سنا ، وأصغر بكثير من كل أعضاء الحكومة المخضرمين ، وكان عدد كبير من الضباط ، الذين أصبحوا تحت إمرته ، أكبر منه سنا ، وعلى رأسهم «كليبر» والنبيل «مينو» العجوز نسبيا . وعلى الرغم من ذلك ،

فإنه كان رجلا ناضجا بمعايير السن فى ذلك الزمن ، فقد كان ضابطا فى العشرين من عمره عندما قامت الثورة . ومن المعروف أن الكثير من أعضاء الحكومة ورجالات الثورة مارس الحياة العامة فى عهد الملكية ، قبل أن ينقلب عليها ، ويتحول إلى جمهورى متطرف بعد ذلك . كانوا إذن ، ونقولها مرة ثانية ، مثلهم مثل هذا الجيل كله من شباب وشيوخ ، أبناء القرن الثامن عشر وتعاليمه . وشرحنا الجزئى لثقافتهم ، قد ينير لنا الطريق ، ويشرح لنا الكثير من أفعالهم ، خاصة إن كانوا جندا أو علماء ؛ فهم بلا ريب ، واقعون ، كلهم ، تحت تأثير تعاليم القرن الثامن عشر وقيمه ، أو تلاميذ لأساتذة القرن الثامن عشر ، الذى عرف باسم عصر التنوير .

★★★

نظرة سريعة إلى هذا القرن وتعاليمه ، لابد أن تكون نظرة جزئية ، إذ إن فرنسا فى هذا القرن كانت أثرى البلاد الأوربية – بلا نزاع – من حيث الفكر والإبداع ، وإن كانت قد فقدت الكثير من هيبتها عسكريا حتى أن الإنجليز قد استولوا على معظم مستعمراتها فى العالم ، ولكنها أصبحت بلد التنوير الذى أخرج ، فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، «فولتير» و «مونتسكيو» ، اللذين عرفا بإعجابهما الشديد بالديمقراطية الانجليزية ، واللذين حاربا من أجل حرية الكلمة . وفى

النصف الثانى من القرن نفسه ، جاء «روسو» و «ديدروه» اللذان نادا بضرورة الوصول إلى نوع من العدالة الاجتماعية التى كان المجتمع الأوربى - والفرنسى منه بالذات - يتجاهلها بل ويحاربها . وكان العمل الرائد الذى أفنى «ديدروه» حياته فى سبيل إتمامه : هو الموسوعة العملاقة التى نشرت الكثير من الأفكار التنويرية ، فاشتهرت فرنسا بإرسائها . ولن نفتح هنا باب الجدل لمعرفة أصل هذه الأفكار ، إذ بدأت هذه الموسوعة نفسها كترجمة لموسوعة إنجليزية معروفة ، ولكن اللغة الفرنسية كانت آنذاك لغة المثقفين فى أوربا كلها ، بما فيها روسيا القيصرية ، وكان ما سمى «بفلاسفة التنوير» على مستوى فنى عال ، وقد حباهم الله قدرة فائقة على التعبير الشيق الجميل ، فجمعت لهم هذه الموهبة جمهورا واسعا من القراء فى كل بلدان الغرب آنذاك ؛ لذا ، كانوا أحسن ممثلين لهذا «التنوير» الذى عرفته من جهة أخرى ، كل بلدان أوربا فى ذلك القرن ، إذا كان سمة العصر .

ولو أننا لخصنا أهم مبادىء هذا الفكر ، أو بالأصح ، إذا بحثنا فيه عما يهمنا ، بالشكل الذى يفسر لنا سلوك الفرنسيين فى مصر بعد ذلك ، رأينا أولا كلمة «تنوير» نفسها ، والتنوير هنا يحارب ظلمات الجهل والتعصب الأعمى ، وكان «الفلاسفة» - كما كان مفكرو هذا التيار يسمون أنفسهم - يرون فى الكنيسة وقساوستها أسوأ ، داع

لهذه « الظلمات » ومبشر بها . وبما أن كل الأديان تقوم أساسا على الإيمان بالغيب ، كان اعتقادهم الراسخ أن كل رجل دين ما هو إلا منافق يتجر بما يدعيه من علم بهذا الغيب ، ليسيطر على العقول الجاهلة ، ويحولها إلى أداة متعصبة متطرفة ، يسخرها لمصالحه الذاتية ، أو لمصالح كنيسته . ولذا ، اعتبر الفلاسفة كل من آمن بغير ما توصل إليه العقل الإنسانى من علم ، لا يعترف إلا بما هو مادى ملموس ، متعصبا وفريسة لظلمات الجهل . من هنا كان إيمانهم بضرورة تنوير الجميع ، والارتقاء بالبحث العلمى فى كل الميادين والاهتمام بالتعليم وتشجيع التطلع إلى مزيد من المعرفة .

وتم إيجاد مفاهيم جديدة لم تكن موجودة من قبل . من ذلك مثلا أن ظهرت فى مفردات اللغة الفرنسية كلمات جديدة منها كلمة « حضارة » .

ولكن هذا الوجه من العملة ، كان له وجه آخر ، ففى الوقت الذى كان هذا الفكر يدعو للتسامح ، تمثلت إحدى نتائجه السلبية فى أنه أدى إلى ظهور لون جديد للصلف الغربى . فبعد أن كان الدين ، أى المذهب الكاثوليكى للمسيحية ، يرى حتى عهد قريب منهم ، أن من حقه بل من واجبه ، قتل الآخرين وحرقهم ، مثلما كان يفعل مع البروتستانت واليهود والمسلمين ؛ أصبح العقل وتمجيده سبب زهو الشخصية الفرنسية

الجديدة ، وبسبب ازدرائها لكل من يختلف فى الرأى معها . فكان الفلاسفة يتهمون أعداءهم بالتسلط والتطرف ، ثم يحاربونهم بكل الأسلحة المتاحة ، وهم ينشدون روح السماحة وحرية الرأى .

ومثل كل الفلسفات الجديدة والآراء المستحدثة لم تنتشر هذه الأفكار بين صفوة المثقفين – وكانت نسبة كبيرة منهم من النبلاء – إلا بعد مرور عدة عقود ، عندما قارب القرن الثامن عشر على نهايته .

ولكن الأمر كان يختلف بالنسبة للتعليم . فالكل – ونؤكد هنا على كلمة الكل – كان يشترك فى ثقافة كلاسيكية واحدة ، لم تتغير كثيرا منذ قرون ، إذ كان التعليم فى هذا الزمن حكرا على الكنيسة الكاثوليكية المعروف عنها محافظتها على التراث والتقاليد . وكانت دراسة أدبيات العصر الكلاسيكى – أدبيات روما واليونان القديمة (الإغريق) – هى أهم المواد بجانب تعاليم الدين المسيحى الكاثوليكى . فكان التلاميذ يدرسون اللغتين الإغريقية واللاتينية ، والتاريخ القديم كما كتبه المؤرخون القدامى . وكان أغلب هذا التاريخ يتغنى بأمجاد روما الخالدة : روما ، حاكمة العالم بأسره ، ومدرسة الحضارة وصاحبة الفضل فى إرساء كل القوانين العادلة أثناء عصرها الذهبى الأسطورى ، ويترنم بقصص البطولة والتضحية فى سبيل الفضيلة والوطن . وكادت البلاغة –

الخطابية منها بالذات - تكون أهم الدروس . وكان يتحتم على التلاميذ مضاهاة النماذج اللاتينية الشهيرة فى هذا المجال .

كانت نتيجة انتشار هذه الثقافة بين تلاميذ قساوسة المدارس ، عدم قدرة الفنانين على التخلص من سيطرة النموذج الكلاسيكى القديم بقوانينه الصارمة وقدسيته المهيبة على إبداعهم . كان الشعراء وكتاب القصص والمسرحيات ، ومؤلفو الأوبرات غالبا ما يلجأون إلى تقليد الفن الإغريقى ، سواء فى الشكل أو المضمون . وكثيرا ما نقابل أسماء شخصيات إغريقية أو لاتينية فى النتاج الفنى لذلك القرن . كما كان الفنانون التشكيليون يصورون الشخصيات المشهورة لذلك التاريخ القديم وأهم قصصه ، مثلما كانوا يرسمون فى الوقت ذاته صورا للسيد المسيح ولأهم أحداث الكتاب المقدس وأشهرها ، أو يصنعون له وللسيدة مريم العذراء تماثيل ؛ بينما كان الملك يشخص وكأنه من أباطرة الرومان، والأميرات كأنهن آلهة الإغريق .

وهكذا كان المثقفون يتمتعون بازدواجية رفضهم للكنيسة وتعاليمها الدينية من جهة ، وينهلون من نبع الدراسة الكلاسيكية الوثنية التى توفرها لهم هذه الكنيسة نفسها فى مدارسها من جهة أخرى .

كان هذا بالطبع ما توفر للميسورين من أبناء النبلاء ، والطبقة الصغيرة للبرجوازية الصاعدة ، وهم الذين سيتحدثون أثناء الثورة باسم الشعب كله .

أما الشعب الفقير نفسه ، ويمثل الأغلبية الساحقة من السكان ، فكان أميا ؛ وإن تلقى تعليما ، فهو لا يتلقى إلا الدروس الدينية ؛ وتتكون ثقافته كلها مما ورثه عن آبائه من أساطير وخزعبلات ؛ حتى قال «فردريك» الثانى صديق «فولتير» وملك بروسيا ، فى سنة ١٧٧٦، إن فرنسا ، « على الرغم من كل الفلاسفة التى تفخر بهم ، سواء كان ذلك بالحق أو بالباطل ، فشعبها لا يزال من أكثر شعوب أوربا إيمانا بالتطير والخزعبلات وأقلها تقدما » (١) .

ولم تختلف الحال بالنسبة لأغلبية الشعب الفرنسى حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، أى بعد حوالى القرن من هذا الوصف الواقعى القاسى . وكان الشعب عادة ما يرث - من بين ما يرث من آبائه وما يتعلمه من دينه - ارتباطه بشخص الملك الذى يحكم بسلطة مطلقة بتفويض من الله ، وهو الذى يحمى الفقراء من بطش النبلاء الاقطاعيين . كانت نسبة هؤلاء القوم فى ذلك العصر أكثر بكثير مما توحى به أدبيات الثورة ، وأسطورتها من بعدها . وتجاهل هذه الحقيقة كان سببا فى كثير من المشاكل التى كانت أهمها وأعنفها آنذاك الثورة المضادة التى تحولت إلى حرب أهلية بلا هوادة ، وكان من نتائجها على المدى الطويل، أن انشطر الشعب الفرنسى إلى شطرين ، لم يلتئم شملهما إلا بنهاية الحرب العالمية الثانية فى القرن العشرين !

المناخ الثورى

نستشف من هذه الثقافة العامة التى يشترك فيها كل متعلمى البلد ومثقفيه ، ما ستكون عليه حال رجال ١٧٨٩ الذين اجتمعوا كممثلين لكل طبقات الشعب ، لإنقاذ الدولة من أزمتها المالية الطاحنة . ولكن اجتماعهم تحول بسرعة فائقة إلى ثورة عظيمة غيرت وجه فرنسا ، وكان لها أكبر تأثير على جيرانها . فما سمات هذه الثورة ، التى امتدت أطماعها حتى أرض مصر ؟ إن تاريخ فرنسا زاخر بالثورات ، وكان آخرها - فيما قبل ثورة ١٧٨٩ - ثورتين فى القرن السابع عشر ، حاولتا تقليد ثورة «كروميول» فى انجلترا ولكنهما باءتا بالفشل ، وفى القرن التاسع عشر ، قامت أربع ثورات أخرى ، قبل أن ينتصر حزب الجمهورية على اليمين بمختلف اتجاهاته ، فكانت «الجمهورية الثالثة» التى استمر حكمها إلى بداية الحرب العالمية الثانية . وعلى الرغم من كل هذه الانتفاضات التى وصلت فى كل مرة إلى تغيير نظام الحكم ، فالإشارة ، بالفرنسية إلى «الثورة» تعنى «الثورة الكبرى» ، أى ثورة ١٧٨٩ ، وهذا ، فى ذاته ، خير دليل على تحولها إلى أسطورة ، يدافع عنها المعجبون بتحيز وتطرف لا يضاهيه إلا تحيز وتطرف أعدائهم . ومر قرنان من الزمن على أحداثها ، وانتصرت أخيرا فكرة الجمهورية على المستوى الشعبى ، وأصبح اليمين الفرنسى ، مثله مثل اليسار ، لا

يرى بدا من قيام جمهورية تنادى بمبادىء «الثورة الكبرى» فى خطوطها الإنسانية العريضة . وظهر الكثير من الدراسات بمناسبة الاحتفال الكبير بمرور مائتى عام على أحداثها ، وكانت بأقلام جيل «المؤرخين الجدد» الذين أخذوا يعيدون النظر فى كل تاريخهم ، وفى أساطيره بالذات . ومنهم نتعرف على بعض الحقائق التى أغفلتها ذاكرة التاريخ الرسمى في فرنسا من أجل تمجيد ما يعدونه بداية العصر الحديث لهم، بل بداية تكوين الشخصية الفرنسية المعاصرة . وعلينا قبل كل شىء أن نتعرف على هؤلاء الرجال الذين أطاحوا فىَ مجالسهم الصاخبة عام ، ١٧٨٩ ، بحكم دام حوالى الألف عام ، بل أطاحوا أيضا برأس الملك الذى كان يعتبر مقدسا ، بعد أن عرفنا أهم ما يميز ثقافتهم وتعليمهم . فما السمات الرئيسية لتلك المجالس المتتالية التى حولت فرنسا إلى جمهورية – سميت «بالجمهورية الأولى» ؟ كيف أصبحوا عندما عملت الأيام على صهر ما تعلموه فى مدارسهم ، بعد أن انتقلت فلسفة التنوير ومسلمات القرن الثامن عشر من عالم الكتب والفكر إلى الواقع والسياسة . فالبلد يغلى لتضارب الآمال والأحلام والمصالح ، والشارع الباريسى يفرض حكمه بالذبح والإرهاب ، واجتماعات المجالس التشريعية تقع تحت كل هذه الضغوط . كيف أصبحوا فى هذا الجو من التوتر الانفعالى المتشنج ؟ .

★★★

أول ما نلاحظه دور الخطابة فى هذه الاجتماعات - وما العجب فى هذا وكلهم تلاميذ الخطيب الروماني الشهير «شيشرون» - حيث الجمل الرنانة ، والمواقف المسرحية البطولية - مثل مواقف «ميرابو» و «دانتون» وآخرين أقل شهرة - وروح التنافس فى إظهار بذل الذات والتضحية ، التى بلغت ذروتها فى «ليلة ٤ أغسطس» (١٧٨٩) الشهيرة ، حيث تنازل النبلاء بالإجماع عن كل امتيازاتهم التى ورثوها عن أجدادهم منذ قرون ، ثم الإحساس بأن أوربا ، بل العالم كله «ينظر إليهم» ، ويعجب لما يقومون به من بطولة فريدة لم تر مثلها البشرية ، ويقينهم أنهم يصنعون أعظم بل أهم حدث فى تاريخ الإنسانية ، حدث لم يسبقه ولن يلحقه مثيل . كان هذا الشعور يتبادله أعضاء الجمعيات المتلاحقة وتؤكده الصحافة (٢) التى كانت تنقل للجمهور العريض أحداث ما يدور فى قاعات الاجتماعات : فالاجتماعات كانت علنية ، والصحافة تكتب لتقرأ بصوت عال وكأنها خطب .

وكثيرا ما كانت الصحف تبنى المبالغات الكاذبة على إشاعات يتعطش الجمهور إلى تصديقها . وكان الجميع يعيش حلم تحقيق حياة أفضل وأنبل وأكثر فضيلة ، بل كانوا واثقين أنهم يفعلون هذا ليهدونه إلى البشرية كلها ، وكأنهم يلعبون درو سيدنا عيسى عليه السلام «فى الدين المسيحى» ، حيث نراه يقدم نفسه قربانا لخلاص الانسانية (٣).

وكانت الثقة كاملة في أن شعوب العالم تنتظر من فرنسا أن تهديها بعد ذلك خبرتها وحكمتها وريادتها لإسعادها ، بعد أن قاست هذه الشعوب الأمرين ، ولقرون عديدة ، على أيدى الطغاة .

رأينا أن نقدم هنا أفضل مثل يلخص هذا الاعتقاد العام ، وهو رواية كتبت في ذلك الزمن ، عنوانها «كراوون» والمضطهدون الثلاثة ، وهم الموسكوفى والفارسى والإفريقى الذين يلجأون إلى فرنسا بعد صعاب كبيرة فأعداؤهم يسيطرون على الحكم بالإرهاب ويتوسلون كل على حدة إلى الفرنسيين أن يهبوا لنجدة مواطنيهم ويمنحوهم «قوانينهم وحكمتهم» (هكذا) . ويعد كل منهم فرنسا باحتكار التجارة مع بلده كمكافأة على هذه النجدة ، ونرى ، في هذه الأثناء ، الفرنسيين يستعدون «لتخليص هذه الشعوب البعيدة ، وليحطموا أغلالهم التعسفية [٤] » إنها أكثر من قصة : إنها برنامج سياسى مثالى ونفعى ، في الوقت ذاته ، يترجم أحلام ١٧٩١ ، التى ستتحقق بعد ذلك.

ونلاحظ بالطبع أن الأسماء لاتينية أو على الأقل ، لا علاقة لها بالعصر نفسه ، والقصة قريبة جدا من قصص الفضيلة والحكمة التي دأبت التربية الكلاسيكية على تلقينها لتلاميذ ذلك العصر ، غير أن الحكيم هنا ليس كاهنا فرعونيا ، أو الها إغريقيا ، وإنما الشعب الفرنسى نفسه .

وفى الجمعيات التشريعية توالت الكلمات التاريخية ، فى نظرهم ، لعمالقة ذوى عبقريات فذة ، ومواقف بطولية لمعارك أسطورية ، وكأن الأمر كله (كما نراه نحن ، وعلى عكس ما كانوا يعتقدون ويعتقد المفتونون بهم) مسرحية هدفها تحديد مصير الإنسانية وتحسينها ، على أيدى آلهة تمثل أمام جمهور من شعوب العالم ، جمهور ينتظر لاهثا أن يحرر على أيدى الثوار الفرنسيين . إن هؤلاء الثوار لا يتحدثون إلا ليسجل التاريخ كلامهم ، فهم لا يفعلون إلا ما يصلح مستقبل العالم، ولا يموتون إلا فداء لأفكار ستحول الأرض إلى جنة يسعد فيها الفقير قبل الغنى ، والضعيف قبل القوى .

ويبدو لنا أن ثورة الفرنسيين على نظام حكم دام ألف عام ، وتحطيمهم إياه ، ومعاملة الملك على أنه بشر عادى وليس ظل الله على الأرض ، بل والإحساس بأنه رهينة جمعهم . لعب هذا الواقع الجديد عليهم – والله أعلم – دور عقدة «أديب» فى النظرية الفرويدية . إذ كان «قتل الأب» هو الوصول إلى سن النضج والحكمة والحرية الذاتية . وبما أن الملك لم يكن يلعب وحده دور الأب بالنسبة لشعبه المثقف ولكن كان المثل الأعلى ، وهو روما ، يسيطر أيضا عليهم من خلال ثقافتهم المنغلقة على سيرتها ، وبما أن تاريخ روما كان المثل الأبدى الذى لا يضاهى ، فقد شعروا أنهم أصبحوا الآن هم أنفسهم البلد الذى حكم العالم كله

لعدة قرون [٥].ومثل الشاب الذى يقتل خوف أبيه فى داخله ، ويشعر أنه حل محله فى الحياة ، نرى جيل الثورة يتكلم ويكتب - ثم نراه يحارب - بصفته القدوة ، مثلما أصبحت روما القدوة منذ نشأتها حتى يومهم هذا. شعروا أن ما وصلوا إليه من حكمة يؤهلهم لتعليم البشرية كلها المبادىء التى يحاربون من أجلها ، من أجل حياة أفضل لهم . فكانت الصرخة الشهيرة : «الحرية والمساواة والإخاء أو الموت» . وقد وصل إحساسهم بذاتهم إلى حد نكران الجميل ، وإغفال ما كانوا يدينون به للثورات السابقة ، ثورتى ١٦٤٢ و ١٦٨٨ فى انجلترا ، والثورة الأمريكية التى اشترك فيها العديد من النبلاء الفرنسيين ، وتعلموا منها الكثير ، كانوا يتكلمون ويكتبون ويرددون مبادىء جديدة عليهم هم ، وكأنهم أول من نادى بها، والواقع يقول إن الانسانية عرفت هذه المبادىء من خلال أديان وفلسفات قد تكون بعيدة عنهم ، مثل الدين الاسلامى أو قريبة منهم مثل أفكار الإنجليزى «لوك» (١٦٣٢ - ١٧٠٤) ، التى شملت كل ما قيل عن الديمقراطية ، والنظام السياسى فى عصرهم . لقد استفاد ، من كتابات «لوك» ، فلاسفة التنوير ومفكرو الثورة الامريكية ، قبل أن تعود هذه الأفكار إلى فرنسا . ولكنهم كانوا يتكلمون وكأن فرنسا - منذ جمهورية روما الفاضلة المثالية - هى الوحيدة صاحبة الفضل على العالم ، مثل روما التى شكلت أوربا لقرون حتى العصر الحديث .

والغريب أن هذا الشعور العام ، الشعور بأنهم يقومون بعمل فريد ، عالمي الصدى ، لخير الإنسانية جمعاء ، صاحبهم منذ بداية الثورة ، في أول أشهرها في سنة ١٧٨٩ ، وهكذا أفرزت الثورة بنفسها ، ومنذ اليوم الأول ، أسطورتها (٦) التي عاشت بعد ذلك حتى مر قرنان من الزمن عليها ، دون أن يستطيع أعداؤها من الفرنسيين أنفسهم أن ينالوا منها .

ولكن اليمين واليسار ، اللذين أفرزتهما أيضا تلك الثورة نفسها، التأم شملهما بمرور قرنين من الزمن ، وظهرت أخيرا الدراسات الموضوعية للجيل الجديد من المؤرخين ، كان أغلبهم وأشهرهم من الشيوعين السابقين (مثل المؤرخ الكبير «فرانسوا فوريه») (٧) . مر هؤلاء «المؤرخون الجدد» بالمدرسة الماركسية اللينينية ، في بداية حياتهم، وكانت الدولة البلشفية قد استمدت شرعيتها التاريخية كامتداد للثورة الفرنسية ، فكانت صدمتهم كبيرة عندما انتقلوا من التمجيد المطلق لها ، حسب تراثهم اليساري ، إلى الدراسة الموضوعية ، بعيداً عن انتمائهم الحزبي السابق . وهكذا قرأنا بأقلامهم ما لم نكن نتخيل قراءته منذ بضع سنوات : رأينا مؤرخين فرنسيين يعترفون بصدق ودقة وموضوعية الدراسات الأنجلو - ساكسونية السابقة ، ويعترفون بحقائق كان الكلام عنها قبل ذلك يعتبر كفرا وزندقة.

لم تعد الكتابات عن «الثورة الكبرى» تصنف باليسار المادح أو اليمين المهاجم ؛ وتكشفت للجمهور الفرنسي حقائق مذهلة عن جمهوريتهم الأولى ، بعد أن انتصرت أخيرا ، وأصبح الجميع فى فرنسا يؤمن الآن بقدسية المبدأ الجمهورى .

★★★

نظرة سريعة إلى أهم أحداث ذلك الزمن العاصف ، الذى دام عشر سنوات ، ستحدد لنا «موقع الحملة على مصر» على خريطة الثورة ، وستشرح الأبعاد الحقيقية لاتخاذ قرار شنها دون إعلان حرب على تركيا ، باعتبارها الدولة المالكة للأراضى المصرية آنذاك .

فى شهر مايو من سنة ١٧٨٩ ، عقد نواب وممثلو «طبقات الشعب» الثلاث (النبلاء والقساوسة والعامة) اجتماعا سرعان ما انفجر محدثا ثورة عنيفة متلاحقة الأحداث ، حتى أصبح على من يريد فهم ما حدث بالضبط وكيفية حدوثه بهذه الصورة العنيفة بالذات ، عليه أن يدرس كل يوم من أيام هذا العام على حدة . كان كل يوم يزيد من سرعة العجلة التى تلقى بفرنسا وبشعبها إلى مصير غريب لم يتوقعه أى من هؤلاء النواب ، الذين اجتمعوا فى بادىء الأمر ، وبأمر الملك نفسه ، وكلهم حب وتقدير لمليكهم المفدى ، ثم حكموا عليه، بعد ذلك بالإعدام فى غضون ثلاث سنوات لا أكثر !

فقد كان أول اجتماع لممثلى الطبقات الثلاث يوم ٥ مايو سنة ١٧٨٩ ، وتوالت المصادمات متلاحقة، فكانت سببا فى خلق المناخ الذى جعل الشعب الباريسى يستولى بالسلاح على سجن «الباستيل» فى الرابع عشر من شهر يوليو من السنة نفسها ، بعد قتل مديره ونقيب التجار . لقد بدأت إذن إسالة الدماء عفويا بعد شهرين فقط من اجتماع سرعان ما أصبح «المجلس التشريعى» .

ولكن الريف بدأ ثورته المضادة ، وانتشرت الاغتيالات فى كل مكان .

وفى الرابع من أغسطس ، تنازل النبلاء عن امتيازاتهم ، وفى السادس والعشرين من الشهر نفسه ، كان « إعلان حقوق الإنسان والمواطن » .

فى هذه السنة ، الحافلة بالأيام التاريخية - وهى السنة الأولى بعد اندلاع ما سمى بـ «الثورة الكبرى» - استولى المجلس باسم الشعب على ممتلكات الكنيسة فى شهر نوفمبر . وبعدها بثلاثة أشهر، - فى فبراير من العام التالى ١٧٩٠ - ألغى نظام الأديرة ، وحرمت حياة الرهبنة على الكاثوليك ، كما رفض بعد ذلك بشهرين اعتبار الدين الكاثوليكى - وهو دين الغالبية العظمى للشعب الفرنسى المؤمن - دين الدولة . وفى يوليو تقرر «التنظيم المدنى» الجديد للكنيسة ، إذ أصبح

القسيس يقبض فيه راتبه من الدولة ، وكأنه موظف بها . تغير جذرى تلاه فى نوفمبر قانون يحتم على القسيس حلف اليمين للدستور ، فبادر بابا روما بإصدار قرار برفض هذا التشريع : ومن ثم أصبح هناك قساوسة تابعين للكنيسة يعدون خارجين على قانون الدولة ، وقساوسة قبلوا وظيفتهم المدنية الجديدة ، فعدهم المؤمنون خارجين على الدين ، وهكذا كان أول تطبيق عملى لإعلان حق الإنسان فى اعتناق أى فكر يريد ، تكفير للغالبية العظمى من الفرنسيين ، المؤمنين بكاثوليكية روما العتيدة ؛ جاء ذلك بعد أشهر قليلة من إعلان ضرورة حرية الفكر : هكذا بدأت ازدواجية المبادىء من خلال تطبيقها .

وتوالت القرارات والأحداث ، إلى أن حاول الملك وعائلته الفرار إلى خارج فرنسا ، فكانت سنة ١٧٩١ نقطة تحول فى علاقة الشعب بالحكم الشرعى . إذ لم يعد الشعب يثق بمليكه ، الذى كان محبوبا من قبل . ولم ينصرم العام ، حتى كانت فرنسا قد ضمت إلى أراضيها مدينة «أفينيون » ومقاطعة «كونتا فينيسان » ، وكانتا من ممتلكات البابا فى جنوب فرنسا ، مما تسبب فى ثورة ومذابح فيهما . واستمرت الاغتيالات فى الأقاليم ، بل وفى باريس، بينما أعلنت «الجمعية التشريعية» الجديدة الحرب على النمسا فى أبريل من سنة ١٧٩٢ ؛ كما أعلنت الحرب على القساوسة الرافضين حلف اليمين للدستور وعدتهم «مشبوهين»، وكانت

هذه الصفة هي الاسم الجديد الذى سيطارد بعد ذلك كل من يعد لسبب ما عدوا للثورة - وما أكثر الأسباب الواهية . وكان القرار الخطير فى يوليو ، وهو اعتبار «الوطن فى خطر» ، تلاه فى سبتمبر إعلان «الإرهاب» كسياسة للدولة ، ثم إيقاف سلطات الملك ، وسجنه مع عائلته ومحاكمته فى ديسمبر بعد إعلان الجمهورية .

★★★

بدأت الحرب ضد النمسا بهزائم منكرة للجيش الوطنى ، وكان أغلب ضباطه قد فروا خارج البلاد مثل باقى النبلاء . وكان قرار التخلص من أعداء الداخل أول نتيجة للهزيمة ، فهجم الغوغاء على السجون ، وذبحوا السجناء ، وكان أغلبهم «مشبوهين» من نبلاء وقساوسة ، وأبرياء ، لم تتم محاكمتهم .

ثم دارت دفة الحرب ، وبدأت الانتصارات العسكرية ، واستولت الجيوش الفرنسية على كثير من المقاطعات المتاخمة للحدود ، كما استولت على بلچيكا . وأعلنت «الجمهورية» فى سبتمبر من عام ١٧٩٢ ، ثم كانت محاكمة الملك بتهمة الخيانة العظمى والحكم عليه بالإعدام وتنفيذه فى بداية ١٧٩٣ . واتسع نطاق الحرب ، إذ شملت إلى جانب أعداء فرنسا من حلفاء النمسا ، كلا من انجلترا وهولندا ثم أسبانيا . وأمرت الجمعية الحاكمة آنذاك تجنيد ثلاثمائة ألف فرنسى من الأقاليم،

وأمرت بإنشاء محكمة جنائية ثورية لمحاكمة الخونة والمشبوهين . وفى الوقت نفسه بدأ التمرد فى مقاطعة «ڤانديه» فى غرب فرنسا ، بعد أن جرت فيها اغتيالات ومذابح عديدة ، بسبب رفض أهلها الكاثوليك قرار التجنيد ؛ وهم بذلك يضربون أكبر مثل على ما يعرف بـ «اليمين» فى فرنسا ، وهم الرافضون لفكرة الجمهورية بصورة مطلقة .

وفى العام نفسه - ١٧٩٣ ، وهو ما يعرف بـ «عام الثورة الحمراء» - مُنيتْ الجيوش الفرنسية بالهزائم فى الخارج ، بينما كان الصراع على السلطة فى باريس على أشده ، فقد قويت شوكة الثوار الباريسيين ، وأصبحوا يهددون أعضاء الجمعية المنتخبين أنفسهم ويتهجمون عليهم حتى فى قاعتهم ، ليفرضوا عليهم إرادة الشارع الباريسى . فانشق أعضاء المجلس نفسه إلى تيارات متناحرة ، خاصة أن الأقاليم وممثليها كانوا يرفضون سيطرة باريس وسكانها على نواب مقاطعات فرنسا الأخرى . واندلعت الحرب - بمعنى الكلمة - فى مقاطعة «ڤانديه» وما حولها فى غرب فرنسا ، ضد جند الحكومة الجمهوريين الملحدين ؛ وتوالت فى الوقت نفسه هزائم الجيش على الحدود ، فتقرر إعلان «الإرهاب» كسياسية للدولة لإنقاذ الموقف . وإنقاذ الثورة . فقد كانت البلد تعانى أيضا من اضطرابات دموية فى الأقاليم ، حتى قيل مثلا إن

الجيش الجمهورى «استرد» مدينة «ليون » وهى من أكبر المدن الفرنسية؛ وكأن الأعداء الغرباء هم الذين كانوا يسيطرون عليها . ناهيك عن دخول الانجليز إلى «تولون» فى جنوب فرنسا ، بعد أن فتحها أهلها للعدو .

وفى ظل هذه الظـروف المأساوية قررت الجمعية أن تظل «الحكومة ثورية» إلى أن يتحقق السلام . وفى هذه الأثناء ، انقلب أعضاء الجمعية على أنفسهم فأصبحوا يتبادلون الاتهامات فيما بينهم إلى حد الاتهام بالخيانة ، فكان الحكم بالإعدام على كل التيارات المختلفة بالتوالى . واستمر الوضع حتى نهاية سيطرة «روبسبيير» على الحكم، وديكتاتورية «لجنة الإنقـاذ العـام» ، ولم يتـبق فى الساحة غير المنتفعين بالثورة ، بعد أن قضى على «روبسبيير» وأصدقائه من «اليعاقبة» .

وبسقوط هؤلاء اليساريين المتطرفين فى يوليو ١٧٩٤ ، وبانتهاء «الإرهاب» كسياسة للدولة ، بدأت صفحة جديدة فى قصة الثورة : أعيد تنظيم الأمور ، فكانت على شكل ردة يمينية ، لم تكن - بأية حال - أقل دموية مما سبقها من «الإرهاب الأحمر» ، إلا أنها سميت «بالإرهاب الأبيض» ، لون الملكية والنبلاء والكاثوليك بطبيعة الحال . وانتشرت الفوضى فى مقاطعات الشرق والجنوب ، ولكن حرب «القانديه» فى

الغرب انتهت أخيرا ، بعد إبرام معاهدة للصلح مع ما تبقى هناك من ثائرين على النظام الجمهورى . وفى هذه الحقبة تمت محاكمة الذين تسببوا فى إعدام آلاف السجناء ، أثناء «الإرهاب الأحمر» ، بصورة عشوائية وبطريقة وحشية مثلما فعل «كاربيه» ، مندوب الحكومة ، فى مدينة « نانت» فقد كان لكثرة عدد المحكوم عليهم،(وغالبا ما كان ذلك يتم دون محاكمة) ، يضعهم فى قوارب يغرقها وسط النهر العريض . واستمرت الاغتيالات مع الأحكام بالإعدام فى باريس .

وفى الخارج ، اعترفت المملكة البروسية بالجمهورية الفرنسية ، بينما ضمت الحكومة الفرنسية بلچيكا إلى أراضيها . وعرف لأول مرة ضابط يدعى «بونابرت» ، ساعد فى أكتوبر ١٧٩٥ ، على سحق محاولة للملكيين المتظاهرين للسيطرة على الحكم ؛ ثم جاءت الحكومة الجديدة ، حكومة «الإدارة» ، إلى السلطة .

وفى العام التالى ١٧٩٦ ، عين الجنرال بونابرت قائدا لجيش الحملة على إيطاليا ، ولم يكن أهم جيش ولا أخطر موقع ، بينما عين الجنرال «مورو» الشهير على رأس الجيش الذى يحارب على الحدود الشرقية لفرنسا . واستمرت المعارك مع العدو الخارجى ، بينما توالت ، فى الداخل ، مؤامرات الملكيين تارة ، ومؤامرات متطرفى يسار ذلك العصر

تارة أخرى . وفى كل مرة تحبط حكومة «الإدارة» المؤامرة . وهزمت فرنسا على حدودها الشرقية ، بينما انتصر بونابرت فى ايطاليا . ويفشل الجنرال «هوش» فى حملته لمساعدة أيرلندا ضد انجلترا . وكان «هوش» هذا أكثر جنرالات الثورة الشبان صيتا وشعبية وقد وافته المنية بعد ذلك بسنة واحدة ، بينما كان بونابرت ينهى الحرب مع النمسا، منتصرا ، فى إيطاليا ، ليصبح البطل القومى الأوحد : لقد حقق السلام، وهزم العدو بشكل لم يكن متوقعا ؛ إذ كانت أخطر المعارك شأنا فى وسط أوربا ، على حدود فرنسا ، فاستطاع أن يهزم النمسا باحتلال مستعمراتها ، فسلمت ، وانتصرت فرنسا ، وبدأت المفاوضات بفضله . وفى أول عام ١٧٩٨ ، دخلت الجيوش الفرنسية سويسرا ، ثم روما ..

كلف بونابرت بطل الحرب والسلام ، بغزو انجلترا بعد ذلك ، ولكنه أدرك استحالة تحقيق هذا الهدف ، فطرحت فكرة غزو مصر لضرب المصالح البريطانية . وبتوكيل من حكومة «الإدارة» بدأ بونابرت يستعد لشن حملة على مصر فى شهر مايو من العام نفسه . ولكن الحرب اشتعلت فى إيطاليا مرة أخرى بسبب احتلال روما ؛ وفى الوقت نفسه قام تحالف بين تركيا وروسيا وانجلترا ومملكة نابولى ضد الجمهورية الفرنسية .. لاحتلالها مصر .

واستمرت المعارك عند نهر «الراين» ، على الحدود الشرقية مرة أخرى ، وأعلنت فرنسا الحرب على النمسا مرة أخرى . وتتلاحق الهزائم ، سواء فى إيطاليا أو على الحدود الشرقية لفرنسا؛ ويقال إن بونابرت ترك جيشه سجينا مهددا فى مصر عند سماع هذه الأنباء ، فأبحر من الاسكندرية متجها إلى فرنسا فى الثالث والعشرين من أغسطس ١٧٩٩ ، ولكن يشاء الله أن تنقلب الموازين وترجح كفة فرنسا فى الحرب أثناء رحلة العودة وتحرز الجيوش الفرنسية انتصارات متلاحقة ، وتنجح فى صد الغزاة المنتصرين ، ويصل بونابرت بعد زوال الخطر .

نزل بونابرت على أرض فرنسا فى التاسع من أكتوبر ١٧٩٩ ، وبعد شهر واحد بالضبط ، أى فى التاسع من نوفمبر ، قاد الانقلاب العسكرى الذى وضعه بالقوة على رأس الدولة .

تاريخ فرنسا بعد ذلك هو تاريخ الجنرال بونابرت الذى أصبح «القنصل الأول» فى الحكومة الجديدة . وانتهت حكومات الثورة ، حتى أن نابليون - الذى توج نفسه إمبراطورا بعد ذلك - قد ادعى أنه الثورة فى ثوبها الجديد .

★★★

عرضنا بإيجاز شديد وبنظرة خاطفة ، ما رأيناه أهم الأحداث التى غيرت - فى عشر سنوات - خريطة فرنسا ، على المستوى الجغرافى

والمستوى الإنسانى . وإن كان القارىء عادة ما يلهث وراء هذه الأحداث المهمة المتلاحقة ، فما بال أهل البلد الذين عاصروا تلك هذه الأحداث ، وعاشوا مع المحاكمات والاغتيالات وأحكام الاعدام العديدة يوما بعد يوم . ولم يكن طبعا هذا هو الوجه الوحيد لحكومات الثورة . فالحق أن الثورة حاولت الكثير إذ كان رجالاتها ، كما سبق أن ذكرنا ، من رواد فكر التنوير . فكان الاهتمام بالعلم والفن والتعليم، كما كانت محاربة الكنيسة والنبلاء . وقد نجحت بعض مشروعاتهم التى تنعم بها فرنسا حتى يومنا هذا ؛ ولكن حقيقة الأمر أن فكرها ومبادئها لم يتبلورا عمليا وايجابيا فلم يأتيا بثمار أكيدة ، اللهم إلا انتصار التيار الجمهورى على أحزاب اليمين المختلفة ، أيام «الجمهورية الثالثة» فى ثمانينات القرن التاسع عشر .

لم تنجح الثورة فى فرنسا نفسها ولم تضع أسسا راسخة ، إلا بعد مرور قرن من الزمان وكان ، هو أيضا ، قرنا حافلا بالثورات ، وبمحاربة أفكارها . و «الجمهورية الثالثة» هى التى أعادت لفرنسا «مبادىء ٨٩» كما يسمونها ، هذه المبادىء التى كانت كفيلة بإسعاد البشر ، فذهب ضحية محاولة تطبيقها فى بادىء الأمر ، آلاف من الفرنسيين ، بل آلاف من الأوربيين .. والمصريين . ونحن – فى هذه الدراسة – لا نهتم بإنجازات الثورة نفسها، فهى خارج نطاق اهتمامنا

المباشر . وقد نذكر فيما بعد بعضا منها لضرورة شرح محاولات الفرنسيين المماثلة في مصر .

★★★

الثورة والحرب فى الداخل

العنف الدموى كان أهم سمات تلك السنوات العشر ، التى حفلت بالأمانى والاحباطات ؛ وتلك حقيقة تبرز من خلال سرد الأحداث فى تسلسلها التاريخي باقتضاب وتجرد .

وهذا العنف الدموى اتسمت به كل الممارسات ، خاصة فى الداخل، وذلك منذ الأشهر الأولى لأول اجتماع لممثلى «طبقات الشعب» الفرنسى تحت رعاية الملك المحبوب . فقد قدر عدد الضحايا - الذين أعدم الكثير منهم دون محاكمة - بأربعين ألفا ، وقد راح ضحية الذبح فى السجون المكتظة «بالمشبوهين» آلاف الأبرياء . ناهيك عن معاملة المتمردين على دكتاتورية باريس فى الأقاليم . فعندما ثارت مدنية «ليون» على باريس وقرارات مجلسها في مايو من عام ١٧٩٣ ، تم حصارها وكأنها مدينة في بلد عدو يشن حربا نظامية ضد فرنسا . وبعد استسلام سكانها ، تقرر هدمها ، وصدرت من المحكمة العسكرية أحكام بالاعدام على ألفى سجين دون الاستماع إلى أقوالهم أو استجوابهم . ونظرا لضيق الوقت، فقد تم اطلاق الرصاص عليهم فى الخلاء ، «بالجملة» . هكذا مات ألفان

من الفرنسيين الرافضين للثورة . ومثل هذه المجــازر لم تذكر فى التاريخ الرسمى للثورة ، الذى كان يدعم ، بكل الوسائل ، فكرة ما يسمى «الوحدة الوطنية المقدسة» . لقد أنكروا ، بل حتى لم يذكروا أن شعب فرنسا كله ، وبكل فئاته – باستثناء النبلاء والقساوسة بالطبع – كان رافضا لحكومات الجمعيات المتتالية فى باريس . إلى أن جاءت الموضوعية المستحدثة «للمؤرخين الجدد» وأزيح النقاب عن صورة مخالفة تماما لما أرسته «أسطورة الثورة» فى أذهان الفرنسيين.

ولكن «حرب ڤانديه» وهــى أكثر الأمثلة مأســاوية لمعــاملة الثورة لمن كان يرفض حكمها ، كانت أكبر من أن تخــفى ، ولذا بقيت فى ذاكرة الفرنسيين حتى الآن . وكان الشــعار بحــق : «الحرية والمساواة والإخاء أو الموت» ، وقد بدا وكأن الموت هنا ليس فقط للشهيد الذى يحارب من أجل باقى الأهداف ، بل هـو مصير كل من يعترض على هـذا القـول .

ولذا رأينا أن نعرض «حرب ڤانديه» كمثل مجسد لما لحق بمن رفض أن يستـجيب لهـذا النـداء ، حتى وإن كان فرنسيا . والأمر يهمنا فى المقـام الأول ، لأن كل من «كليبر» و«مينو» ، اللذين سيحكمان مصر فيما بعد ، كانا من بين ضباط الجيش الذى اشـترك فيما سمى «بإعـادة السـلام إلى ڤانديه» ، أى إخماد الفتن فيها .

★★★

في شهر مارس من سنة ١٩٩٣ - أى بعد مرور مائتى سنة على الأحداث التى سنشير إليها - شيد نصب تذكارى فى قرية «لوك سوربولونى» بمقاطعة «ڤانديه» ، يخلد ذكرى خمسمائة وأربع وستين ضحية ، من بينهم مائة وسبعة أطفال (٨) ، تم قتلهم وهم عزل ، على أيدى الجنود «الزرق» ، وهم جند جيش الحكومة المركزية آنذاك . كانت المقاطعة قد عرفت بتشددها الدينى ورفضها لتأميم ممتلكات الكنيسة ، وتحويل القساوسة إلى موظفين فى الدولة الملحدة . وقد ذكرنا أن الغالبية العظمى من قساوسة تلك المناطق فى غرب فرنسا ، كانوا من المنشقين الذين رفضوا حلف اليمين للدستور . كانت الشائعات تتهمهم مثلا فى مقاطعة «بريتانيا» بالتحريض على قتل من آمن بالثورة ، فمن حارب الثورة شهيد له الجنة؛ وشائعات أخرى تتهمهم بتحريض المؤمنين على عدم دفع الضرائب ورفض الخدمة العسكرية ، بل حتى الابتعاد والهروب بعيدا عن الجمهوريين ، ورفض التعامل معهم .

وعندما قررت الحكومة تجنيد الشباب لسد حاجة الجيش فى حربه ضد أوربا فى مارس ١٧٩٢ ، رفض المؤمنون فى هذه المقاطعات ، وأهمها مقاطعة «ڤانديه» ، التجنيد . فالمطلوب منهم الموت فى سبيل آراء وأفكار لا يمكن أن يوافقوا عليها . فكانت الاغتيالات وكان

العصيان الذى سرعان ما أصبح مسلحاً . ثم تحول الأمر إلى حرب أهلية بمعنى الكلمة . واقترف الجانبان فظائع تقشعر لها أبدان من يقرأ تفاصيلها .

وكان البرجوازيون ، من عامة أهل المدن المثقفين ، جمهوريين ، ملحدين من أنصار فلسفة التنوير ، بينما يتصف أهل الريف بتمسكهم بدينهم ونبلائهم . ولا ننسى أن الملك قد أصبح قديسا شهيدا بعد أن نفذ فيه حكم الإعدام على أيدى حكومة ملحدة ، لم ير فيها فلاحو هذه المناطق إلا كفارا وخونة . وساءت الحال ، فقرر الوزير «كارنو» أن الحل الوحيد لإنهاء الأزمة يكمن فى إبادة المنطقة بأكملها. وصوت المجلس الحاكم لهذا القرار الذى كانت نتيجته قتل حوالى مائة وخمسين ألفا من السكان ، ناهيك عن تدمير ما كان موجودا ، حتى انتهت المنطقة اقتصاديا لعقود عديدة . وكان الجنرال «هوش» هو المنتصر فى تلك الحرب ، التى لا تزال تثير الجدل الساخن حتى الآن . فالبعض يصر على اعتبار ما حدث فيها «حرب إبادة» ، لأن عدد الضحايا يصل إلى ستمائة ألف شهيد ؛ بينما لا يرى فيها البعض الآخر إلا صورة مكبرة لما كان يحدث فى الوقت نفسه فى باريس ، اثناء تطبيق سياسة «الارهاب» ، وأن عدد الضحايا لم يتجاوز المائتى ألف

وعلى أية حال ، فقد تعامل جند الجنرال «هوش» مع السكان وكأنهم «قوة عظمى تحتل مستعمرة» ، كما يقول المؤرخ «سوليه » [٩] . وهذا ما يؤكده بالفعل تقرير مسئول الدولة الذى قال «الغابات ستقطع، وملاجىء المجرمين ستحطم ، والزراعات ستقلع (..) والبهائم ستصادر. أما النساء والأطفال والشيوخ ، فسيرحلون إلى الداخل» [١٠] . وكان «كليبر» من كبار الضباط المسئولين فى تلك الحرب، وشارك فى الانتصار الدموى الكئيب . وعلى الرغم من هزيمة جيش المتمردين فإن السلام لم يستتب ، فكانت بعثة «الطوابير (العسكرية) الجهنمية» الشهيرة ، التى أتت على الأخضر واليابس . ولو أننا بحثنا عن اسم معاصر لها ، لقلنا «فرق الموت» ، غير أنها قامت بأمر الحكومة . وكانت صرخة الانتصار التى أطلقها الجنرال «وسترمان» فى ديسمبر من عام ١٧٩٣ : «لم يعد هناك ما يسمى «بڤانديه» ، لقد ماتت تحت سيفنا الحر ، بنسائها وأطفالها . لقد دفناها فى مستنقعات وغابات منطقة سافنيه . لا يوجد سجين واحد يثقل ضميرى . لقد دمرت كل شىء » [١١] . هكذا كان يتعامل «السيف الحر» مع أبناء جلدته ، باسم الحرية ، إذا ما اختلفوا معه فى الراى . وهكذا كانت الدولة التى قامت لتحرر الإنسانية وتسعدها ، بينما كان «كاربييه» يغرق ثلاثة آلاف من أهل مدينة «نانت» ، نظرا لضيق الوقت الذى لا يسمح بالإعدام الفردى لكثرة عدد السجناء . لم تر الحكومة

حلا لمشاكلها الداخلية إذن إلا ما سمى بسياسة « الأرض المحروقة » (١٢) التى تفنى الحياة نفسها بعد إبادة البشر .

★★★

حرب « ڤانديه » حالة خاصة طبعا ، ولها ظروفها التى قد - ونقول قد - تشرح العنف الذى عوملت به . وهذه الإبادة - بالقطع - أكثر الصفحات سوادا فى تاريخ الثورة . ولكن ، يبقى عام ١٧٩٣ بما سفك فيه من دماء على باقى أرض فرنسا ، رمزا لعنف جعل الكثيرين لا يرون فى الثورة إلا وجه « حكومة الإرهاب » الدموى ، وضحاياها الذين وصل عددهم فى باريس وحدها إلى أربعين ألفا ، منهم ثلاثة وعشرون ألفا أعدموا دون محاكمة (١٣) . ولا ننسى أن سكان فرنسا فى ذلك العصر لم يكونوا قد تجاوزوا الخمسة ملايين.

فإذا رجعنا إلى مبادىء الثورة ، «وحقوق الانسان والمواطن» ، هالنا التناقض الصارخ بين المبدأ وتطبيقه . ولكنه الواقع التاريخى ، والنذير لما يمكن أن يحدث للشعب المصرى المستعمر .

الثورة والحرب فى الخارج :

هذا الواقع التاريخى يفرض علينا رؤية خط أساسى آخر ، نراه واضحا فى سردنا السريع للأحداث ، ألا وهو الحروب التى لم تنقطع منذ إعلان أولاها فى أبريل من سنة ١٧٩٢ . وقد قيل مرارا فى الأسطورة الرسمية للثورة ، إن الممالك والإمبراطوريات خافت على

شعوبها من المثل الرائع الذى يضربه شعب فرنسا باعتناقه مبادىء الثورة ! والمعروف أن الثورة قامت لصالح الجماهير وضد الطغاة المتوجين ؛ ولذا ، أغار طغاة أوربا على الجمهورية الوليدة لقتلها فى المهد قبل أن تنتشر عدوى أفكارها المسمومة ، فتتزعزع العروش وينتهى عهد الملكية والحكم المطلق فى العالم . وكان يقال أيضا إن جنود فرنسا الجمهورية ، هم جنود أول جيش وطنى يدافع عن مبادئه - وأين جيش «كرومويل» في انجلترا القرن السابع عشر ؟! - وأول جيش يحارب فى سبيل تحرير الشعوب الأخرى . فكان انتشار أفكار الثورة والديمقراطية حيث ذهب الجند الفرنسيون ، فألقوا ببذرة الحرية، بل استشهدوا فى سبيل انتصارها وهم ينشدون «المارسييز» ، فداء تحرير الإنسان .

قد يكون أفضل تعبير لما حدث «للمؤرخين الجدد» من صدمة عند إعادة قراءة تاريخ بلدهم ، ما قاله أحدهم : «لقد استشطت غضبا يوم اكتشفت حقيقة نشيد المارسييز الذائع الصيت ، الذى حرمنى تعليمى من رؤيتها . إنه يقول بالحرف الواحد : «أتسمعون فى حملاتنا ، زئير هؤلاء الجند المفترسين * ! لقد اكتشفت أننا فى عام ١٧٩٢ ، كنا نحن المعتدين . نحن الذين أعلنا الحرب على أوربا . إن الكذب الوطنى لا قيمة له عندى» (١٤) .

---

* أنظر الملحق فى الجزء الثاني من الكتاب .

نعم . لم تفرض أوربا الحرب على فرنسا التى كانت تقوم بثورة لا يمكن اعتبار أفكارها جديدة فى ذلك العصر . وقد سبق أن قلنا إن مثقفى أوربا كلهم كانوا فى غالبيتهم العظمى ، من أتباع فلسفة التنوير، وكان لابد لهم أن يصلوا إلى نتائج الثوار الفرنسيين نفسها على المستوى السياسى ، وكان الاتجاه «اليسارى» له أنصار فى كل البلاد .

وكانت انجلترا قد احتفلت فى سنة ١٧٨٨- أى قبل عام واحد من قيام الثورة الفرنسية- بمرور مائة عام على ثورتها الثانية، ثورة ١٦٨٨، التى أرست، مع نظريات المفكر الإنجليزى المعاصر لها، «لوك» كل ما وصل إليه الغرب من تأكيد للفكر الديمقراطى وتقنينه، وكانت هناك أيضا الثورة الأمريكية من أجل التحرر والحرية، لقد كان لها أكبر صدى فى العالم القديم، وفى فرنسا بالذات، إذ اشترك الكثير من النبلاء فى الحرب ضد انجلترا، بجانب الأمريكيين الثائرين على ملكهم الإنجليزى، كان أشهرهم الضابط الفرنسى «لافاييت» الذى حارب مع «چورچ واشنطن» . لقد لعب «لافاييت» بعد ذلك دورا مرموقا أثناء الثورة، وهو الذى اقترح، مثلا، «إعلانا أوربيا لحقوق الإنسان والمواطن» ، على غرار «إعلان الحقوق» الأمريكى . وكان «توماس چفرسون» (الذى صاغ الإعلان الأمريكى سنة ١٧٧٦) سفيرا لبلاده فى باريس فى ذلك الوقت ، فساعد على صياغة النسخة الفرنسية التى أعلنت فى أغسطس من عام ١٧٨٩ .

والحق ، أن مثقفى أوربا ، وألمانيا بالذات ، هللوا فرحا لقيام الثورة فى فرنسا ، ولم تكن الأحزاب الثورية قليلة فى البلاد الأخرى ، كما سنرى فيما بعد . وزادت الفرحة عندما أصدرت الثورة ، فى الثانى والعشرين من مارس ١٧٩٠ ، «إعلان سلام إلى العالم» ، أكدت فيه حق الشعوب فى تقرير مصيرها .. ولكنها أعلنت الحرب عليهم بعد ذلك بسنتين دون سبب واضح يبرر العدوان . ثم كانت «مذابح سبتمبر» فى السجون للأبرياء والمشبوهين ، تلتها محاكمة الملك وإعدامه وبطش «حكم الإرهاب» : أحبط كل هذا حماس المؤيدين ، وتحولت نظرتهم من إعجاب وانبهار إلى نقد وسخط . وزاد «الطين بلة» أن الجند الفرنسيين شوهدوا على حقيقتهم فى البلاد التى «حرروها» . والسؤال هنا ، طبعا ، ما الضرورة الفعلية وراء «تحرير» البلاد بالسلاح فى ذلك الوقت الحرج من الثورة المشتعلة تحديدا ؟

★★★

تؤكد الدراسات الحديثة أن «الثورة هى الحرب» فكيف حدث ذلك؟. يبدو ، أن الجميع كان يريد الحرب ... اللهم إلا «روبسبيير» المعروف بأنه «سفاح الثورة» !

كانت الملكة «مارى - أنطوانيت» وحزبها فى البلاط الملكى وخارجه ، مثلا ، تأمل فى قيام حرب تنتهى بهزيمة حربية لفرنسا ، تخلصها من

أصحاب الآراء السياسية الجديدة ، فتعود الأمور إلى سابق عهدها ، وكانت على اتصال بكثير من النواب الذين كانوا يخطبون ود البلاط سرا ، ناهيك أيضا عن الضباط ، لأنهم كانوا ، كلهم ، من النبلاء . لكن إمبراطور النمسا المسيطر على كثير من بلدان أوربا ، كان مشغولا مع حلفائه بما هو أخطر عليهم بكثير مما يحدث في باريس ، وهو صراعهم مع الدولة العثمانية . لذا ، لم يستجب الإمبراطورالنمساوى لنـدا أختـه ملكة فرنسا ، واكتفى بالإنذارات الشفوية .

وقد قامت الثورة سنة ١٧٨٩ ، ومرت ثلاث سنوات عاصفة ، دون إعلان حرب من أى بلد أوربى أو حتى تشكيل تحالف ضد فرنسا ، إلى أن أخذت فرنسا بنفسها المبادرة .

كان الثوار أنفسهم يحلمون بالحرب ، ولا ننسى ما سبق أن ذكرناه عن سيطرة فكرة روما وعظمتها ، ومحاولة تقمص دورها . ولا ننسى أن نوعا من جنون العظمة كان يحتم عليهم «تحرير الشعوب» ، وكان لـ «روبسبيير» قول مأثور أمام هذه الأفكار ، إذ قال بالحرف إن الحرب لا يمكن أن تنتهى إلا بإفراز دكتاتورية عسكرية ، وإن الملك - أى عدو الشعب - هو الذى يريد الحرب . أما أن تنشر الثورة أفكارها ومبادئها بهذه الصورة ، فهذا كلام لا يعقل لأن «ما من أحد يحب المبشرين المسلحين» (١٥) .

ولكن ، إذا ما انتقلنا من عالم الشعارات المثالية المضللة ، وبحثنا فى الواقع الحقيقى ، الذى عادة ما يكون مريرا ، وجدنا أن المرأى الغالب بين مجلس النواب كان يرى أن سياسة خارجية عدوانية ستساعد على حل الكثير من المشاكل التى يعانى منها البلد ، وقد قيل صراحة فى إحدى الجرائد : «لن نستطيع تحسين اقتصاد فرنسا ، ولن نستطيع شد أزر الثورة ، مادام هناك تهديد خارجى ، كما أشارت الملكة إلى احتمال حدوث غزو أجنبى» (١٦) : كان حزب «الچيروندان» هو المسيطر فى ذلك الزمن ، وقد قال أشهر نوابه آنذاك ، إن الحرب «ضرورة من أجل اقتصادنا ومن أجل الهدوء الداخلى» (١٧) . وكان الرأى العام كله متعطشا إلى سفك دماء الأعداء ، كما نرى ذلك جليا فى نجاح نشيد نواب «مرسيليا» الحربى العدوانى ، الذى عرف باسم «المارسييز» : إنه ينادى «بيوم المجد» ، والمقصود به المجد الحربى طبعا ، و«بارتواء الحقول بدماء الأعداء» .

أعلنت فرنسا الحرب على النمسا فى العشرين من أبريل ١٧٩٢ ، فاشتعلت النيران فى أوربا كلها ، ولم تنطفئ إلا فى عام ١٨١٥ .

كانت معركة «ڤالمى» فى شهر سبتمبر أول انتصار للفرنسيين ، وكانت بمثابة أسطورة ، تغنت بها ، بعد ذلك ، أجيال من تلاميذ المدارس ، على أنها فتح للشعوب وانتصار للحرية (١٨) . أما حقيقة

الأمر ، فإن أول ما أنتجته تلك الحرب ، كان «عصر الإرهاب» ، تلك الحرب التى كان مقررا لها أن تقوم تحريرا للبلاد الأوربية قبل باقى بلاد العالم ، فكانت المحاكم الثورية والقبض على «المشبوهين» ، ودكتاتورية كل من «روبسبيير» وحزب «اليعاقبة» . هذا على مستوى فرنسا . ولكن كيف كانت حال الشعوب التى «حررتها» جيوش الثورة ، وجعلت منها ما يسمى بـ «الجمهوريات الأخوات» ؟ .

تحرير شعوب أوربا

لكل بلد تراثه السياسى ، تفرضه عليه ظروف عدة ، أهمها دون أدنى شك ، موقعه الجغرافى ، وكان من ثوابت سياسة فرنسا خطان أساسيان هما اللذان يهمنا أمرهما : أولهما صداقة قديمة تربطها بالعثمانيين ، يرجع تاريخها إلى القرن السادس عشر ، حتى تهدد بهم أعداءها فى النمسا ، وثانيهما هدف أزلى ، يرجع إلى ألف عام ، وهو السيطرة على كل الأراضى التى تحدها المياه والجبال ، خاصة جبال «الألب» ونهر «الراين» شرقا ، وذلك لأن فرنسا لم تكن - على مر القرون - إلا دويلة صغيرة محدودة المساحة ، فأخذت تزحف وتمتد رويدا رويدا لتصل بأراضيها إلى ما سمى «بحدودها الطبيعية» كان هذا الهدف سببا فى سلسلة طويلة من الزيجات الملكية السياسية [١٩] والحروب الطاحنة ، استطاعت فرنسا خلالها أن

تضم بعض المقاطعات التى كانت مستقلة ، أو تابعة لبلدان أخرى . وكما كانت تلك هى السياسة الملكية قبل أن ينتهى عهدها ، أصبح ذلك أيضا هو هدف فرنسا الجمهورية ، عندما تخلصت من الملك فبينما هجم جيش الثوار على الحدود الشرقية ، كان السبب المعلن هو إبعاد خطر الاحتلال الأجنبى ، وصد هجوم الأعداء الحاقدين ، واستحالة عودة الحكم الملكى ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فقد كان تحرير الشعوب المجاورة على الحدود الشرقية - التى تحكمها إمبراطورية النمسا وحلفاؤها - فرضا على الثورة ، باعتبار ما قطعته على نفسها من عهود لهم . وكانت كل أناشيد هذا العصر تؤكد على هذا المعنى ، وتقول صراحة إنها تقتل الطغاه ليسعد البشر ، وقد يكون أقوى تعبير عن هذا الاتجاه ، ما كتبه العالم والمفكر الكبير «كوندرسيه» قائلا :«.... أمم تئن تحت وطأة حكم طغاة مقدسين أو غزاه أغبياء ، وتنادى ، منذ قرون ، على من يحررها» . (٢٠)

وباقى كتابات «كوندرسيه» تفلسف هذا الدور لثوار فرنسا وتقننه، بينما يسانده الرأى العام ، وحتى الفنانون ، وقد سبق أن رأينا الفكرة نفسها معروضة فى سياق قصصى خيالى ، يؤكد دور فرنسا المنتظر فى تحرير الشعوب . فكان لزاما على حكومة

«الإدارة» ، بعد ذلك ، شرح الهجوم على مصر بحجة تخليصها من طغيان المماليك .

ولكن هذا الواجب الكريم نحو البشرية ، كان يتناقض جذريا مع نداء آخر ، هو «مجد الأمة العظمى» وهى فرنسا الثورة : هذا صرح به «كامبون» أحد الحكام - على استحياء ، بينما أفصح عنه «كارنو» بعد ذلك بصورة فظة ، مؤكدا أن الدولة الفرنسية ستغنم كثيرا من الحرب ، فهذه الحرب يجب أن « تدر أرباحا » كثيرة تنقذ البلد من الإفلاس الذى يهددها فى ذلك الحين (٢١) ، ومن هنا ، كان أهم أسباب إعلان الحرب.

وبينما الاضطرابات الدموية والاغتيالات العشوائية والأحكام العفوية ترهب داخل فرنسا ، والحرب الأهلية تمزق الجمهورية الوليدة ، كانت الحرب مع أعداء الخارج ، أفضل حجة للحكومة المركزية تبرر بها عنفها بشكل منطقى : فالأعداء على الأبواب والوطن فى خطر . وقد شحذ هذا الاحساس الدائم بخطر الغزو الأجنبى ، مشاعر الكثير من الفرنسيين ، خاصة عندما توالت الهزائم ، فقد رأوا أن من واجب فرنسا إعلان الحرب على النمسا وحلفائها من ملوك وأمراء ألمانيا ، ثم على هولندا وانجلترا وأسبانيا أيضا بعد ذلك . وكان الفرنسيون سعداء بحجة تحرير شعوب البلاد التى انتصروا فيها ، وسعداء كذلك بضم

مناطق أخرى ، مثل أراضى البابا فى جنوب فرنسا ، وبلچيكا ، وغيرها من الأراضى ، وذلك على الرغم من أن غالبية سكان هذه المناطق يرفضون هذا الضم القهرى ، ويكرهون تحويلهم إلى فرنسيين بقوة السلاح .

وعلى الرغم من أن الحرب بدأت بالفعل كعودة إلى سياسة فرنسا الأزلية ، فإنها تحولت سريعا إلى الرغبة فى التوسع ، وأصبحت تلك الرغبة هى الهدف الحقيقى لهذه الحروب . لقد سبق أن وأشرنا إلى جنون العظمة الذى انتاب خلفاء روما ، حتى أن الزى الرسمى لحكام البلد كان - لفترة من الزمن - على هيئة الزى الرومانى ، كما رسمه لهم الفنان «دافيد» ، صاحب اللوحات الكلاسيكية الشهيرة عن تاريخ روما ! وكانت هذه الرغبة فى التوسع أحد مظاهر هذا الجنون وهذا التقمص للشخصية الرومانية الفذة . لذا نرى أحد الحكام يقول مؤكدا : «ستصل الثورة بحدودنا إلى نهر الراين ، وبعد ذلك ، سنفرض قانوننا على كل أوربا» (٢٢) . ألم يكن العالم المعروف أيام روما تابعا كله للقانون الرومانى ؟!

وقد لجأت الثورة إلى اتخاذ ستار مثالى رائع لفتوحاتها تلك ، إذ حولت الأراضى «المحررة» إلى جمهوريات ، سميت «الجمهوريات الأخوات» ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ، جمهوريات

سويسرا وهولندا ونابولي وميلانو وروما ... إلخ . وكان المفروض أن تتحول هذه الجمهوريات إلى دول مستقلة ، مادام الجند الفرنسيون قد حرروها . ولكن ذلك لم يحدث ، وتحولت هذه الجمهوريات إلى بلاد تابعة لفرنسا . فكيف حدث ذلك ؟

نجد الإجابة على هذا السؤال ، عندما نرى الحقيقة وراء الشعارات ، وكيف كانت تعامل هذه الدول «المحررة» من قبل «الجمهورية الأخت» ، جمهورية فرنسا ، صاحبة الفضل في تحريرها . بل نبدأ بأراضي فرنسا نفسها ، وهي الأولى بتطبيق مبدأ حرية الإنسان .

كانت جزر الهند الغربية الفرنسية ، وأهمها «تاهيتي» ، تعامل على أنها جزء من فرنسا ، وعلى الرغم من إعلان حقوق الإنسان ، فإن أول بنوده ، وهو مبدأ الحرية ، لم يطبق على عبيد مزارع القصب هناك ، فكانت النتيجة أن الزنوج قاموا بثورة عارمة ومذابح لا حصر لها للبيض الفرنسيين أصحاب هذه المزارع ، وعندما استطاع «بريسو» أحد النواب «الجيرانديين» أن ينتزع من المجلس الحاكم حرية هؤلاء العبيد ، كان هذا سببا من أسباب اتهامه بالخيانة ، والحكم عليه وعلي أصدقائه بالإعدام (٢٣) . وبعد ذلك ببضع سنوات ، أعاد نابليون الرق هناك مرة أخرى .

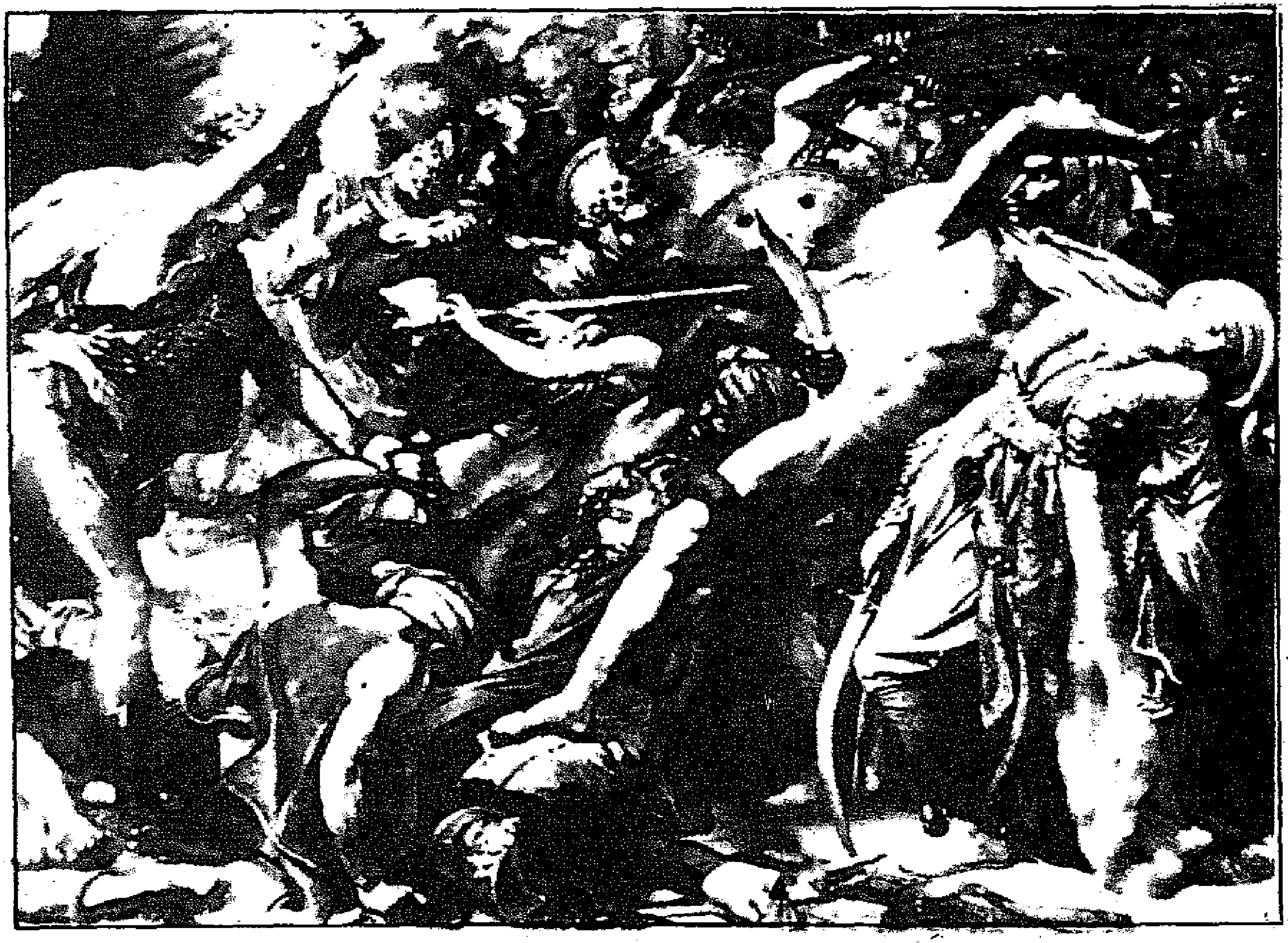

ثورة القاهرة فى ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ .

أما بالنسبة للشعوب الأوربية ، فقد دهش أحد النواب الثوار من الطريقة التي تعامل بها الشعوب المحررة ، فقال : «إننا ننعم على الجمهوريات الجديدة بلقب عاطفي هو أخت أو ابنة ، ثم نتصرف معها وكأننا قوم نتميز عليها بالحرية ، فيحق لنا فرض الخراج والاستفادة منها بالامتيازات العشوائية المكلفة» (٢٤) . إن هذا النائب المؤمن حقا بمبادئ ثورته ، يشكو إذن من عدم وجود «أخوّة» في المعاملة ، وبالفعل، كان هذا هو الواقع الجديد في الثورة ، إذ أصبح شعارها بعد ١٧٩٤ «الحرية والمساواة» فقط ، بعد اسقاط كلمة «الإخاء» ، كما نرى ذلك واضحا جليا على أوراقها الرسمية ! ولكن حكام الثورة كان لهم في هذا الشأن منطق قوى لا يجادل : أيصح أن تحرر فرنسا هذه الشعوب على نفقتها الخاصة ؟!

وبدأت مأساة الثوار الوطنيين الذين فرحوا بدخول الجيوش الفرنسية بلادهم ، لينتهى عهد الاستبداد وسيطرة الطغاة ، فكانت الضرائب واستنزاف الثروات حتى خراب البلاد ، بل ومحاربة الثوار الوطنيين أنفسهم بعد أن خاب ظنهم في الجيش المنقذ . ويكتب المؤرخ «سوليه» قائلا إن الكارثة لحقت بثوار بلچيكا ، كما لحقت بيعاقبة ألمانيا (٢٥) . وكان مستوى المعيشة في هذه البلاد أعلى بكثير من مستوى نظرائهم من الفلاحين في فرنسا . وعندما

«حررت» فرنسا بلادهم ، أجبر حتى فقراء البلد على دفع تكاليف الحرب الباهظة وإعاشة الجند الفرنسيين ، مما تسبب فى انهيار اقتصاد هذه المناطق . ناهيك عن أن هذه البلاد كانت تتمتع بشعور دينى قوى ، استفزه ما يقوم به الفرنسيون الملحدون من تحطيم لكل مظهر إيمانى .

ونجد فى كتاب آخر وصفا لما حدث لهولندا ، «الجمهورية الأخت» ، فقد دخلتها الجيوش الفرنسية ومعها رتل من الثوار الهولنديين الذين سبق أن نفتهم حكومتهم الرجعية من قبل . فرح هؤلاء العائدون ، بتحويل بلدهم إلى «جمهورية أخت» صديقة لجمهورية فرنسا ، ولكن معاهدة الصلح التى أبرمتها فرنسا مع القوة الرجعية المهزومة فى مايو عام ١٧٩٥ ، حولت هولندا «المحررة» إلى «محمية حقيقية» ، كما يقول النص الذى نقرؤه . واستولت الثورة على أراض «ضمتها» إلى فرنسا ، ثم أمرت هولندا بتحمل تكاليف معيشة خمسة وعشرين ألف جندى فرنسى وطالبت بتعويض قدره مائة مليون «فلورين» (العملة الهولندية) ، واستولت على معظم الروائع الفنية التى أرسلت فيما بعد إلى باريس . ثم جاء بعد ذلك الاستيلاء على بلجيكا وضمها إلى فرنسا، دون استشارة سكانها . ثم حدث لسويسرا ما سبق أن حدث لهولندا . وقد يكون أحسن دليل على عنف تطبيق هذه السياسة ، ما حدث فى إيطاليا ، عندما غزاها بونابرت ، بأمر من حكومة «الإدارة»

فكانت النتيجة صورة أخرى لما سبق أن حدث فى «الجمهوريات الأخوات» من كراهية وردود أفعال غاضبة .

والمعروف أن «حملة إيطاليا» صفحة من أمجد صفحات تاريخ فرنسا الحربى ، حيث تجلت فيها عبقرية الجنرال بونابرت العسكرية . لقد حول ، بانتصاراته الباهرة ، دفة الحرب لصالحه ، بينما كانت هزائم الجيوش الرئيسية فى شرق فرنسا وتقهقرها يهددان أمن فرنسا نفسها . فهزم «بونابرت» النمسا فى إيطاليا وعقد معها معاهدة للصلح أملاها هو عليها بوصفه الجنرال المنتصر على أعداء فرنسا دون استشارة الحكومة في باريس ، وحسب رؤيته هو . وكانت فى إيطاليا ، أو بالأصح ، في دويلاتها ، حركة ثورية فرحت هى الأخرى بوصول الفرنسيين الذين سيعضدون بلا ريب ، مطالبهم الديمقراطية، ويحولون بلادهم إلي جمهوريات ديمقراطية . ولكن بونابرت كان نسخة مطابقة للثورة في سياستها ، كان لابد له أن يجعل البلاد «المحررة» تدفع ثمن تحريرها بنفسها . فقد قالها صراحة لجنده عندما تحركوا متجهين صوب الجنوب : «أيها الجند ، أنتم عرايا (...) سأقودكم إلى أغنى الحقول فى العالم . المقاطعات الثرية والمدن الكبيرة ستكون فى قبضتكم، وستجدون فيها الشرف ، والمجد والثراء ...» ، وقد كان....

عمل الجيش بالوصية ، ضباطا وجنودا : كانوا بلا أحذية وبلا ملابس ، أو رواتب ، لا يكاد يصلهم طعامهم إلا بشق الأنفس ، وكانوا ، على شجاعتهم في المعارك ، شرسين في نهبهم وسلبهم . وقيل إن قائدهم «ماسينا» هو «المثل الأعلى (لجنده) ، في السلب والفجر» . وكذلك «برتييه»«وكلاهما من الشخصيات الأسطورية في تاريخ فرنسا الحربي . أما عن بونابرت ، فكان القائد في كل شئ .. واستطاع الضباط إرسال المال والتحف الفنية لذويهم لأول مرة في تاريخ حروب الثورة : هذا في حد ذاته ، يشرح الكثير من تقاليد هذا الجيش ، وهذه الحروب . وعلى أية حال ، فقد كانت أوامر حكومة «الإدارة» صريحة : لا يكفى أن يعيش الجيش على حساب السكان . ولكن ، لابد أيضا من النهب والسلب وبطريقة منظمة ومستمرة ، كما حدث في بلچيكا قبل ذلك بعامين . و«كارنو» ، صاحب هذه السياسة ، كان يأمر ، بصراحة وباللفظ ، «بعصر الليمونة» (٢٦) ، ونقرأ الوصف الذى يؤكد «أن ما من بلد استنزف مثلما استنزفت إيطاليا» ، بعد تدمير حرياتها الصناعية والتجارية . وقد سلبت منها فرنسا ستة وأربعين مليون فرنك فضة واثنى عشر مليونا عينيا ، كما قررت حكومة «الإدارة» في أمر مكتوب لبونابرت ، «تحرير» الأعمال الفنية حتى تتمتع «بالحرية في باريس» . فتم شحن كل التحف وكل الروائع –

وما أجملها وما أكثرها في إيطاليا - إلى المتحف في باريس - وفي باريس ، استقبلتها لجنة جرد من الحكومة .

أما عن الثوار الإيطاليين ، الذين فرحوا بوصول الجيش الفرنسي لإرساء الحريات في جمهوريات معترف بها ، فما كان شأنهم ؟ كان لبونابرت اليد الطولى في بلد اكتسحه ، في حين أن الدولة لم تكن تنتظر منه أكثر من حركة إلهاء تخفف الضغط على الجبهة الشرقية . ولما نجح في مهمته ، بل وفاق كل توقع ، بدأ يتصرف حسب الظروف وملابسات الزمان والمكان وكانت الأولوية للمعارك عنده بالطبع . ولكن ، ومع كل الكلام المعسول الذي يقال عن التخلص من الطغاة ، وإرساء مبادئ الثورة التحريرية ، كانت ثمة سياسة لا يحيد عنها . كان الهدف الأول هو «استعمال الثوار وليس خدمتهم» ، وهذا لا يعني بالطبع عدم خدمتهم إذا ما اقتضى الأمر ، مثلما حدث في «ميلانو» ، ولكنه كان قد «ضحى بجمهوريي ألبا» لأنه كان في حاجة إلى عدوهم ملك سردينيا ، وحدث الشئ نفسه ، في «تورينو» حيث كانت الظروف نفسها ، فالأوامر - والمصالح - كانت صريحة : لابد من كبح جماح أي حركة ثورية في إيطاليا . «فاليعاقبة» الايطاليون ورقة يلعب بها وليست هدفا في ذاتها ، خاصة أنهم كانوا يحلمون بجمهورية إيطالية موحدة ، وينتظرون العون الفرنسي لتحقيق هذا الحلم . ولكن

الجمهورية الفرنسية كانت ترى فى هذا المشروع تهديدا لسيطرتها . وبالتالى ، تخلت عنهم ، بل باعتهم لعدوهم .

ثم كانت معاهدة السلام مع النمسا ، وكأنها القشة التى قصمت ظهر البعير ، إذ أعطى بونابرت الجنرال الجمهورى ، «فينيسيا» ، الجمهورية ، إلى إمبراطورية النمسا ، مما أثار مشاعر الوطنيين الإيطاليين . وتحول المثقفون الذين أشادوا بالفرنسيين من قبل ، إلى المهاجمة الصريحة ، ثم إلى معارضة سياسية منظمة ، عندما ضمت فرنسا أيضا جزءا من شمال إيطاليا إلى أراضيها .

وفى تلك الأثناء ، كان الاستنزاف على أشده فى سويسرا ، حيث قررت حكومة «الإدارة» استخراج ثلاثين مليونا من ميزانية المقاطعات .

وكانت قد بدأت سلسلة من الثورات فى سويسرا ضد المحتل الأجنبى ، الذى جاء ليحررهم من «بغى الطغاة» ، تلتها ثورات فى هولندا وفى إيطاليا . ويقول المؤرخ «سوليه» : «نزل الخراب بهولندا وبلجيكا ومقاطعة الراين ، وتحولت إيطاليا إلى سوق محمية (من أجل مصالح فرنسا) . وأشعل هذا النهب غير الأخوى ، الثورات ضد فرنسا لأن حكومة «الإدارة» لم تستطع أن تسيطر على جشع موظفيها» (٢٧).

ولكن، ألم تكن تلك سياسة حكومة «الإدارة» نفسها ، وسياسة الثورة ، منذ أول إعلان للحرب ، والتى كان ينفذها هؤلاء الموظفون بأمانة ، حتى

إن كان ذلك النهب لحسابهم الخاص ؟ ثم ألم تقم الحرب أساسا لأسباب مادية ؟

كان من أسباب الثورة على فرنسا ، السبب نفسه الذى حول قضية «ڤانديه» إلى حرب أهلية ضارية ، بسبب رفض الحاكم الجديد الملحد ، الاعتراف بالشعائر الدينية لشعوب كانت تريد الحرية السياسية ولا تريد التخلى عن معتقداتها ، خاصة أن من كان يطلب هذا التخلى هو الجيش المحرر - أو بالأصح المستعمر - الذى كان يطلب كل شئ ، حتى التخلى عن الدين ، وهو الأجنبى الغازى .

وفى غضون سنة ١٧٩٨ ، كانت كل «المستعمرات» - وهو الوصف الحقيقى لتلك البلاد «المحررة» - قد تحولت إلى ساحة حرب ثورية ضد الجيوش الفرنسية المحتلة . وزادت حدتها فى عام ١٧٩٩ ، بعد أن استولت فرنسا على روما واستباحتها ، ثم خرجت منها مهزومة فى إيطاليا ، وحرب العصابات تطارد جنودها فى كل مكان . ويسخر المؤرخان الفرنسيان اللذان أمدانا بهذه المعلومات عن الفرنسيين فى ذلك العصر، إذ يقولان: « وبسذاجة الضمير المستريح ، كان الفرنسيون يعزون هذا الشعب إلى غوغاء رافضة لقيمة الحرية ، غوغاء يلهبها تعصب وتطرف قساوسة مثل الذين لعبوا دورا فى ڤانديه . وقد شارك

بعض المؤرخين فى تصديق هذه الأوهام ، واعتبروا هذه الثورات ثورات مضادة ، بينما هى في الواقع دفاع بدائى لشعب يحمى نفسه من قطاع طرق أجانب استباحوا البلد» (٢٨) . كلام يذكرنا بما يمكن أن يقال عن هذا الجيش نفسه عندما نزل على مصر .

يلاحظ كاتبا هذا التعليق اللاذع ، أن هذه السياسة العمياء هى التى ستصل بنابليون إلى النتيجة نفسها .. والهزيمة نفسها فى «المأساة الأسبانية سنة ١٨٠٨ والمأساة الألمانية سنة ١٨١١» . هذه الكلمات تختم جزءا من الكتاب ، كان عنوانه «ثورات ضد الفرنسيين (...) نتائج فتح لم يلطفه الإخاء الثورى » وهو عنوان يلخص أحسن تلخيص ما يسرد علينا من سوء معاملة للدول المحررة ، و«الجمهوريات الأخوات» .

أما المؤرخ «سوليه» ، فهو يعلق على هذه الأحداث غير المتوقعة من فتح ، كان المرتقب منه أنه ينشد المحبة والتحرير ، قائلا إن فرنسا أصبحت ، بعد عشر سنوات من الثورة ، عامل القلق السياسى فى أوربا ، وسبب عدم استقرارها ، وإن ثقة الثوار العمياء فى تفوق مبادئهم ، جعلتهم يعتقدون أنهم لا يهزمون أبدا فبدأوا يحلمون

بالوصول إلى الهند وإلى روسيا . ويذكر «سوليه» كلمة لأحد حكام حكومة «الإدارة» ، يفخر فيها بأنه على رأس «أمة حربية ، مجالها الحروب» (٢٩) .

★★★

استمرت الحروب مع إنجلترا بلا هوادة ، فهى التى أذلتهم فى الماضى القريب ، فانتقم منها الحكم الملكى بإرسال مساعدات للثوار الأمريكيين ضدها ثم حاولت الجمهورية غزوها بعد ذلك ففشلت ، بل وفشلت أيضا فى محاولتها مساعدة ثوار ايرلندا . وبعد حملته الباهرة على إيطاليا ، كلف الجنرال العبقرى المنتصر بونابرت بغزو إنجلترا مرة أخرى ، وعند اقتناعه بعدم جدوى المحاولة ، كلف بحملة على مصر . وبينما كانت الثورات ضد المحتل الفرنسى تشتعل فى أوربا ، ذهب بونابرت إلى مصر ومعه الجيش الذى حارب به في إيطاليا ، حيث غنم انتصارات مادية وعسكرية ، حولته هو وقائده إلى أسطورة حية .

حملة مصر إذن حملة أخرى فى سلسلة الحملات والحروب التى بدأتها الثورة سنة ١٧٩٢ . والقارئ الموضوعى ينتظر من المؤرخ الأمين أن يصف أيضا ما وقع من أحداث فى مصر ، وما تم فيها على أيدى جند ، عرفنا ما فعلوا فى البلدان الأخرى . وجند الحملة

على مصر كانوا عائدين من إيطاليا منتصرين بعد أن استباحوها وهيجوا فيها الثورات ضدهم . والمتوقع أن نقرأ تفاصيل الحملة علي مصر لأن المؤرخين يتحدثون هنا عن الثورة وكل حروبها ، فى الداخل والخارج .

ولكن القارئ المتعطش لمزيد من المعلومات ، يعجب لأن الحملة أهملت بصورة لافتة للنظر ، علي الرغم من أنها تعتبر جزءا من ملحمة «جيش إيطاليا» الجمهورى المجيد .

★★★

لقد قرأنا معا كتابين تم اختيارهما من بين عشرات الكتب التى نشرت أخيرا عن تاريخ الثورة ، بمناسبة مرور مائتى سنة عليها . وقد وقع عليهما الاختيار دون غيرهما لأسباب موضوعية ، أهمها عدم إغراقهما فى تفاصيل قد تضلل القارئ غير المتخصص ، فقد كان فى تعبيريهما إيجاز لا نجده في الكتب الأخرى . علاوة على أن أحدهما - كتاب «سوليه» - يهتم بصفة خاصة برؤية المؤرخ اليمينية ، التى تنحاز للقضية الدينية ، وما تسببته من مشاكل للجمهورية ، بينما رسالة الكتاب الآخر ، تختلف اختلافا كليا ، وإن كان كلاهما وصل إلى النتيجة نفسها .

و «لسوليه» هدف علمي محترم ، فإذا كانت الجمهورية قد شنت حربا شعواء ضد الكنيسة - وفى الواقع أنها كانت أعنف بكثير من حربها ضد أى عدو آخر - فإن «سوليه» كان يهدف إلى إقناع القارئ أن الكاثوليكية كانت ، فى حقيقة الأمر ، أكثر انتشارا - آنذاك - بين عامة الشعب ، مما كان يعتقد ، وأكثر بكثير مما يقال عادة عن تلك الحقبة من التاريخ الأوربى ، والفرنسى منه بالذات . ونظرته صائبة وتستحق التقدير ، لأن الأحداث أثبتت بعد ذلك صحة هذا التحليل . إذ لم تستتب الأمور بين الشعب والحكومة فعلا إلا عندما عقد «القنصل الأول بونابرت» معاهدة صلح (كونكوردا) مع البابا سنة ١٨٠١ . لقد أعاد للكنيسة هيبتها وللكاثوليكية شرعيتها وإن كانت ، مثل كل شئون الدولة ، تحت سيطرته. ولذا فقد يبدو منطقيا ألا يذكر «سوليه» كلمة مصر فى كتابه إلا مرتين، مرة عندما غادر بونابرت فرنسا متجها صوبها ، وأخرى عندما عاد منها . وإذا كان «سوليه» قد تعمد فضح المعاملة التعسفية التى كانت سُنّة الجند الجمهورين فى البلاد المستعمرة فقد كان من واجبه العلمى أن يدرس أيضا تصرفهم أثناء آخر حملة شنت باسم الجمهورية ، أى الحملة على مصر . إلا أننا قد نجد فى تجاهله لها ، ومعاملتها على أنها رحلة

خارجية لا ذكر لها فى الفتوحات الجمهورية ، عذرا مقبولا لعدم وجود مشكلة كاثوليكية فى مصر ، مما قد يبرئه من تهمة تجاهل صفحة أخرى من صفحات حروب الثورة ضد الدين المسيحى ورجاله .

أما كتاب « فرنسوا فوريه » و « دينى ريشيه » عن « الثورة الفرنسية»، فهذا التأريخ لم يقع فى خطأ إغفال الحملة على مصر ، وهو الخطأ الذى نجده بصورة مستمرة فى كل الكتب التى عالجت حروب الثورة ، وكانت دائما مثلها فى ذلك مثل كتاب «سوليه» ، تعتبر أن الحملة قضية قائمة بذاتها ولا علاقة مباشرة لها بالثورة وحروبها الأخرى . لكن هذين المؤرخين يعترفان بها كجزء من حروب الثورة ، ولذا ، تحدثا عنها فى كتابهما عن «الثورة الفرنسية» بينما لانجد لها ، عادة ، ذكر مطول وواف إلا فى السير العديدة التى كتبت عن قائدها الجنرال بونابرت . ومع أن تدارك هذا الخطأ ، الذى كان عرفا بين مؤرخى الثورة ، يعتبر خطوة جديدة وجريئة ، إلا أن القارىء العربى يعجب أيضا من الطريقة التى عالجا بها الحملة على مصر ، وسنتعرض لها بإذن الله فى أدبيات العصر الحديث إزاء هذه الحملة .

صفحة الثورة لم تطو بعد على مستوى الأحداث ، حتى وإن كانت الحملة على مصر هى آخر غزواتها : سافر بونابرت ، والثورات مشتعلة فى البلاد التى «حررتها» فرنسا ، والحال فى داخل البلد ليست على

مايرام ؛ فالأمور قد وصلت – بعد مرور تسع سنوات من اندلاع الثورة – الى حالة من الفوضى الشاملة . فاليمين الملكى و«اليعاقبة» (أى اليسار المتطرف) يحاولون بشتى الطرق الوصول الى الحكم ، والانقلابات والمحاكمات والاعدامات تتوالى ، والهزائم العسكرية على الحدود الشرقية لاتنقطع ، فالبلد إذن يهدده خطر الغزو الأجنبى مرة أخرى . وكانت حكومة «الادارة» عاجزة عن التغلب على كل هذه الصعاب ، لأسباب عدة ، منها الأزمة المالية الطاحنة التى كانت السبب الأول فى قيام الثورة نفسها عام ١٧٨٩ ، وكان الفرنسيون يعانون من الإحباط الذى وصل بهم الى حد اللامبالاة ، بعد أن أنهكتهم كُل الصدمات العنيفة التى مروا بها ، ناهيك عن عصر «الإرهاب الأبيض» في الأقاليم، ذلك الإرهاب الذى تلا «الإرهاب» الرسمى للدولة ، وكانت الاغتيالات لاتزال مستمرة لضعف الحكومة المركزية وفسادها ، وحتى عندما بدأ الخطر الاجنبى ينزوى بعد الانتصارات الجديدة لجيوش الشرق ، كان الشعب لايزال يحلم «بمنقذ» فرد يصلح الأحوال . وكان الجنرال بونابرت ، على بعده من الساحة الفرنسية ، يمثل هذا الأمل . فقد سبق له أن أنقذ البلاد مرة من الخطر النمساوى ، وأنهى الحرب بمعاهدة صلح هو الذى أملاها ، فكان «بطل الحرب والسلام» ،

كان من أهم أسباب شعبية بونابرت الأسطورية ، أنه «القائد الذى لم يهزم أبدا» وعندما عاد فجأة من مصر وبصورة غير متوقعة ، استقبله الناس على طول الطريق ، من الجنوب حيث رسى ، وحتى بيته فى باريس ، هاتفين له بصفته المنقذ المنتظر ، المنتصر حتى فى مصر . ولم يجرؤ أحد على الافصاح علنا بحقيقة أن الحملة قد فشلت فشلا مزريا ، ولكن أعداء هذا النجم الساطع ، وبالأصح الحاقدين ، كما قيل كانوا يؤكدون انه هرول ، هاربا يائسا من مصر بعد فشله فى مهمته ، تاركا جيشه البائس لمصير مجهول لايعلم نهاية عذابه إلا الله ، ولم يذكر هزائم جيشه خاصة فشله أمام عكا إلا من أراد أن يحط من قدر هذا الرجل الأسطورة ، الذى عاد وكأنه المنتصر ، والبلد مستعد لأن يلقى بنفسه فى أحضانه ، وكانت آخر أخباره أنه هزم الاتراك فى معركة أبو قير الثانية ، كانت هى وحدها آخر مايقال عن هذا القائد الذى هزم أيضا المماليك أمام الأهرامات .. وما الأهرامات إلا أسطورة أخرى !

لقد ذهب الى بلد الأساطير ، حيث قصص ألف ليلة وليلة ، وكأنه سافر الى كوكب آخر ، وبالطبع لم يهزم يوما لأنه لا يهزم أبدا فكانت رحلته الى مصر نصرا جديدا أضيف الى أمجاده السابقة فزادت شعبيته وسط الجماهير المتعطشة لأسطورة حية تؤمن بها ، تحقق لها

معجزة تخرجها من مأزقها المأساوى . وتسلم الجنرال بونابرت زمام الحكم إبان انقلابه سنة ١٧٩٩ ، ليصبح « القنصل الأول » ، وتبدأ صفحة جديدة فى تاريخ فرنسا ، صفحة « نابليون وحده ».لكن ، لماذا « القنصل»؟

سبق أن تحدثنا عن استحواذ فكرة روما وسيطرة نمط التاريخ الرومانى على كل من شارك فى الثورة من المثقفين الذين كانوا هم أصحاب الصوت العالى . وكان لزاما على كل سياسى أن يذكر أن فرنسا هى روما الجديدة . فعندما تقدم الوزير «تاليران» مثلا بمشروع غزو مصر لحكومة «الادارة» ، قال :

«كانت مصر مقاطعة فى الجمهورية الرومانية ، فيجب أن تصبح للجمهورية الفرنسية» (٣٠) .

وفي سالف الزمان ، عندما تخلصت روما من ملوكها الطغاة ، وتحولت الى الجمهورية المثالية التى حكمت العالم بقوانينها العادلة ورجالاتها النزهاء الوطنيين ، أصبحت كلمة «قنصل» لقبا للحاكمين اللذين يتقاسمان السلطة العليا فيها. وبما أن الثورة وصلت - كما توهم مشرعوها - الى ذروة المجد والفضيلة ، وحلت محل روما وتقمصت دورها (٢١)،فقد أنشئت حكومة جديدة بعد الانقلاب بها ثلاثة قناصل ، وكان بونابرت «القنصل الأول» فيهم.وكان الاختيار فى

محله، فهو التجسيد الحديث للقائد الروماني المنتصر النزيه الوطني الفاضل . كان يلقب «بالجنرال الجمهورى» بالمعنى الرومانى للكلمة ، وبكل ماتوصي به الكلمة من فضائل ، تستمد أهميتها من «جمهورية» علي غرار جمهورية روما ، المثل الأوحد ، فقد أصبحت فرنسا في نظر نفسها ، الوريثة الشرعية لمجد روما وفضائلها الأسطورية ، وأطاح بونابرت - بعد ذلك - بحكم الجمهورية ، وأعلن فرنسا إمبراطورية بقرار صريح مثلما حدث في تاريخ روما ، التى انتقلت من الحكم الجمهورى الى الحكم الإمبراطورى لـ «أكتافيوس» أغسطس وعائلته .

تحقق إذن ماتنبأ به «روبسبيير» من أن سياسة الثورة لن تقود الا الى سيطرة قيصر جديد يمارس - بصفته الجندى المنتصر - دكتاتورية فردية لايحد سلطاتها قانون ، أو ديمقراطية .

الثـورة كانت الحرب ، الحرب في الداخل والخارج . ولكن كانت لها أيضا محـاولات عديدة في كثير من الميادين ، اسفر بعضها عن مشـروعات مجهضة أو مـؤقتة ، وبقى بعضها مزدهرا على مر السنين. ولسنـا بصـدد دراسـة الثـورة فـي ذاتها ، فـلا يهمنا منها إلا مـايمكن أن يشـرح لنا ماحدث في مصر على أيدى ممثليها ، المجندين منهم والعلماء .

وقد سبق أن لفت نظرنا الجو العام المحيط بالثورة ، ذلك الجو الذى حوله الى اسطورة تؤله كل ما يتصل بها ، وذلك منذ يومها الأول . والمجلد الضخم المسمى بـ «أسطورة الثورة» الذى استعنا به لوصف مناخها يقدم العديد من الدراسات التى تؤكد كلها احساس الشعب آنذاك بأنه يعيش مرحلة أسطورية وأن زعماءهم «آلهة» . والدراس لمفردات اللغة فى ذلك العصر يعجب لتفخيم الألفاظ ، فى وصف كل حدث وكل رجل ، حتى وإن تحول هذا البطل – الذى كانوا يهتفون باسمه حتى الثمالة – بعد ذلك الى خائن يصرخ الناس فى وجهه بالكراهية وهو منساق الى المقصلة .

ولم تكن جمهورية روما الفاضلة ، صاحبة القوانين العادلة ، أو الحرب التوسعية التى تتبعنا خطاها ، ووصلت بفرنسا الى شواطىء إفريقيا ، هما وحدهما ، الركيزتين الأساسيتين لسياسة الثورة وفكرها . فقد كانت هناك أيضا فلسفة التنوير ومبادئها ، كما أسلفنا ، ونذكر أن أول مبدأ كان رفض الدين ومحاربته ، لأنه أهم أسباب جهل البشرية وبؤسها . ومحاربتها للدين كانت تحتم عليها تعليم الشعب . لذا كانت هناك محاولات عدة للثورة فى ميدان التعليم العام للجميع مثلما كان لها اجتهادات في ميادين العلم والاكتشاف ، فكانت ، قضية التعليم من أولويات المجالس المتتالية ليتخلص العامة من تعاليم الدين ، عندما

تستنير عقولهم ؛ فأنشئت المدارس العليا التى استمرت فى منهجها حتى يومنا هذا كما اهتمت الثورة أيضا بالعلم والاكتشافات .

وكان اكتشاف العالم الخارجى ، ومعرفة الحضارات الأخرى من أهم انجازات القرن الثامن عشر ، وريث عهد النهضة المتعطش لمعرفة كل جديد ولذا اشتهر المكتشف «بوجانفيل» ، الذى أبحر فى جزر المحيط الهادى المجهولة من ذى قبل . ومن هنا جاء الاهتمام بالسفر الى بلد مثل مصر ، وكان بلدا مجهولا لم يره إلا قليل من المسافرين . فالسفر فى حد ذاته كان يعتبر هدفا علميا ، يدخل فى نطاق الاهتمامات المباشرة بالحضارات الأخرى .

ومن المشروعات الناجحة لحكومة «المؤتمر» الذى اقترن اسمها بسياسة «الارهاب» انشاء «المعهد القومى» فى اكتوبر من عام ١٧٩٥ . وكان انشاء هذا المعهد ، لأهميته العلمية ، مذكورا فى الدستور نفسه ، حتى أصبح بمثابة «سلطة روحانية» كما يصفه المؤلفان السابق ذكرهما. حتى أن الجنرال بونابرت المتعطش لكل علم سلطة لم يهدأ له بال حتى انتخبه الأعضاء عضوا ، يحضر اجتماعاتهم العلمية . «من هنا ، جاءت ضرورة انشاء فرع له فى مصر عندما جاءها بعض علماء هذا المعهد حتى لاتنقطع أبحاثهم التى بدأوها فى باريس.لقد طبقوا فى مصر سياسة استقبال الزائرين ، كما كان يسمح به

فى المتاحف المتخصصة التى أنشئت آنذاك فى فرنسا ؛ ناهيك عن الاستعمال السياسي لتلك الزيارات وهو ماتمثل فى محاولة إبهار شعب جاهل ، وتمثيل دور العلماء الخارقين فى إمكاناتهم أمام المشايخ .

بقى لنا أن نتعرف على المفهوم الجديد الذى صاغه أحد مفكرى القرن الثامن عشر وأصبح من أهم مبادىء الثورة ، وهو مفهوم « الحضارة » ويهمنا هذا المفهوم بالذات ، لأن الحملة كان من أهدافها إرساء «الحضارة» . فى مصر ، كما أرادت الثورة للعالم كله ، بدءا بأوربا .

كان «كوندرسيه» المفكر ووزير التعليم ، قد ألّف ، قبل انتحاره سنة ١٧٩٤ ، كتابا يعتبر من أهم ماكتب فى أدبيات فلسفة التنوير (٣٢) ، خاصة أنه جاء فى نهاية عصرها ، وقبل أن يأفل نجمها مؤقتا مع اجتياح الفكر الرومانتيكى المسيحى القومى بعد ذلك . وقد درس الاستاذ السويسرى «جان ستاروبنسكى» مفهوم الحضارة فى عصر التنوير ، وسنرجع إليه ، حسب منهجنا ، فيما قاله عن رأى «كوندرسيه» كما أفصح عنه فى كتاباته .

لن نعجب أن وجدنا عند مفكرنا فيلسوف التنوير هذا التناقض نفسه الذى لمسناه من قبل فى سياسة الثورة ، وقد كان من أكثر

رجالاتها تأثيرا خاصة فى مجال التعليم . «فكوندرسيه» يرفض الاستعمار ، ويبدو هذا موقفا منطقيا من رجل اشترك فى ثورة تنادى أولا وقبل كل شىء بحرية الانسان ، أو فلنقل على الأقل إنه أضعف الايمان . ولكننا نجده لايهاجم إلا المبشرين المسيحيين الذين ينشرون دينهم ، وهم حسب قوله «دمويون - طغاة - أغبياء» إنهم لايزالون يؤمنون بخزعبلات الماضى .

فكوندرسيه يرفض الاستعمار الدينى لأنه يرى أن من واجب «المتحضر» - والشعب المتحضر الأمثل هو الشعب الفرنسى الذى وصل الى أقصى درجات «الحضارة» بثورته الحديثة الرائعة بالطبع - أن يبيد كل من يرفض تعاليم المتحضرين له أو يرفض الانقياد للتعليم . فالمتوحشون ، بمعنى الشعوب البدائية لابد أن ينتهوا ، جسديا أو ثقافيا، حتى لا يبقى الا التنوير .. أى الحضارة .

ويعلق «ستاروبنسكى» على هذا الكلام قائلا : «قدسية الحضارة حلت محل قدسية الدين (...) وقد حل مشروع التبشير لفلسفة التنوير محل مشروع المبشرين المسيحيين الذين حاولوا جمع البشرية كلها تحت لواء المسيح» . ثم يلاحظ المعلق نفسه الذى يؤكد على تناقض فكر «كوندرسيه» الرافض لمبدأ الاستعمار الدينى فقط ، أن بونابرت يقول لجنده ، وهو متجه الى مصر : «أيها الجند ، أنتم فى طريقكم الى فتح

سيكون له أعظم النتائج على الحضارة ، وعلى تجارة العالم» . ويتوقف الدارس السويسرى عند كلمة «حضارة» ، ونلاحظ نحن وجود كلمة «تجارة» فى هذا السياق !

وسواء كان بونابرت قد قرأ «كوندرسيه» وتأثر به أم لا ، فالواقع أن «كوندرسيه» لم يكن إلا معبرا عن أفكار جيل فرح بإنجازاته الى حد الصلف ، ألّه نفسه قبل أن يؤله بونابرت . وما بونابرت إلا رجل من هذا الجيل نفسه . وأيّا كان تأثير تيارات الفكر عليه أو عدمه ، فقد كان هو نفسه جزءا لايتجزأ من العالم الذى أنتج هذا الفكر ، وسواء آمن به أم لم يؤمن ، فقد كان عليه أن يتحدث بلغته ويستعمل منطقه . فجاءت كلمة «حضارة» على الورق الذى يرسم سياسة الحملة المستقبلية على مصر ، وصدقها من أراد ألا يرى غيرها .

★★★

ولكن الثورة فشلت فى إرساء دعائم حكم مستمر حتى أجبر المؤمنون بها على القيام بثورة سنة ١٨٣٠ ، ثم ثانية سنة ١٨٤٨ ، تلتها ثورة سنة ١٨٥١ ، قبل أن تصل الثورة الى ذورتها سنة ١٨٧١ ..

وتنجح أخيرا الجمهورية الثالثة فى توطيد أقدامها ، على الرغم من قوة أحزاب اليمين فى نهاية القرن التاسع عشر ومع وصول الجمهورية الى الحكم أخيرا ، كانت مرة أخرى ، وإلى يومنا هذا ، أسطورة الثورة

التى تلخصها هذه الكلمات في قاموس «لاروس» الشهير ... الثورة ، أمنا وأم الجنس البشرى أجمع ..

★★★

أين الحملة على مصر من هذا كله ؟ أو بالأصح ، كيف كانت وكيف طبقت فيها كل هذه المبادىء ، بعد أن عرضنا نبذة عن العالم الذى جاء منه الجيش برجاله ، جندا وعلماء ؟ ولكن ألا ينبغى أن نتعرف أولا على رؤية جيل الثورة لمصر ، البلد الذى تقرر غزوه بعد فشل غزو انجلترا ؟

صورة مصر والمسلمين فى القرن الثامن عشر

فى عام ١٧٢٠ ، ارسل السلطان العثمانى سفيرا إلى فرنسا لأمر يتعلق بترميم كنيسة فى القدس ، ويكتب السفير فى تقريره ، وصفا مفصلا لزيارته الرسمية وما رآه ، وكأنه الطهطاوى فى باريس ، مع الفارق ، لأن السفير كان فى ضيافة ملك فرنسا . ومن هنا ، كان الاعجاب الشديد بكل مارآه لأنه لم يؤخذ ، طبعا ، إلا الى ما كان يمكن أن يبهره . ويظهر هذا جليا ، عندما نقرأ وصف جريدة فرنسية لزى الملك الصغير عند مقابلته للسفير التركى ، اذ كان لباسه يتحلى بماس يقدر ثمنه بخمسة وعشرين مليونا من عملة العصر الذهبية ؟

كما كان يضع على كتفه ماسة شهيرة عرفت باسم «الوصى» (٣٣) وهي ماسة وزنها مائة وسبعة وثلاثون قيراطا ، كان الوصى على العرش قد اشتراها من الحكومة الانجليزية ليضمها الى مجوهرات التاج. وعند قراءة تعليقات الصحف على تلك الزيارة ، ووصفهم للبعثة الدبلوماسية، نرى الاستعمال المتكرر لكلمة «المسلمين» بدلا من كلمة «الاتراك» التى قلما تستعمل في زيارة أخرى لسفير تركى آخر سنة ١٧٣٢ ، نجد فى تقريره اهتمامه الخاص بالنواحى الحربية على خلاف سلفه الذى اهتم بالفنون وانبهر بالحدائق ويلقى هذا السفير الدروس على حكومته ، للاستفادة من العلوم الحربية ، بسبب تأخر بلاده فى هذا الميدان . وعلى الرغم من ذلك الجهل العثمانى بحقيقة الحضارة الحربية فى فرنسا ، كان الطريق مفتوحا بين البلدين ؛ تقول «جانين أوبوايى»: «إن الطريق الى الشرق كان محفوفا بالتجار ، والمبشرين والمرتزقة ، منذ بداية القرن السابع عشر ، لأن الملوك الشرقيين كانوا يطلبون طوبجية وأطباء أوربيين» (٣٤) . وعندما جاء السلطان سليم الثالث الى الحكم فى عام ١٧٨٩ ، وبدأ «النظام الجديد» لتحديث جيشه وجد كثير من النبلاء الهاربين من الثورة مورد رزق مقبول كضباط فى البلاط العثمانى . وعندما كان بونابرت مغضوبا عليه ، فى سنة ١٧٩٥ ، فكر جديا فى السفر الى اسطنبول ليعمل فى الجيش التركى ، بصفته ضابطا فى

المدفعية ، وكانت حكومة «الادارة» تلبى آنذاك طلبات السلطان فى ارسال مدربين لجيشه . فالعلاقات مع فرنسا كانت ودية للغاية ، كعادة الحكومات الفرنسية دائما مع اسطنبول ، فكانت فرنسا تساعد على تدريب جيش السلطان ، حتى قال المؤرخ الامريكى«كريستوفر هرولد» : «إن الذى انقذ عكا من السقوط تحت وطأة حصار بونابرت لها ، كان وصول مئات من طوبجية اسطنبول، المدربين تدريبا عسكريا أوربيا» . (٣٥) والنظرة الفرنسية الى الاسلام ، الذى تمثله الامبراطورية التركية ، لم تكن تخلو من الاهتمام ، حتى وإن كان يشوبها نوع من الاحتقار .

كان الاسلام موضوع دراسة مكثفة أثناء القرن الثامن عشر لأسباب كثيرة ، أولها اهتمام فلاسفة التنوير باكتشاف الحضارات الأخرى ، ثم كان إعجاب رجل مثل «فولتير» بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم والحضارة التى أنشأها ؛ علاوة على ما وجده فى الاسلام من سماحة - وهى من أهم قيم التنوير - لم ير لها مثيلا فى تاريخ المسيحية ، كما كان «فولتير» - (مثل فلسفة التنوير - يكره رجال الدين، والاسلام لايعترف برجل دين مثلما يوجد فى الكاثوليكية ، حيث يتكلم القسيس باسم الله .

كذلك كان اعجاب «فولتير» بدين كان الاحسان فيه ، كما يقول ، أحد أركانه الخمسة وهو يقصد بهذا طبعا فرض الزكاة . فكانت المقارنة بين الاسلام والمسيحية تساعد فلاسفة التنوير على مهاجمة

المسيحية ، التى لاتعطى للعقل المكانة التى يتمتع بها فى الدين الاسلامى .

وفى الجانب الادبى ، جاءت ترجمات «ألف ليلة وليلة» لتبهر القراء بخيالها الخصب ، ومعانيها السامية وجوها الغريب الجديد مما ساعد على خلق فن جديد سمى «بالشرقيات» ، وظهرت ترجمة جديدة للقرآن فى عام ١٧٨٣ ، للرحالة العالم سافارى الذى نشر بعد ذلك انطباعاته عن رحلته الى مصر . ولكن عندما سافر «فولنيه» هو أيضا ، ونشر «رحلة الى مصر وسوريا» سنة ١٧٨٨، كان ناقما على الاسلام مثلما كان ناقما على المسيحية وكذلك على كل الأديان ، لأنه من رجال التنوير، الذين يرون فى الايمان عائقا لتقدم الحضارة . كذلك رأى «كوندرسيه» أن الاسلام أبسط الديانات فى معتقداته ، أقلها سخفا فى طقوسه ، أكثرها سماحة فى تعاليمه (إلا أنه) يبدو وكأنه يحكم على هذه البقعة الشاسعة التى اعتنقته دينا بعبودية أزلية ، وغباء لا علاج له . وبالتالى فتلك البلاد الشرقية ستفرض على أوربا المتحضرة فى المستقبل ، واجب تحرير الشرق من مضطهديه : «وسيجدون آنذاك فى الأوربيين ، إخوة ، يصبحون أصدقاءهم ومريديهم [٣٦] ..... ولم لايكتفون بالصداقة والأخوة ؟!

★★★

وإن كانت مصر المسلمة جزءا من الامبراطورية العثمانية ، إلا أنها كانت ذات مكانة خاصة بسبب تراث الثقافة الكلاسيكية الذى يمجد علمها وحكمة كهنتها . فقد لعبت مصر الفرعونية دورا رائدا فى تكوين فلاسفة اليونان فى بادىء تاريخ أثينا . وتحول هذا الدور الى سلسلة من الأساطير عن حكماء مصر - وهم الكهنة الغامضون - وتعاليمهم الباطنية السرية . ولاتخلو قصة من القصص الفلسفية فى القرن الثامن عشر من أحد هؤلاء الكهنة الذى نراه يقضى مائة عام أو أكثر داخل الهرم الأكبر ليخرج منه عالما بأسرار الدنيا وحكمة الكون . ومابقى من هذا التيار الخيالى على مر السنين قصة «الناى السحرى» - الأوبرا الشهيرة للموسيقار النمساوى «موتسارت» - التى كتبت فى نهاية القرن الثامن عشر. ولأن مصر هى «أم الحكمة الفلسفية» ومهد الحضارة الانسانية ، فأحداث القصة تدور فيها ، حيث يبغى البطل الوصول الى الكمال وكانت قصة هذه الأوبرا الخيالية ، تفضح بعض أسرار الماسونية المزدهرة فى ذلك العصر . وكانت الماسونية تؤكد هى أيضا أن مصر عرفت أسرار الكون أيام الفراعنة ، لأنها منبع المعرفة كلها . ولذا فمعظم رموز الماسونية مستوحاة - وحتى يومنا هذا - من خطوط الآثار الفرعونية ونقوشها . وتبقى فكرة حكمة مصر وعلم كهنتها سائدة فى كثير من الأوساط الثقافية المهتمة بالعلوم الروحانية والباطنية ،

مما يزيد من غموض سيرتها ، وتؤكد هذه الأوساط ، وحتى القرن التاسع عشر ، مثلما نجد فى القصص الخيالية ، أن الأهرامات كانت المدارس الخفية لتعليم غيبيات تساعد الكهنة على التوصل الى أسرار الطبيعة وما وراءها . ومما لاشك فيه أن تلك الرؤية شجعت على اتخاذ قرار غزو مصر ، أو هكذا يقال،، اذ كانت الرغبة جامحة ، بين مثقفى حكومة «الادارة» الى اكتشاف هذا البلد الغامض المجهول ،.مع ضرب المصالح الانجليزية ، وتكوين مستعمرات جديدة . وكانت فكرة العودة الى أرض العلوم والفنون مستحبة ، وكأن فرنسا ، بعلمها الجديد وحكمتها العالمية ، تغلق هكذا طوق دائرة المعارف بالرجوع الى المنبع ، فيحدث الالتحام الذى يضم تاريخ العلوم فتسيطر هى عليه.

ويقول «هنرى لورانس» فى دارسته عن الحملة إن بونابرت ترك مصر عائدا الى فرنسا سرا لأنه لم يحقق فيها «حلمه الشرقى . فمصر الحقيقية ليست هى التى حلم بها هذا الفاتح ».

وهذه طبعا نتيجة طبيعية لما كانت عليه مصر آنذاك وهى أبعد ما تكون عما كان يتخيله الغرب ، وما وصلت اليه أوهامهم عنها فقد كانت بالنسبة لهم وكأنها بلد يسبح فى الفضاء ، وكأنه فى كوكب آخر لاعلاقة له بالواقع . ويدلل على ذلك قصة حدثت للجنرال «دورك» الذى كان عائدا لتوه من مصر مع قائده بونابرت . فعندما ارسل فى مهمة

دبلوماسية الى بلاط برلين ، احتفى به الملك وأقام له مأدبة دعى اليها كبار الضباط والوزراء وكان أهم ما سئل عنه رحلته الى مصر ، وسألته الملكة إن كان قد رأى فيها الكثير من التماسيح.فعجب للسؤال لأنه لم ير واحدا منها فى رحلته البعيدة الى بلاد العجائب وكسب «دورك» احترام الجميع ، (هكذا يقول الراوى) [٣٧] ،لأنه لم يحك إلا الواقع وكان فى استطاعته أن يقص العجائب الخيالية والبطولات النادرة عما حدث فى «ذلك البلد البعيد» . والقصة على بساطتها ، تشرح أن مثقفى أوربا لم يكونوا مهتمين بما حدث للحملة فى مصر بقدر انبهارهم بفكرة زيارة بلاد نائية لايعرف عنها شىء تقريبا . فكتب الرحالة لم يقرأها الجميع ثم إن ما يقع فى هذه الكتب من اختلاف الرؤى يسمح بتخيل أى شىء . واذا كان هذا هو رأى المثقفين حتى فى بلاط ملك بروسيا فما بالك بالعامة ، والمجندين من فلاحى فرنسا خاصة الأميين ؟

ويحكى «بلزاك» (١٧٩٩ - ١٨٥٠) ، الكاتب الواقعى الكبير ، فى روايته «طبيب الارياف» [٣٨] كيف يقص أحد جند نابليون على اخوانه من الفلاحين ، حروبه مع الامبراطور ، والحملة على مصر . يبدأ حديثه لجمهوره المنبهر ، مؤكدا أن نابليون فى شبابه وقع عقدا مع شيطان حتى لايصيبه أى أذى فى المعارك ، ثم كيف ذهب الى مصر، حيث

احبته زوجة مارد جبار غيور للغاية ، فأعلن الحرب على القائد الفرنسى الذى استولى على الملكة الفاتنة ومجوهراتها الأسطورية ، وكيف تغلب عليه نابليون مثلما كان يتغلب دائما على كل أعدائه * . وهذه الخزعبلات تفضح بكل وضوح الواقع ، وهو عقلية مجند من الريف الفرنسى فى ذلك العصر ، أى عقلية الجيش نفسه ؛ هذه العقلية الجاهلة لجند الحملة الذين لم يختلفوا فى تهويماتهم عن أى أمى لاينجذب إلا للعجيب من القصص الخارقة . إن مصر التى يتحدث عنها ذلك الجندى الفلاح هى مصر «ألف ليلة وليلة» كما يراها العامة .. والمثقفون.

وحتى بعد مرور خمسين عاما على الحملة ، ذهب الشاعر القصاص المثقف «نرفال» الى مصر يبحث فيها عن «بلد ايزيس وألف ليلة وليلة» وهناك . يقابل ضابطا ألمانيا يقص عليه كيف خرجت الانسانية حقيقة من داخل الهرم الأكبر ، حيث فشل موسى عليه السلام فى امتحان الكهنة.فكان هروبه من مصر (٣٩) .فمصر إذن بلد الاساطير والخيال وعلى صعيد آخر يكتب «جان تولار» الذى تخصص فى دراسة نابليون وحياته الحافلة ، قائلا إن الفرنسيين كانوا يجهلون حقيقة أمر مصر فى ذلك العصر ، فصدقوا التقرير الذى ارسله القنصل «ماجالون» الى باريس ، والذى يؤكد فيه ضعف المماليك ويصف فيه مصر على أنها بلد

---

* انظر ملحق ١٧ من الجزء الثانى من الكتاب.

يحتضر وصورها على أنها مفتوحة سهلة الغزو . ويعلق «تولار» قائلا إن هذا الكلام يتنافى مع ماتظهره دراسة «اندريه ريمون» عن قاهرة القرن الثامن عشر (٤٠) .ولكن ، كان هناك سحر «منطقة غامضة» كانت حديث المجتمع بسبب رواج كتاب «فولنيه» عن «الآثار..»ولذا فـ «تولار» يعزو عودة بونابرت من مصر على انه منتصر ، على الرغم من هزيمته فيها الى هيبة انتصارات بعيدة زاد من ترويج أخبارها دعاية أنصاره» (٤١) فكان البعد وحده كاف ليسبب التشويق والتفخيم ، وخلق أسطورة الحملة . ويحق لنا ان نتساءل الآن عن واقع الأمر ، وراء كل هذه التهويمات التى تنم عن جهل بالبلد ، وعدم تقييم صحيح لواقع يختلف عن الواقع الأوربى اختلافا جذريا ، فيبدو بصورة لا تسمح للعقل الأوربى استيعابها لأنها لاتدخل فى تركيباته الذهنية ، وتصطدم بمسلمات وهمية يرجع أصلها الى قرون من عدم المعرفة الحقيقية أو الفهم الناضج.

★★★

اذا حاولنا ، قبل دراسة واقع الأمر ، جمع أهم الخيوط التى نسجت قرار شن الحملة على مصر ، بل وتحكمت فى تصرفات رجالها وهم جيل الثورة الكبرى فى فرنسا ، ولو اننا وصفنا الحملة - بشكل موضوعى - فى اطارها الحقيقى ، بصفتها حملة من حملات الثورة

الخارجية واحدى حروبها التحريرية فى الظاهر ، الاستعمارية فى حقيقة أمرها ، كما حدث في أوربا نفسها ، ولو أننا استخلصنا من دراستنا السابقة على اقتضابها ، أهم العناصر التي لا يمكن اغفالها إن اردنا لها نظرة واقعية .

لو أننا استطعنا هذا كله ، لوجدنا ان بالحملة عناصر/شتى ، أهمها بالطبع ميراث فلسفة التنوير . فحب المعرفة يمتزج فى هذه الرؤية التى تخص فلاسفة التنوير ، بصلف «المتحضر» الذى يرى نفسه على قمة الانسانية ، فيرى أن من حقه ، بل ومن واجبه ، اذن ، السيطرة على البشرية كلها حيث لم تصل مثله الى هذه الدرجة من النضج والحكمة كما كانوا يقولون . وجاءت تجربة الثورة لتجعل معاصريها يظنون أن فى استطاعتهم فرض قوانينهم على الجميع ، على غرار مافعلته روما فى قديم الزمان . وجاءت – نتيجة هذا التقمص المسيطر على أذهانهم– المغالاة فى التعبير والتعظيم المفرط الذى جعلهم يرون رجالاتهم على أنهم «آلهة» ، فتبرر كل أفعالهم وإن كانت خاطئة .

وتسبب ذلك فى ازدواجية غريبة ، جعلت المقارنة بين الهدف المعلن وتحقيقه الواقعى ، مفارقة عجيبة ، قد يكون أحسن مثال عليها «إعلان حقوق الانسان» وحرمان هذا الانسان فى العام نفسه من حرية اختيار عقيدته ، أو تحرير جمهوريات مثل هولندا ، وسويسرا حتى تصبح

«جمهوريات أخوات» ثم تطبق بعد ذلك سياسة «عصر الليمونة» فى تلك «الأخوات» الجديدات ، أو ابادة فرنسيىّ مقاطعات الغرب فى فرنسا باسم الحرية .

وعلينا عندما نبدأ قراءاتنا فى الحملة على مصر ، أن نتذكر هذه العناصر التى اتسمت بها حُروب الثورة فى أوربا ، وعلينا ، بالتالى، أن نضع الحملة على مصر فى سياقها التاريخى الحقيقى ، أى وسط باقى حروب الثورة فهى جزء من حربها مع انجلترا ، بل وعلينا أن نضعها ايضا وسط حروب نابليون نفسه الذى أصبح فيما بعد الإمبراطور ، والذى تبدأ أمجاده بغزو مصر كما سنرى .

★★★

قامت الحملة إذن على مصر ، هذا البلد البعيد الغامض ، ونحن فى عصر الأساطير والأبطال واللحظات التاريخية التى ينتظر العالم ، لاهثا ، أن يرى تطورها ، عصر الشعوب التى لا تعرف الحرية إلا على أيدى الفرنسيين .. فكيف لا يكون قائدها ، الجنرال الجمهورى الذى لم يعرف الهزيمة ، اسطورة حية فى عصره ، ومعبودا للجماهير .

ونظرا لأن اسطورة الحملة جزء من أسطورة بونابرت ، ولأنها دائما تنسب اليه ، فقد حان الوقت لأن نتعرف عليه أولا قبل أن نتعرف على الحملة نفسها ، وهى التى سميت باسمه ولم تستمد شهرتها الا بسبب قيادته لها .

الفصل الثانى

نابليون بونابرت
الجنرال والإمبراطور

« خلق الرب بونابرت ، ثم استراح »

من خطبه في استقبال
«القنصل الأول»

التسلسل الزمنى للأحداث التى سنتعرض لها فى تاريخ نابليون بونابرت ومابعد حكمه :

- ١٥ اغسطس ١٧٦٩ : ميلاد نابليون بونابرت بجزيرة كورسيكا
- ١٧٨٤ : التخرج فى الكلية الحربية الملكية .
- ١٧٩٣ : مدفعيته تسترد «تولون» ثم تنقذ الحكم من انقلاب يمينى.
- ١٧٩٥ : يفكر فى السفر إلى اسطنبول كخبير حربى .
- ١٧٩٦ ـ ١٧٩٧ : الحملة على ايطاليا بقيادته وانتصاره على النمسا .
- ١٧٩٨ : يرفض إنزال القوات الفرنسية على شواطىء انجلترا ، ويقدم ، مع وزير العلاقات الخارجية مشروع غزو مصر كبديل .
- ١٩ مايو ١٧٩٨ : يبحر إلى مصر .
- ١٧٩٨ ـ ١٧٩٩ : انظر أحداث الحملة.
- ٢٣ أغسطس ١٧٩٩ : يترك مصر خلسة .
- ٩ أكتوبر ١٧٩٩ : يصل الى فرنسا.
- ٩ نوفمبر ١٧٩٩ : يستولى على الحكم ، بعد انقلاب يسانده الجيش ، ويصبح القنصل الأول بونابرت .

الاستفتاء على الدستور الجديد.

- يناير ١٨٠٠ : قانون تحديد عدد الجرائد وفرض رقابة صارمة على ماتبقى .

- ٧ فبراير ١٨٠٠ : حل السلطات الجماعية والانتخابية والحكم المحلى .

- ٢٤ ديسمبر ١٨٠٠ : محاولة اغتياله .

الانتصار فى معركة «مارنجو» .

- ١٥ يوليو ١٨٠١ : الصلح مع بابا روما وعودة الكاثوليكية الى فرنسا .

- ١٧ مايو ١٨٠٢ : إعادة الرق الى المستعمرات .

- نوفمبر ١٨٠٢ : الحملة الفاشلة على جزيرة «سان - دومنج» .

- ١٨٠٣ : إعادة تنظيم «المعهد الفرنسى» وإلغاء قسمى العلوم الإنسانية والسياسية .

- ١٨٠٣ : بعثة «علمية» أخرى إلى مصر .

- مارس ١٨٠٤ : اختطاف «دوق دانجيان» وإعدامه .

- مايو ١٨٠٤ : تتويج بونابرت امبراطورا على الفرنسيين ، أصبح «نابليون الأول» .

- ١٨٠٥ : تتويجه ملكا على إيطاليا .

- ٢ ديسمبر ١٨٠٥ : انتصاره فى «أسترليتز» .

– ٤أبريل ١٨٠٦ : نشـــر كتاب تعليم الديانة الكاثوليكية الامبراطورية .

بداية تتويج أفراد العائلة ملوكا على البلاد المحتلة .

– ٢ مايو ١٩٠٨ : الثورة فى مدريـد على الوجود العسكرى الفرنسى .

– ٤ ديسمبر ١٨٠٨ : نابليون يفتح مدريد مجددا . بداية الحروب القومية فى أوربا .

– ٥ فبراير ١٨١٠ : تشكيل «الادارة العامة للطباعة والمكتبة» .

– ٢ أبريل ١٨١٠ : زواج نابليون من ابنة إمبراطور النمسا .

– ٣ أغسطس ١٨١٠ : لايسمح إلا بجريدة واحدة فى كل مقاطعة.

– ٢٠ مارس ١٨١١ : ميلاد ابنة «ملك روما»

الدولة تستولى على ما تبقى من جرائد .

– ١٧ سبتمبر ١٨١١ : الدولة تستولى على كل الجرائد .

– أكتوبر ١٨١١ : أربع جرائد فقط مسموح لها بالنشر .

– ١٤ سبتمبر ١٨١١ : نابليون يدخل موسكو .

– ١٨ أكتوبر ١٨١٢ : ينسحب من موسكو .

– ٢١ يونيو ١٨١٣ : الجلاء عن أسبانيا بعد انتصار الإنجليز على الجيش الفرنسى هناك .

– ٣٠ ـ ٣١ مارس ١٨١٤ : دخول القوات المتحالفة ضد فرنسا الى باريس .

«البوربون» يعودون الى عرشهم الملكى .

– ٤ مايو ١٨١٤ : نابليون يقـاد الى منفاه بجزيرة «إلبا» جنوب فرنسا .

– مارس ١٨١٥ : يعود بعد هروبه الى فرنسا ، لحكم جديد يستمر مائة يوم .

– ١٨ يونيو ١٨١٥: هزيمة «واترلو» وعودة «البوربون» للمرة الثانية.

– ١٦ أكتوبر ١٨١٥: المنفى فى جزيرة «سانت ـ هيلانة» الانجليزية.

– ٥ مايو ١٨٢١ : وفاة نابليون فى منفاه .

– ١٨٣٠ : الثورة على الملكية باسم الحرية وباسم نابليون.

– ١٨٤٠ : الملك «لوى ـ فيليب» يأمر بإعادة رفات نابليون ودفنه بباريس .

– ١٨٤٨ : الثورة على الملكية ، ثم إعلان «الجمهورية الثانية» .

انتخاب «لوى ـ نابليون بونابرت» ابن أخى نابليون رئيسا للجمهورية.

– ٢ ديسمبر ١٨٥٢ : تنصيب رئيس الجمهورية إمبراطورا على فرنسا باسم «نابليون الثالث» بعد انقلاب يتسبب فى ثورة محدودة.

– ١٨٧٠ : انتصار «بروسيا» على فرنسا واحتلالها ، سقوط الإمبراطورية.

– ١٨٧١ : ثورة «الكوميونه» .

الملكيون يكسبون الانتخابات .

– ١٨٨٠ : فرنسا تصبح « الجمهورية الثالثة » وتستمر حتى عام ١٩٤٠.

يصعب الحديث عن الجنرال بونابرت باقتضاب ، لأنه لم يمر مرور الكرام ، مثله في ذلك مثل منافسيه من جنرالات الثورة الآخرين فالجنرال «هوش» أو الجنرال «مورو» كان لهما الشعبية نفسها بل ربما شعبية أكبر فى فترة ما . كانت حكومة « الادارة » مثلا تعد « مورو » ليكون الحاكم العسكرى الذى تريده تحت امرتها ، مثلما كان يحدث فى روما ، نظرا لشعبيته . ولكن أعضاء الحكومة فضلوا عليه بونابرت فى آخر لحظة ، فكان الانقلاب الذى دبروه معه . ولكن بونابرت حول هذا الانقلاب الى تسليم كامل للسلطة المطلقة ، واستحوذ عليها دونهم بعد ذلك .

فالجنرال بونابرت أصبح فور عودته من مصر، الحاكم المطلق للبلد بلقب «القنصل الأول» ولم يختلف الأمر عندما توج إمبراطورا ولعب بعروش أوربا وشعوبها ، حتى هزيمته الأخيرة فى «واترلو» سنة ١٨١٥ . كان تاريخه عاصفة من الحروب والانتصارات والهزائم ، حددت مصير أوربا لعقود ، حتى بعد سقوطه . وامتزج التاريخ بأسطورة القائد الخارق الذى اتخذ الاسكندر الأكبر مثلا يحتذى به . ولايمكن فصل تاريخه عن الاسطورة التى بدأت فى شبابه ـ عندما كان كل شىء فى فرنسا اسطوريا ـ واستمرت طيلة حياته، وانتشرت وترعرعت بعد هزيمته ثم وفاته .

انتشرت أسطورة نابليون بعد وفاته لدرجة أن الملك «لوى - فيليب» ، على عدائه للحزب البونابرتى ، اضطر لخطب ود شعبه ، بإعادة رفات الإمبراطور من جزيرة «سانت - هيلانة» فى عام ١٨٤٠ حيث تم دفنه فى مقبرة خاصة فى باريس (٤٢) وسط احتفالات مهيبة، تؤكد أهمية ذكرى نابليون المهزوم ، المخلوع، المنفى ، وقوة تأثير اسمه حتى بعد وفاته بعشرين عاما . وحتى الآن يصعب الحديث موضوعيا عنه ، دون أن يهب فرنسى ليدافع عنه ، على الرغم من الدراسات الحديثة التى أعادت تقييم حكمه ، وكشف الآثار السلبية لشخصيته الطاغية، بعد قرنين من التغنى بإنجازاته، وبشخصيته الفذة .

والمجلدات التى تحوى عناوين الكتب التى نشرت عنه كافية لأن تحبط عزيمة ، أى دراس يريد أن يعرف «كل ماقيل» عنه . فهو ، لدوره السياسى وشخصيته الطاغية ، يثير اهتمام الجميع ، حتى فى الصين ومنذ عام ١٨٣٧ ، ويستعمل اسمه مرجعا له إيحاءاته التى تختلف من بلد إلى آخر ، ومن مرحلة تاريخية الى أخرى والى الآن . وتفاوت الرؤى يجعل التمييز بين أعدائه و المبهورين به مهمة سهلة ، للحماس الذى غالبا مايطغى على مشاعر المؤرخين ، فنادرا مانقابل ، من كانت نظرته مجردة، ولا نقول حتى علمية، فنابليون من الشخصيات التى كانت ، ولاتزال تثير الجدل العنيف . ولكن ، بعد أن مر قرنان من الزمن على

تاريخه بدأ الحديث ، وباستحياء شديد ، يأخذ صبغة موضوعية تحاول تقييم أفعاله ، وتحليل شخصيته وهى شخصية غير عادية بكل المعايير.

وسنحاول عند الضرورة ، أن نذكر من هذه الحياة الحافلة بالأحداث مايمكن أن يساعدنا على فهم ماحدث فى مصر وماقيل عنها . وقد أصبحت الحملة أسطورة ، لأنها جزء من أسطورة أخرى، هى أسطورة نابليون . ومن الصعب الحديث عنه ، خاصة للجمهور غير الدارس لتفاصيل تاريخ فرنسا، دون الرجوع أولا الى الأسطورة ، «أسطورة المنقذ» كما يسمى «جان تولار» كتابه الشامل عن «نابليون» .

★★★

بونابرت «الجنرال الجمهورى»

عندما قامت الثورة سنة ١٧٨٩ ، بدأ النبلاء فى الهجرة ، ولم يكن يحق لأحد من غير طبقة النبلاء أن يكون ضابطا . لم يتبق فى الجيش إذن إلا قليل من الضباط ، فما كان من الحكومة الا اختيار أنبه الجند ، وتحويلهم الى ضباط سرعان ما وصل الكثير منهم الى رتبة «جنرال» وذلك لملء الفراغ الذى تعانى منه القيادة العسكرية . وكان هؤلاء الضباط الشبان من المجندين فى الجيش الجمهورى ، ومن المتطوعين فيه وكانوا ينحدرون أساسا من عائلات متواضعة الحال : كان الجنرال «هوش» ، مثلا أكثرهم شعبية فقد كبر فى الاسطبلات الملكية ، قبل أن يكون جنديا فى الحرس الملكى . وبعد الثورة ، أصبح ضابطا ثم جنرالا،

كان له الفضل فى هزيمة «متمردى» الفانديه قبل أن ينتصر على العدو النمساوى على الحدود الشرقية لفرنسا . وكان نفوذه كبيرا وشعبيته أكبر ولولا وفاته عام ١٧٩٧ ما كان لبونابرت هذا الشأن . كذلك لم يكن الجنرال «مورو» من النبلاء ، ولكنه كان ابن محام من الأقاليم ، تطوع فى جيش الثورة، وأصبح جنرالا . وأثارت انتصاراته على العدو غيرة بونابرت ، لأنه كان المنافس الوحيد لطموحه السياسى ، فأصبحا ألد عدوين. أما «كليبر» فكان أبوه من عمال البناء ، وأصبح أيضا جنرالا اشترك فى حرب الإبادة «بفانديه» وسنقابله فيما بعد، عند الحديث عن الحملة، للمسئولية الجسيمة التى وقعت على عاتقه فى مصر.

وإن كان الكثير من جنرالات الثورة من أصل متواضع ، إلا أن بعضهم كان من النبلاء الذين بقوا فى فرنسا بل واعتنقوا مذاهب الثورة، ولعبوا فيها دورا مرموقا ، وكان من بينهم مثلا وأكثرهم شهرة ابن عم الملك نفسه وكانت هذه حال كل من الجنرالين «ديسى» و«مينو» اللذين سنقابلهما أيضا فى مصر .

وكذلك كان بونابرت نفسه ، وهو من عائلة كورسيكية من صغار النبلاء، مما أتاح له فرصة الالتحاق بالكلية الحربية الملكية، حيث تخرج منها ضابطا فى المدفعية ، سنة ١٧٨٤ أى قبل اندلاع الثورة بسنوات خمس . وقد ولد عام ١٧٦٩ أى أنه كان فى العشرين من عمره عندما أصبح ضابطا عاملا فى الجيش الملكى ، وحين قامت الثورة .

كانت أولى بشائر عبقريته العسكرية ، عندما أرسل لمساعدة حصار مدينة «تولون» الثائرة على الحكومة المركزية، فى سنة ١٧٩٣ . وكان استعماله الدقيق لمواقع مدفعيته يشى بعبقرية أتاحت لجيش الحكومة الانتصار على أعدائها ، فلفت أنظار الحكام وعرف اسمه منذ ذلك الحين. كان اسمه مرتبطا بتيار «اليعاقبة» فقبض عليه ثم أفرج عنه، عندما سقط «روبسبيير» وأصدقاؤه . وبعد فترة وجيزة، رضى عنه الحكم الجديد ، فشارك فى صد مظاهرة يمينية لقلب نظام الحكم . وهكذا ، أحبطت مدافعه ، بموقعها الخطير فى قلب باريس ، محاولة جادة لعودة الملكيين الى السلطة عام ١٧٩٥ . وكانت الساحة كما سبق أن أشرنا مليئة بالجنرالات الشبان المنتصرين الموهوبين الشعبيين الذين شاركوا أيضا فى انقاذ الجمهورية، سواء فى داخل فرنسا أو خارجها . ووقع الاختيار على بونابرت لقيادة الحملة على ايطاليا : كانت حملة بلا أهمية هدفها الوحيد مساعدة «جيش الشرق» ، وهو الجيش المهم، على صد هجوم الأعداء الذى يهدد الوطن نفسه. ولم يكن «جيش ايطاليا» أكثر من جيش احتياطى لإلهاء العدو، وتشتيت قواته .

من هنا ، بدأت بالفعل اسطورة الجنرال الجمهورى الإنسانى النابغة، الذى لايهزم لأنه ينقض كالصقر على أعدائه فتقابله الشعوب المحررة بالتهليل والهتاف . وأصبح «جسر أركول» ، عام ١٧٩٦ ، مثلا ،

الرمز الذى يمثل بطولته ، اذ ألقى بنفسه ممسكا بالعلم ، على هذا الجسر الذى يفصل جيشه عن عدو يمطرهم بالقذائف الفتاكة، فما كان من جنده إلا أن خجلوا من جبنهم ، وهبوا لإنقاذ قائدهم .. وكان النصر.. والأسطورة .. والرسم الذى يؤكد حقيقة تلك اللحظة التاريخية. انتصر وتصرف وكأنه صاحب الأمر والنهى ، ووقع معاهدة صلح مع النمسا المهزومة ، وحدد بنودها دون الرجوع إلى رؤسائه فى باريس ، فأصبح بطل الحرب والسلام، والمفاوض النابه، الذى أنهى الحرب التى بدأت عام ١٧٩٢ .

ثم كانت الحملة على مصر ، بعد أن أدرك استحالة غزو انجلترا . ذهب الى مصر ، هذا البلد البعيد الغامض ، حيث انتصر على أشجع فرسان العالم ، وهم المماليك ، وأهلك آلاف الجند العثمانيين ، وجعل كل المصريين يحلفون باسمه، ويهتفون للجمهورية الفرنسية بسببه . ولكن، كان عليه أن يعود إلى فرنسا لينقذها من حالة الفوضى التى أتت على الأخضر واليابس . ثم كان ، فى البداية ، حكم بونابرت القنصل ، إلى أن أصبح الإمبراطوار نابليون سنة ١٨٠٤ .

وكانت اسطورة «الجنرال الجمهورى» قوية لدرجة أن تتويجه خيب آمال الكثيرين، فقد كان لقب «بونابرت» فى نظرهم، أكبر وأعظم بكثير من لقب «الإمبراطور» .

ونظرا لأن هذه الأسطورة احتوت جزءا من تاريخ مصر ، وبعد أن تعرفنا على الجانب المضيء من سيرة القائد، علينا أن نكتشف الجانب الآخر ، خاصة أنه الجانب الذى كان سببا فى خلق الأسطورة وانتشارها .

★★★

بونابرت والعبقرية الإعلامية

فى يوليو من عام ١٧٩٣ نشر كتيب سياسى عنوانه « عشاء بوكير » [٤٣] لضابط شاب اسمه نابليون بونابرت . يؤكد هذا الكتيب أولا ، دفاع المؤلف عن مبادىء «اليعاقبة» ، وبالتالى انتماؤه اليهم ، وثانيا مهارته الفائقة فى استعمال الدعاية المؤثرة على جمهور القراء ، ونبوغه فى هذا الميدان . وقد صادف هذا الكتيب نجاحا كبيرا لتفوقه الملحوظ على ما كان يكتبه عادة باقى مشجعى حزب اليسار المتطرف آنذاك. لفت هذا العمل السياسى نظر أولى الأمر، فكان سبب احتضانهم لمؤلفه، وترشيحه بعد ذلك قائدا لمدفعية جيش ايطاليا.

عرف الجنرال بونابرت بصفته صنيعة «اليعاقبة» ولكن سقوطهم تسبب فى إقصائه عن الخدمة، حتى أنه ، فى عام ١٧٩٥ ، قدم، يائسا ، طلبا لإرساله الى تركيا ، مع بعثة الخبراء التى كان «سليم الثالث» يستعين بها لتطوير جيشه .

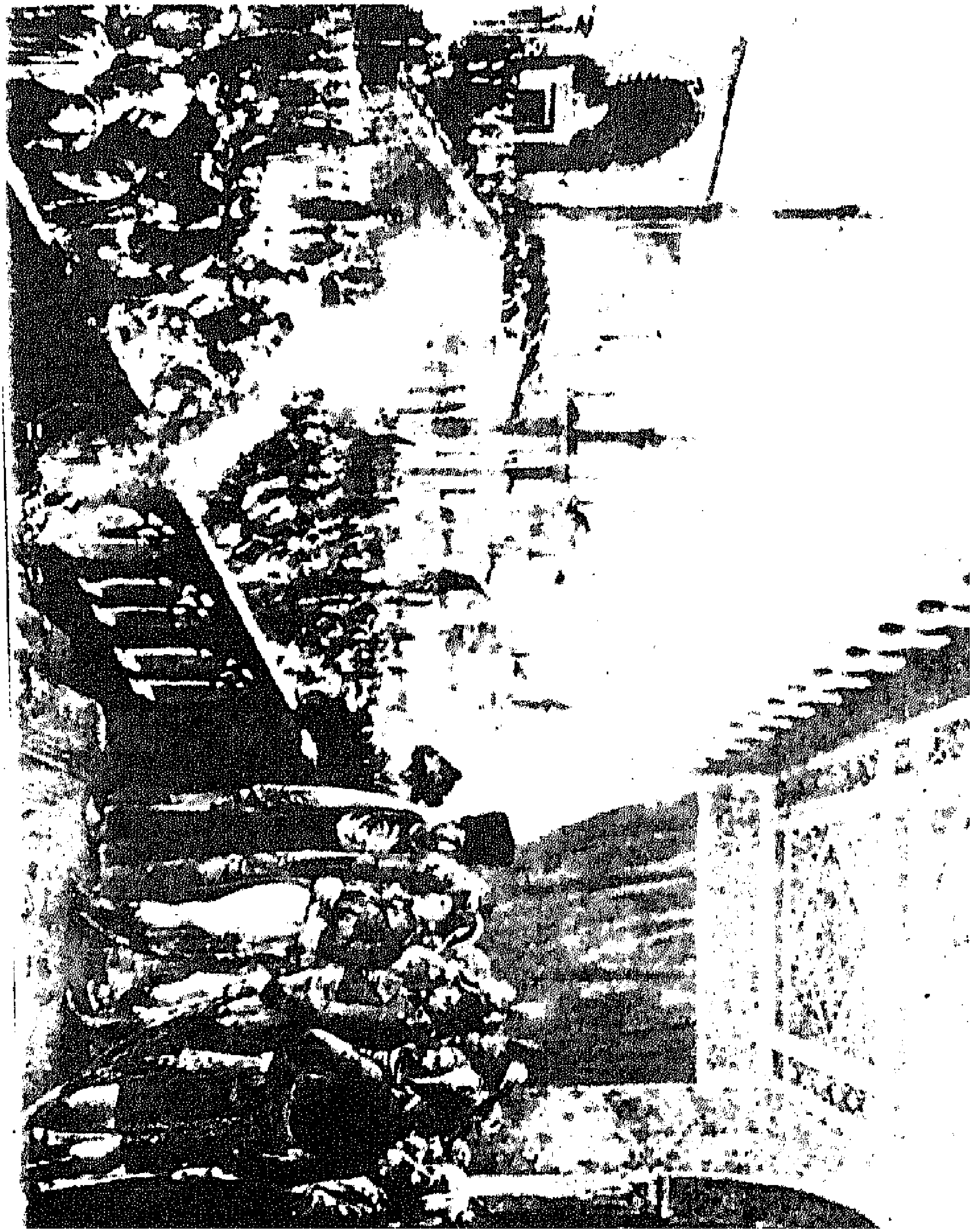

بونابرت أثناء الاحتفال بالمولد النبوي

ثم دارت دفة الأحداث كما سبق أن أشرنا ، وعين بونابرت قائدا عاما لجيش ايطاليا . ويؤكد «جان تولار» أشهر متخصص معاصر لتاريخ نابليون ، أن «الأسطورة النابليونية» لم تبدأ فى «سانت هيلانة» ولكنها بدأت فى سهول ايطاليا (٤٤) . ويشرح «تولار» كيف أن «بونابرت هو أول قائد فهم، بعد يوليوس قيصر ، أهمية الدعاية . فهم أنه لايكفى للقائد أن ينتصر ، ولكن عليه أيضا أن يضيف إلى انتصاراته هالة أسطورية» . ولاعجب، فنابليون نفسه قال هذا الكلام عندما كان يتحدث الى «لاس كاس» فى منفاه «سانت هيلانة» .

وفى كتاب آخر عن تاريخ الثورة وحروبها نقرأ كيف أن الدعاية البونابرتية «زيفت وبسرعة فائقة الواقع الحقيقى للحملة على ايطاليا وقد حولت هذه الحملة الصعبة الى مسيرة منتصرة وحولت مجرد محارب ذكى الى بطل تتوجه الآلهة» .

كانت أولى وسائل بونابرت الإعلانية هى هذه الخطابات التى كان يرسلها الى أولى الأمر ، والبيانات التى كان يصدرها عن معاركه المنتصرة دائما . وكان نشر مراسلات ياوره الخاص أخيرا ، أحسن دليل على استراتيجية دعائية يقوم الأصدقاء فى باريس بتنفيذها، بتضخيم الانتصارات وكتمان الهزائم .

وكان بونابرت حاذقا فى اقتحام كل الميادين التى تعلى من شأن اسمه ، فكان أول مافعله مثلا لكسب ود جنوده وإعلاء روحهم القتالية ،

هو اصدار بيان يسمح لهم بالنهب والسلب . قائلا : «أيها الجند أنتم عرايا .. ساقودكم الى أكثر السهول خصوبة فى العالم، والمقاطعات الغنية والمدن الكبرى ، ستكون تحت سيطرتكم وستجدون فيها الشرف والمجد والثراء» . ثم اتخذ بعد ذلك قرارا خطيرا، لم تكن الجيوش الأخرى فى الجمهورية تعرفه، وهو صرف نصف راتب الجند نقدا، مما جعل منه القائد الأمثل الذى يحلم كل مجند فى الجيوش الأخرى بخدمته.

وعلى الرغم من أن تولار « لايقلل من شأن انتصارات بونابرت» ، على حد قوله ، إلا أنه يعجب للطريقة التى قدمت بها الى جمهور معاصريه . وأحسن مثل يضربه هو معركة جسر «آركول» الاسطورية ؛ لقد مر الجيش أولا بالعديد من الصعوبات وتكبد الفشل تلو الفشل ، لأن الجند الفرنسيين كانوا أقل عددا بكثير من أعدائهم النمساويين ؛ وعلى الرغم من ذلك ، كان بونابرت ومساعده يرسلان التقارير عن الانتصارات المتلاحقة.وجاءت أخيرا معركة آركول « ولم يكن هذا الانتصار الصعب حاسما» (٤٥) ولكنه تحول إلى قصة اسطورية ، يرسم لها الفنان المعروف «هوراس فرنيه» لوحة وزعت منها نسخ لا حصر لها .. وهكذا دخلت هذه المعركة التاريخ من أوسع أبوابه . لقد فقد بونابرت فى هذه المعركة القاسية سبعة آلاف من جنده ، ومع ذلك، نراه لا يبلغ الا عن فقد ألف فقط !

كذلك ماحدث لمعركة اسطورية أخرى ، وهى معركة «لودى» فقد صدر أمر من أحد أتباعه بطبع رسم لبونابرت وهو يندفع أمام جنوده، رافعا علم فرنسا ، ونفذ الأمر على الفور فى مدينة «جنوا» ، وأرسل العديد من نسخ هذا الرسم الى فرنسا ، وبونابرت وأعوانه الآخرون يرسلون فى الوقت ذاته تقارير تؤكد أن معركة «لودى» كانت انتصارا حاسما.وفى الواقع كان الأمر غير ذلك لأن المعركة لم تحقق هدفها الأصلى ، وهو إبادة جيش الأعداء ، فالذى حدث بالفعل هو أن الجيش المهزوم انسحب بنظام تام ، وعاد بعد ذلك الى هجومه الشرس . أما الاسطورة الثالثة المعروفة باسم معركة «كاستيجليون» فقد أبلغ عنها بونابرت قائلا: «إن الجيش النمساوى اختفى وكأنه حلم» ، وأكد مساعده ذلك بتقرير قال فيه : «لقد تمكنا من كل ايطاليا» ، وكان كل ذلك مغايرا تمامــــا للحقيقة .

كان هذا على مستوى الأخبار التى كانت ترسل الى الحكام ، والتى عرفها الجمهور أيضا بطريقة مبتكرة ، حولت القائد وحملاته الى اسطورة تغنى بها التاريخ الفرنسى حتى الأمس القريب . فعلى صعيد آخر استولى بونابرت أو بالأصح نهب بونابرت من الايطاليين خمسين مليونا (ولاننسى أن العملة فى ذلك العصر كانت ذهبا) ولم يرسل منها الى فرنسا إلا عشرة ملايين فقط ، أرسلتها الحكومة فورا الى الجيوش

الأخرى على الحدود الشرقية لفرنسا . وبالفعل كان بونابرت نفسه فى أشد الحاجة الى الملايين الأربعين الباقية : كان بونابرت قد حول القصر الذى نزل فيه الى بلاط يكاد يكون ملكيا وجمع حوله من الفنانين والشعراء أكثر مما كان هناك من السفراء والضباط . وأهم من ذلك ، خلق اسطورته الذاتية وسط مواطنيه فى فرنسا ، وفى الجيش الفرنسى كله .

فقد أنشأ على حسابه الخاص - إن صح القول - جريدة «رسائل جيش ايطاليا أو الوطنى الفرنسى فى ميلانو» كان نجاحها سببا فى انشاء صحيفة أخرى هى «فرنسا كما يراها جيش ايطاليا» كان المفروض أن الصحيفة الأولى ، التى توزع دون مقابل على جنده، تنبئهم بأخبار فرنسا ، ولكن «الهدف كان فى الأساس - كما يكتب تولار - توجيههم سياسيا حسب رغبة بونابرت» . أما الصحيفة الثانية ، فكانت تتغنى بحياة التقشف التى كان يعيشها القائد الجمهورى المثالى ، هذا نصف الإله الذى يعيش كأبطال الرومان الوطنيين الزاهدين، إلا فى خدمة وطنهم .

وبينما كان بونابرت المنتصر فعلا يرسل الى باريس المرايات التى استولى عليها والكنوز الفنية التى جرد منها كل مدن ايطاليا وقصورها، كان الجمهور يقرأ أيضا عن سلوكه الفذ المثالى ، علاوة على أنه مثلا

«يطير كالبرق ويضرب كالصاعقة فهو فى كل مكان ويرى كل شىء» . ويعتقد «تولار» أن هذه الجريدة أيضا كانت توزع مجانا على الجمهور ، فالمال كان وفيرا بين يدى بونابرت .

ولا ننسى أننا لانزال في تلك المرحلة من تاريخ فرنسا ، حيث كان الجميع يشعر أن كل مايحدث أسطورة ، ناهيك عن مفردات التفخيم التي اكتسحت اللغة الفرنسية ، منذ قيام الثورة . وأمام كل هذه المعجزات التى تبتدعها تقارير بونابرت وصحفه - ومن كان يدرى أنه الموجه لكل مايكتب بها ؟ - انتشرت الرسومات الشعبية والأغانى والقصائد التى تمجد البطل الشاب الجديد ، بعد أن هوت كل الرموز لآلهة الثورة مثل « ميرابو » و « دانتون » و « روبسبيير » وآخرين عديدين أقل شهرة . كان يبدو كأن الشعب الفرنسى .. متعطش لمثل هذه الصورة المثالية الخيالية ، مستعد لتصديق أية معجزة ، فكتبت مثلا مسرحية عنوانها «جسر لودى» التي كانت تمثل وسط هتافات الحاضرين، كما حول الناس اسم الشارع الذى يقطن به بونابرت الى «شارع النصر» .

هكذا بدأت وترسخت اسطورة نابليون منذ أولى حملاته خاصة أنه بانتصاراته تلك أنهى أخيرا حربا كانت قد اندلعت مع قيام الثورة كما سبق أن أسلفنا ، فأصبح بطل الحرب والسلم . وسرعان ما ظهرت

صحيفة أخرى في سنة ١٧٩٧ – أى قبل الحملة على مصر بسنة واحدة – كان اسمها «جريدة بونابرت والرجال النزهاء» (٤٦) – ولا أظن أن هذا العنوان فى ذاته يحتاج الى أى شرح أو تعليق ، خاصة أن فساد رجال الحكم فى ذلك الزمن ، كان من المسلمات التى لايشك فيها أحد ، فأصبح النزيه الوحيد وسط هذا الفساد العام ، هو الجنرال بونابرت .

★★★

هذا هو الجنرال الذى سيذهب الى مصر والذى لم يختلف كثيرا عن باقى جنرالات عصره، من حيث معاملته للشعوب التى غزاها ، أو نهبه للثروات التى توصل اليها ، ولكن النبت ينذر من الآن بما سيكون عليه الفرع ، فما من أحد من زملاء بونابرت كان يعرف كيف يستفيد من أخطاء أعدائه ، أوامكانات ضباطه مثله . كما كان لبونابرت وحده حزب فى باريس ، بل فى فرنسا كلها ينسق معه خطة بارعة لتنمية ونشر شعبية واسعة ، بل ويعرف كيف يلعب على كل ما كان يتمناه الفرنسيون فى ذلك العصر . إن الذاتية المطلقة والنرجسية الفجة التى تصل الى حد تأليه «الجنرال الجمهورى الشاب» ترسمان خيوط شخصية ستتغير مع الأيام بطبيعة الحال ، مثلما يتغير أى كائن حى ، ولكننا لن نراه فى يوم ما يحدو عن صفات الشخصية العبقرية الفذة فى فن الحرب، بل وفى فن اقناع الآخرين بهذه العبقرية وإن كان على

الآخرين أن يدفعوا ثمن غرورها وتعطشها للسلطة المطلقة . فما كان من بونابرت المنتصر فى ايطاليا الا فرض شروط السلام على امبراطورية النمسا المهزومة ، دون الرجوع الى رؤسائه المدنيين فى باريس . ولذا أذعن هؤلاء المدنيون لرغبته بعد ذلك ، وأرسلوه الى بلد بعيد ، الى مصر، حتى يتقوا شر طموحه الطاغى ، وعبقريته الفذة ، وشعبيته الواسعة ، الخطرة على سلطتهم فى البلاد، وعلى النظام النيابى كله .

إنه ـ بالفعل ـ «الجنرال الجمهورى» ليس بالمعنى الرومانى كما كان يتخيل المعجبون به ، ولكن بالمعنى المعاصر لجمهورية ، كانت أول من طبق ازادواجية الكلمة والفعل ، فجاءت عبقرية بونابرت لتصل بهذه الصفة إلى أمجاد لم يكن أحد ليحلم بها من قبل .

هذا هو القائد الذى تولى أمور الحملة على مصر، وكان هذا سلوكه. إن اسطورة هذا «الجنرال الجمهورى» العبقرى الفاضل، الذى سيذهب الى بلد بعيد وغامض ، هذه الأسطورة ما كانت لتسمح ، منطقيا، لبريقها، أن يطمسه أى فشل أو خطيئة ؛ وزاد من قوة الأسطورة أن بونابرت استمر فى انتهاج السياسة نفسها التى اتبعها فى ايطاليا ، فنجحت الاسطورة المصرية كما سبق أن نجحت الأسطورة الايطالية.

★★★

لن نعجب بعد ذلك إن وجدنا اسمى «ايطاليا ومصر» يزينان دائما الاسطورة البونابرتية ، حتى إن كان المؤرخ يعرف حقيقة الأمر . فكل من كتابى «نابليون» و«الثورة الفرنسية» يختتم سرده عن النشاط الإعلامى لبونابرت أثناء الحملة الايطالية وبعدها، بربطها بالحملة على مصر ، والسبب ليس فقط لأن «جيش ايطاليا» بجنده هو الذى أصبح وحده «جيش الحملة على مصر» حتى أن بونابرت ترك فى جزيرة مالطة كل من لم يشترك معه فى حملة إيطاليا من الجند الفرنسيين، ولكن السبب: « أن بونابرت استطاع بعبقريته الاعلامية، وتأثيره على الخيال الشعبى، أن يحول الحملة على إيطاليا الى إلياذة حقيقية (كما يقول «تولار») ، وكذلك كانت الحال مع الحملة على مصر، فعلى الرغم من فشلها النهائى ، إلا أنها أخذت ، بفضل مؤرخيه ، مظهر الملحمة الشرقية التى تجعل من قائدها نظيرا للاسكندر الاكبر ويوليوس قيصر» ، وأيضا، « لأن مصر ـ هذا المنفى ـ ساهم فى بناء أسطورة بونابرت بالقدر الذى ساهمت به انتصارات إيطاليا » (٤٧) . فأصبح بونابرت بعدهما «جندى ايطاليا ومصر»، حتى أن الأمير المطالب بعرش فرنسا – عندما تولى بونابرت السلطة الكاملة بعد عودته من مصر ـ تخيل أن فى إمكانه استمالة ذلك القائد الشاب ، ليعيده الى عرش أجداده ، لذا كتب اليه قائلا:

«... أنت يابطل» «كاستيجليون» و «أركول» ، وياغازى إيطاليا ومصر، فى إمكانك أن تكون منقذ فرنسا..» (٤٨) .. وكان الجميع يظن هذا، حتى وان لم يكن بالصورة التى تخيلها الأمير «البوربوني» المنفى، أو أصدقاء بونابرت السابقون من «اليعاقبة».

بونابرت والحرية

المنقذ.. كان الشعب كله في انتظار المنقذ: لقد انهزمت كل الجيوش على الحدود الشرقية لفرنسا، وذلك فى ستة أسابيع فقط، حتى بدأ أعضاء حكومة «الإدارة» - الذين سعدوا بالحملة على مصر ليتخلصوا من طموح بونابرت وشعبيته - يفكرون جديا فى استدعاء «القائد الوحيد الذى لم يهزم يوما»، ومع أن «فشل الحملة على مصر كان معروفا، إلا أن الدعاية، خاصة حملة الجرائد، كانت قد فرضت مرة أخرى على الجمهور صورة البطل نفسها التى سبق أن نشرتها أثناء الحملة على إيطاليا ، (٤٩) ، وكان خبر الانتصار الباهر، كما كانت توصف به معركة أبو قير الثانية، قد وصل سريعا فمحا تأثير خبر فشل حصار عكا، وما صاحبه من فظائع . وبعد إعلان خبر انتصار أبو قير المجيد بأيام ثلاثة، وصل بونابرت بنفسه الى فرنسا، قبل أن يصل استدعاء الحكومة له.. وكانت دفة الحرب قد دارت، وانتهى الخطر المحدق على الحدود الشرقية، ولكن بونابرت كان بطل انتصارات

إيطاليا، ومعركة الأهرامات الاسطورية، العائد من ذلك «البلد الغامض» المسمي «مصر». ونسي الشعب «جيش الشرق» الذى تركه بونابرت لمصيره المحتوم فى مأزق قاتل، و« كأن رمال مصر قد ابتلعت التجاوزات التى عانت منها السلطة المدنية (من بونابرت وهو فى مصر)، وكارثة أبو قير الاولى . إن مجرد عودته قد جعلت الانتصارات الجديدة على الحدود الشرقية لفرنسا تبدو تافهة، لانها وقعت فى غياب الرجل العظيم» [٥٠] .

وكان حكام «الإدارة» يخططون لانقلاب جديد، مثل الانقلابات السابقة التى ساعدتهم على الاحتفاظ بالسلطة حتى ذلك الحين.

وكانوا بحاجة الى «جنرال جمهورى» شعبى، مثل أبطال الرومان، ينقذ البلد، ثم يعود الى ثكناته . ووقع الاختيار على بونابرت الذى استقبله الشعب الفرنسى بصورة شبه هستيرية، ونظم المتآمرون خطتهم بإحكام ، حتى أنهم أرسلوا مجلسى النواب، والشيوخ، خارج باريس بحجة واهية، وكان رئيس المجلس النيابى أحد إخوة نابليون، وتوجه الجنرال بجنده،، ودخل مجلس الشيوخ يوم «١٧ برومير» [٥١] وقرأ عليهم «خطبة قصيرة محبوكة بعناية فائقة، وكان مما قال: نريد جمهورية أساسها الحرية الحقيقية، والحرية المدنية والتمثيل القومى، وأنا أقسم باسمى واسم زملائى فى السلاح إننا سنحصل عليها» وفى

اليوم التالى ، الذى دخل التاريخ لأنه فتح صفحة جديدة فى تاريخ فرنسا، بل في تاريخ أوربا كلها، واجهت « خطبته (أمام مجلس النواب) والتى أثقلتها البلاغة الرومانية العسكرية » عاصفة من الاعتراضات والأسئلة ، لم يجد بونابرت ردا عليها ، فإذ به يبادر «بالتهديد الذى سبق أن اشهره في وجه مسلمى القاهرة»، كما يعلق مؤلفا « كتاب الثورة الفرنسية » : قال بونابرت الهتافات المعادية تضعف من موقفه : «تذكروا اننى أتقدم وآلهة الحرب والنصر بجانبى» ، وعلت صيحات ممثلى الشعب «فليسقط الدكتاتور! فلتحيا الجمهورية ودستور العام الثالث ! فلنمت في مواقعنا» وصاح أحدهم « أمن أجل ذلك انتصرت ياجنرال ؟ » وحدث شغب، فاستدعى لوسيان بونابرت جند أخيه صارخا « إنهم يقتلون الجنرال ! » .. فهجم الجند على قاعة المجلس ، حيث قبض على البعض ، بينما قفز الآخرون من النوافذ فارين لينجوا بحياتهم.

وهكذا استولى بونابرت ، بالقوة المسلحة على الحكم.

بعد ثلاثة أشهر من تركه مصر، وشهر واحد من وصوله الى فرنسا، كانت هذه هى الديمقراطية التى تحدث عنها ، ثم يحق له بعد ذلك أن يغتالها ! .

وفى يوم ١٩« بروميز» عاد بونابرت الى باريس بعد أن كتب روايته لما حدث، وأصبحت قصته هى الوثيقة الرسمية للأحداث، وهى الرؤية التي احتفظ بها التاريخ.. حتى عهد قريب.. وكونت على الفور حكومة جديدة ، اسمها حكومة «القناصل» ، أكدت فى ١٥ ديسمبر من عام ١٧٩٩ : «أن الثورة مرتبطة بالمبادىء التى قامت عليها، ولذا، فالثورة قد انتهت » (٥٢) وبدأ «العهد الجديد الذى تشكل على انقاض الجمهورية البرلمانية، التى أطاح بها انقلاب عسكرى» (٥٣) ، وتم بالطبع تحرير دستور جديد، سمى «دستور العام الثامن » أى عام ١٧٩٩ . وعرفت باريس نكتة تقول: علام يحتوى الدستور؟ فتكون الاجابة: على بونابرت ، بينما شهر السياسى الكبير والثورى العتيق «سيياس» علنا ببونابرت، مؤكدا انه يريد أن يصبح ملكا.

وكان على حق فى ظنه، «فالقناصل» ثلاثة، ولكن السلطة كلها كانت فى يد «القنصل الأول» الجنرال بونابرت وحده: كيف ننسى أنه أكد، فى أول تصريح له أن «الثورة انتهت».. الثورة التى يقال انه علم مبادئها للمصريين ولأوربا وبدأ عصر الاستفتاءات، ليؤكد بونابرت شعبيته، وكما ساعده اخوه «لوسيان» فى إنجاح انقلابه العسكرى ضد نواب الشعب المنتخبين ساعده ايضا فى هذا الاستفتاء الاول، فكان التزوير السافر

الذى أظهرته أخيرا دراسات المتخصصين . ويعلق «تولار» قائلا إن هذا الاستفتاء، «لم يكن استفتاء حرا للرأى العام، بل كان مجرد تصديق على الأمر الواقع» .

وهكذا انتهى عام ١٧٩٩، الذى بدأه بونابرت حاكما مطلقا على مصر المحتلة، وانتهى وهو حاكم مطلق على فرنسا. وما كانت سياسته فى فرنسا إلا امتدادا منطقيا لسياسته فى مصر.

كان بونابرت «القنصل الأول» والوحيد فى الواقع على الرغم من وجود قنصلين بجانبه - يسيطر سيطرة كاملة على الوزراء وبل وعلى الادارة كلها، حتى أن أحد معاصرى ذلك الوقت ، صاغ كلمة «بيروقراطية» ، وقد لاحظ المؤرخون كلهم أن المركزية ، وسلطتها المطلقة، التى نظم بها بونابرت شئون البلد فى ذلك العصر، كانت كلها مستوحاة من النظام الادارى الملكى الذى ساد لقرون قبل الثورة حتى مجلس الدولة الجديد رأوا فيه صورة حديثة «لمجلس الملك» أيام الحكم المطلق فى العهد السابق للثورة.

وعلى مر الايام، فقدت فرنسا كل الحريات التى اكتسبتها بقيام الثورة الكبرى ، سنة ١٧٨٩.

وقد يكون أول قانون يدل على هذه الحقيقة، هو القانون الذى صدر فى ٧ فبراير سنة ١٨٠٠، والذى حل كل السلطات الجماعية والانتخابية

والحكم المحلى فى مقاطعات فرنسا المختلفة، ذلك الحكم المحلى الذى يقال إنه علمه للمصريين.

• لقد أصبح لمبدأ السلطة هو اساس كل مايوجه نظم الحياة العامة، خاصة أن التمثيل النيابى أصبح «تشويها سافرا» للحياة النيابية المسئولة . وفى الشهر الاول من عام ١٨٠٠ - أى بعد تركه أرض مصر بخمسة أشهر فقط - صدر أول قرار بإلغاء كل الجرائد التى تنشر فى باريس . كانت تلك الجرائد حرة فى كل ماتكتب دون أية رقابة عليها، حتى تلك اللحظة ، ولكن بونابرت لم يترك منها إلا ثلاث عشرة جريدة شريطة ألا تعارض الحكومة، وإلا تلغى هى الأخرى وفورا .

وكانت أهم ضحايا هذا القرار، صحف اليسار، التى كانت لاتزال تنادى بمبادىء الثورة.. ولكن بونابرت كان يشعر أن الخطر على سلطته مازال يأتى من هذا الاتجاه . لم يكن القضاء على الاعلام اليسارى كافيا فى نظره، لذا، صدر، فى عام ١٨١٠، أمر بتشكيل «الإدارة العامة للطباعة والمكتبة».. وهكذا انتهى ماتبقى من حرية الصحافة فقد أصبح عدد جرائدها لايتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، ولايسمح لها بالحديث إلا عن الآداب والفنون . وفى عام ١٨١١، استولت الدولة حتى على تلك الصحف القليلة الباقية . ولم تكن حجة خطر الفكر الثورى كافية ، فقد انتهى اليسار فى فرنسا منذ سنة ١٨٠٠، ففى ٢٤ من ديسمبر سنة

١٨٠٠، انفجرت قنبلة وبونابرت في طريقه الى الاوبرا، ونجا «القنصل» وراح ضحية محاولة الاغتيال عشرات من الضحايا، واتهم بونابرت في الحال «اليعاقبة» بهذه المحاولة التي اهتز لها الرأي العام، جاء هذا الاتهام العلني قبل أن يبدأ التحقيق.

وقد ثبت بعد ذلك أن الجناة الحقيقيين، كانوا من الملكيين اليمينيين.

ولكن بونابرت انتهز الفرصة، وأمر بالقبض على اليساريين - وكان صاحب كل سلطة، بما فيها السلطة القضائية - وقبض على مائة وثلاثين من «اليعاقبة»، وبدون محاكمة، تم إعدام بعضهم، ونفى الباقى الى مستعمرات أمريكا الوسطى، حيث كان الجو يقتل كل من يحكم عليه بالنفى فيها، وهكذا كان أول تطبيق لقانون الحرية الشخصية في عهد بونابرت، هذه الحرية الشخصية التي ألغيت تماما، فيما بعد، بعد السيطرة الكاملة للبوليس على حياة الافراد.

كان بونابرت قد أكد في مجلس الدولة خط سياسته، قائلا: «سياستى هى أن أحكم كما تريد الاغلبية وأظن أن هذه هى الطريقة المثلى للاعتراف بسيادة الشعب . لقد انتصرت في حرب «الفانديه» لانني أعلنت أنني كاثوليكي، واستقريت في مصر لانني أصبحت مسلما، وكسبت النفوس في ايطاليا لانني أصبحت من أتباع البابا، ولو كان علىّ أن أحكم يهودا، لأعدت بناء معبد سليمان» (٥٤) ، وبهذه الفلسفة، انتهى كل دور للحياة النيابية، ومكاسب ثورة ١٧٨٩ الديمقراطية.

من هذا المنطلق، أعاد بونابرت العلاقات مع البابا، لانه إعتبر الدين من أهم وسائل الحكم، وعندما توصل الى اتفاق مع روما، في عام ١٨٠١ ، كانت شروطه غريبة، إذ جرد (بونابرت) البابا من كل سلطة على الاساقفة الفرنسيين ، وأصبح من حقه هو وحده أن يعينهم ، ولم تقم بعد ذلك أية جمعيات دينية أو أديرة إلا بموافقته.

ويقول «سوليه» (فى كتابه الذى سبق ذكره) إن الشعب فرح بالحرية الدينية ، ولذا قبل الدكتاتورية ، لأنه عاد الى كنائسه .

وعندما توصل بونابرت، بعد ذلك الى انهاء الحرب فى عام ١٨٠٢ زادت شعبيته وزاد طموحه ، وتقرر أن يكون « قنصلا مدى الحياة »، وأعاد الرق الذى كانت الثورة قد ألغته على الورق في مستعمراتها الأمريكية (٥٥) . وفى عام ١٨٠٣ ـ ولا يسعنا الا ملاحظة الايقاع الزمني السريع ـ اعاد تنظيم «المعهد الفرنسي» ـ وكان فرعه فى القاهرة مفخرة الحملة - فألغى فيه أقسام العلوم الانسانية والسياسية ؛ مما جعل «ستندال»، المؤلف المشهور المتيم بحب نابليون، يشرح فيما بعد، مدافعا عنه قائلا:

«قد يكون طاغية، استعبد الصحافة، وحارب الفلسفة والافكار الليبرالية».. ولكن الموقف السياسي فى فرنسا كان يبرر ذلك:

«وبدون الطغيان العسكرى، كانت فرنسا، فى عام ١٨٠٠، ستعرف المصير نفسه ، الذى عرفته عام ١٨١٤ (عندما احتلتها جيوش الاعداء) أو ربما حتى ما رأته فى عصر الإرهاب (...) لقد انقذ فرنسا» (٥٦) .

نابليون الإمبراطور

وبالفعل، انصلحت الحال فى فرنسا، وباعتراف اعدائه أنفسهم، ولكن قبضة بونابرت زادت من سطوتها مع الزمن، وظهرت نيته الحقيقية، عندما بدأ فى انشاء طبقة جديدة من المميزين، فقد اخترع نيشانا اسماه «الليجيون دونار» (٥٧) لتكريم من يرامم جديرين بالمكافآت، وكان ذلك النيشان ، صورة طبق الاصل لنياشين العهد الملكى . وكان كل شىء ينبىء بعودة الملكية: فاصبح لخدم القنصل زيهم الخاص، وبدأت الالقاب تعود فى الاحاديث العادية، وتكون بلاط كبير فى قصره، ووضعت له ايضا مزاسم صارمة . وفى مارس من سنة ١٨٠٤، قرر مجلس الشيوخ ـ الذى لم يكن له إلا دور صورى ـ أن «ينهى (بونابرت) عمله بأن يصبح سرمديا مثل مجده » ، ويتوج امبراطورا (٥٨) . فكان بعدها الدستور الجديد للإمبراطورية.وكانت سلطات « الجنرال الجمهورى » شاملة لدرجة أن التغيير لم يلحظ فى اى من بنود الدستور الجديد .. ولكن القوانين توالت لزيادة سيطرة نابليون ..

والحديث يطول عن طغيان نابليون، الذى جاء ليتوج ثورة، كانت مبادئها «الحرية والمساواة والإخاء» ، ولسنا بصدد سرد تاريخه المعروف، ولكن لايمكن المرور على بعض الامور دون توقف.. فالكنيسة، مثلا، أضبحت – مثل غيرها من المؤسسات ـ أداة فى الدولاب الاعلامى لنابليون وعائلته ، بعد أن توج كل أخ له وأخت ، فى البلدان التى غزاها، فكان الدرس الدينى فى فرنسا كلها ، مثلا يضع بين أوامر الرب «حب الطفل واحترامه وطاعته ووفاءه للامبراطور، والخدمة العسكرية والاتاوات المفروضة للدفاع عن الامبراطورية » (٥٩) . وبينما كانت البيانات العسكرية التى يرسلها نابليون من الجبهة وتقرأ فى المدارس ومع صلاة كل يوم أحد، كان القساوسة يتبارون فى تملق نابليون حتى أن الإمبراطور نفسه قال يوما :

«أنا أعفيكم من مقارنتى بالرب»، فقد ذهب بهم الحد إلى أن أحدهم – مأمور طبعا مثله فى ذلك ككل القساوسة ـ ذهب الى حد تأكيد فكرة أن نابليون هو ممثل الرب على الأرض، وقال إنه واثق أن الرب يأسف انه قد سبق أن أرسل السيد المسيح، لانه يعرف أن نابليون كان اجدر بأن يكون ابنه ؛ بينما قال اخر: «إنه لشرف عظيم للرب أن عبقرية خارقة (مثل عبقرية نابليون) تسبح له » ! (٦٠) . لم يكن الامر غريبا

على نابليون : ألم يسبق لاحد جنرالاته أن استقبله «كقنصل أول» بقوله: «خلق الرب بونابرت، ثم استراح»؟ (٦١) .

وبعض الامور قد تبدو طريفة لمن لم يعشها، ونرى أنها ستساعد القارىء على تخيل معاملة نابليون للحرية، التي وعد في أول عهده بحمايتها. فقد أنشأ طبقة جديدة سمى أعضاؤها، نبلاء الامبراطورية، حولت ضباطه الى دوق وكونت ، الى آخر ألقاب الملكية السابقة، ثم أصدر أمرا بألا يزوج احد من نبلاء العائلات العريقة، أثناء الملكية بناته إلا بإذن خاص منه حتى يزوجهن هو بجنده النبلاء المحدثين (٦٢) ، ولم يستطع أحد أن يرفض أوامره ، ومن يعترض فإن مصيره السجن أو المنفى . وزادت سلطة البوليس الى حد لم تعرفه فرنسا من قبل، وكان المعارضون يسجنون ثم يحكم عليهم دون أية محاكمة.

كان بونابرت شغوفا بالفنون، وقد يكون أحد دلائل هذا الشغف، ما انتقاه من تحف ايطالية لبيته الخاص . ولكنه عرف أيضا كيف يستغل هذا المجال - مجال الفنون - لتوظيفه في تأليه صورته الذاتية، على حساب حرية الخلق الفني بالطبع ، كما وظف الصحافة بعد كبت حريتها ، ولكن الخلق الفني كان يحتاج حرية لا يتنفس ولا يبدع دونها .

وكتاب «جان تولار» عن «أسطورة نابليون» ينقسم الى قسمين،. فالقسم الثاني يحكي امتداد الاسطورة بعد وفاة الامبراطور، وتأثيرها

على فنانى البلاد الأخرى .. أما الجزء الاول ، فهو عبارة عن سرد لعناوين كل ما كان نابليون يأمر به ، حتى تخلق اسطورته . وكان «تولار» قد نوه فى كتاب آخر عن اهتمام بونابرت بالفنون، وإدراكه انها الوسيلة المثلى للدعاية، ولشخصه بالذات (٦٣).

ويضرب مثلا للحد الذى وصلت اليه عبادة الفرد فى عصره، خاصة بعد عام ١٨٠٥، بلوحة ترى فيها كل شعوب العالم ـ بما فيها شعب هنود أمريكا – وهى تنحنى لتمثال نصفى للامبراطور، وما يهمنا فى هذا الكم من الاعمال الفنية – التى تمجد بونابرت ، والامبراطور نابليون – هو، أولا، كيف كانت تصدر الأوامر، وبالتفصيل الدقيق، للفنانين ، لكتابة الشعر والمسرحيات والموسيقات .. إلى آخره، نجده فى الفصل المسمى « خلق الأسطورة » ، وثانيا طبعا، ما أمر به من أجل تصوير الحملة على مصر ، بما يليق بهذه الاسطورة نفسها خاصة أنها رسمت كلها بعد عودة بونابرت ، وبريشة فنانين لم يذهبوا يوما الى مصر : أشهرها « مرضى الطاعون فى يافا » سنة ١٨٠٤، التى كان نابليون يرد بها على ماقاله الانجليز، من انه سمم مرضى الطاعون من جنوده واللوحة للفنان الكبير «جرو» وكان لها نجاح كبير.

ويعلق كتاب آخر على هذه اللوحة قائلا: «إن الهدف من هذه اللوحة هو تأكيد شجاعة نابليون والحماية الإلهية التى يتمتع بها» (٦٤) وهذا هو بالفعل الانطباع الذى توحى به اللوحة.

فمن يرى بونابرت واقفا وسط اللوحة (وهو دائما فى وسط كل اللوحات) . والضوء مسلط عليه، وهو يلمس بيده يد أحد مرضى الطاعون الملقى على الارض، لايسعه إلا أن يتذكر السيد المسيح (عليه السلام) عندما لمس يد الابرص فخلصه من مرضه [٦٥] والفارق الوحيد هو أن مرضى الطاعون من الجنود الفرنسيين لم يشفوا من مرضهم.

وقد اثبتت الدراسات الأخيرة أن بونابرت قد أمر، بالفعل، بإعطائهم السم ليتخلص منهم، وهو عائد مهزوم من عكا، ثبت ذلك بعد أن أثارت هذه القصة من المعارك الكتابية أكثر مما أثاره نابليون من حروب ، فكان مريدوه ينفون بشدة مثل هذه القصة التى فضحها الانجليز ، بينما يتلقفها أعداؤه بشغف شديد، لتأكيد وحشية الرجل « السفاح » .

أما عن السيد المسيح، ومقارنته بنابليون، فإن «تولار» يخصص فصلا كاملا عنوانه «المسيح» فى كتابه عن «اسطورة نابليون».

وفى كتاب الرسومات الخاصة به، نرى لوحة رسمت عندما اعادوا رفاته الى باريس فى عام ١٨٤٠، وهو يخرج منتصرا من القبر، وكأنه بالفعل السيد المسيح كما تصوره الكثير من اللوحات الدينية على مر القرون.

ولم يذكر «تولار» لوحة أخرى عنوانها «سماحة بونابرت» ، التى تصور بونابرت والشيوخ المصريين يسجدون أمامه، لعفوه عنهم بعد

الثورة عليه، وقد يكون ضعف مستواها الفنى سببا لتجاهله إياها وباقي اللوحات التي صورت معاركه في مصر.

ولم يعرف تاريخ فرنسا، الزاخر بالأعمال الفنية الرائعة، فترة هبط فيها الانتاج الفنى الى مثل هذا المستوى المتدنى، كما عرف فى السنوات الخمس عشرة التى تولى فيها نابليون السلطة المطلقة فى بلده، فالحرية لا تتجزأ عندما يختص الأمر بقضية الابداع الفني، خاصة إن كان لا يتحرك إلا فى اطار توجيهات دعائية خانقة، وبدائية فى تصورها.

★★★

لم يكن ماسبق إلا سردا سريعا لتوظيف نابليون كل انتاج عقلى فى سبيل مجده الشخصى، وهو الذى وعد، عند توليه السلطة بحماية حريات الثورة، ثم تُوج نفسه امبراطورا، وتوج كل اخوته وحتى ابنه الرضيع بعد ذلك (٦٦) . وكانت انتصاراته وغزواته تبرر، الى حد ما، مانسميه الآن «عبادة الفرد»، الى أن جاء ت الخطيئة: قامت الحملة على اسبانيا دون أدنى مبرر موضوعى، مقنع للشعب الفرنسى الذى كان يدفع من دمه وحريته ثمنا للحروب التى لا تنتهى من أجل مجد فرنسا!!

لم يكن هناك مبرر لتلك الغزوة الجديدة، اللهم إلا اهداء عرش اسبانيا الى اخيه ، هكذا فهم الشعب تلك الحرب التى كانت أول درجة فى سلم سقوطه ، حتى انه اعترف هو نفسه بها كخطأ فادح، عندما كان فى «سانت ـ هيلانة» يبنى دفاعه ضد كل ماقيل عنه والحديث عن الحرب الاسبانية سيكون له شأن بالنسبة لقضيتنا ، ولكنها تفجر هنا قضية علاقته بالدول الاوربية التى استولى عليها، وقيل ان الجند الفرنسيين علموا شعوبها مبادىء الثورة الفرنسية الكبرى ، تلك الدول التى كان يحكمها اخوته ، أو حتى هو نفسه، مثل ايطاليا التى توج نفسه ملكا عليها سنة ١٨٠٥.

الإمبراطورية والحرية الفرنسية

كيف نفهم علاقة فرنسا الامبراطورية بالدول الحليفة، إذا تجاهلنا علاقة نابليون بفرنسا الثورة، التى ورثها ليحمى فيها ـ كما وعد ـ الحريات المكتسبة بعد سقوط الملكية، وتحول البلد، لأول مرة فى تاريخه، الى جمهورية؟ كانت صحف الجنرال الجمهورى بونابرت تقول عنه: «.. إنه يرى كل شىء، فهو مبعوث الأمة الكبرى (...) انه يعرف أن هناك رجالا لاتعرف سلطتهم إلا حدود إرادتهم، ولايحدث هذا إلا عندما تكون هذه الفضيلة ـ وهى اسمى الفضائل ـ فى خدمة عبقرية لا حد لها» . ألا تنبىء هذه الكلمات المبكرة بما سوف يحدث بعد ذلك بالفعل؟ أو عرفنا كيف حكم مصر؟ .

بعد هذا التمجيد المطرد، جاء الاستفتاء على « دستور العام الثامن» أي دستور انقلاب بونابرت العسكرى سنة ١٧٩٩، هذا الاستفتاء الذى زورت نتيجته بمهارة فائقة، حتى ظن الجميع أن وراء بونابرت حركة من الحماس الشعبى الكاسح.

وبعد ذلك مباشرة، كانت معركة «مارنجو» (١٨٠٠)، التى أنقذ فيها الجنرال «ديسى» بونابرت ، من هزيمة محققة .. ولكن وفاة «ديسى» فى هذه المعركة سمحت لبونابرت وأعوانه تأكيد العبقرية العسكرية الفذة لبونابرت الذى حول الهزيمة التى شاهدها الجميع، الى انتصار باهر .. وبعد هذا الانتصار المزعوم لبونابرت زادت بلاشك سيطرته الشخصية على الحكم ، استنادا على هذا النصر الرائع.

وإن كان بونابرت قد خدع المفتونين به، أو غير المستفيدين من حكمه بقناع زائف فإن هذا القناع بدأ يسقط، نابليون يقول حرفيا إن القوة هى «المبدأ الاساسى لأى حكم»، واستمرت الحروب التى أثقلت كاهل الشعب بثمنها الباهظ، على الرغم من الانتصارات التى تحقق . وتوالت البيانات التى ترسل من الجبهة لتقرأ فى الكنائس والمدارس، وحتى على الجمهور فى المسارح، وقد زاد انتشارها بصورة واضحة بعد عام ١٨٠٦، لتبرر بطريقة ما، استمرار المعارك ويعلق «تولار» (الذى نستعين به اساسا فى سردنا عن نابليون لدراساته الوافية الحديثة عن

الرجل الاسطورة «المنقذ») قائلا: «وهكذا خلقت أكذوبة الجيش القومى الذى يربط بين القوات المسلحة، والشعب، بينما لم يعد الجيش الكبير (كما كان يسمى جيش نابليون) إلا أداة لتحقيق رغبات الامبراطور» ، ويؤكد «تولار» انه منذ عام ١٨٠٨، اختفى تماما كل ماتبقى من حريات، وحتى الدستور لم يعد نابليون فى حاجة الى احترامه كما كان يحترمه من قبل، (وإن كان ذلك صوريا بل وبطريقة تكاد تكون هزلية) .

أصبح نابليون يؤكد الآن بشكل سافر أن «الغرور وحده كان الدافع الحقيقى وراء الثورة، ولم تكن الرغبة فى الحرية هى التى اشعلتها » ، وحسب هذا المنطق ، لم يعد هناك أى داع الآن لاحترام أية صورة من صور الحرية المكتسبة أيام الثورة.

وهكذا كان حكمه بالفعل، وينقل لنا «تولار» قول أحد السياسيين المعاصرين لنابليون ، مؤكدا أن «عبقرية نابليون وطبيعته كانتا ترفضان مبدأ أى تقسيم للسلطة» (٦٧) . والصورة العامة للحكم الامبراطورى يوضحها معاصر آخر بقوله: «لم يكن هناك مايسمى بالمعارضة بصحيح العبارة، فلم يكن هناك معارضة أثناء الإمبراطورية ولكن كان هناك مشبهون ومغضوب عليهم، وبعد قليل، أصبح هناك مضطهدون» . لم تعد هناك، كما يقول تولار ، دكتاتورية من أجل الصالح العام ، كما كانت تقبلها طبقة البورجوازية المنبثقة عن الثورة، هذه الطبقة الجديدة التى

ساندت حكم نابليون، ولقد أصبحت دكتاتورية نابليون دكتاتورية من أجل رغبات فرد واحد [٦٨] ، خاصة بعد عام ١٨٠٧، وكان الجميع ينتظر بعد أن استتبت الامور، وانتهت فوضى الحكم الثورى أن تتحول هذه الدكتاتورية الى نظام دستورى ليبرالي، كما سبق أن وعد بونابرت، ولكن «الجنرال الجمهورى» السابق، أصبح بوصفه امبراطوراً، لايهتم ولايحارب إلا من اجل توطيد، عروش عائلته ، وعرش ابنه من بعده [٦٩] لم تعد الدكتاتورية الامبراطورية من أجل رفاهية الشعب وسكينته ، فقد أخذت أحلام نابليون فى التوسع حتى وصلت به الى اسطنبول . عن طريق روسيا، كما حدث فى عام ١٨١٢، لقد بدأت الهوة تتسع بين نابليون وشعبه، وكانت قد بدأت مع الحرب الاسبانية فى عام ١٨٠٧، وظلت تزداد اتساعا ، كذلك ازداد عدد المنشورات التى تفضح الدكتاتورية الامبراطورية [٧٠] وتفضح عائلة بونابرت التى أصبحت تسيطر - لحسابها الخاص - على مقادير أوربا ، وثرواتها.

وإذا كانت هذه هى الحال فى فرنسا، فكيف تتخيل ان تكون فى البلاد التى اكتسحتها جيوشه وتوج جميع أفراد عائلته ملوكا عليها؟

★★★

نذكر أولا أن الاطماع الاستعمارية لنابليون خارج اوربا لم تهدأ إلا لقلة الحيلة، فقد ارسل بعثة علمية الى استراليا، حتى يأتى الاستعمار

بعدها ان أمكن ثم ارسل بعثة علمية أخرى الى مصر، في يناير من عام ١٨٠٢، وبالهدف الخفى نفسه، وجاء التقرير مؤكدا سهولة غزو مصر مرة ثانية، ولكن المعارك فى اوربا نفسها لم تتح لنابليون فرصة الخروج منها، خاصة أن البلاد المجاورة اخذت تتساقط تحت إمرته، وحتى البعيد منها، ولذا فإن الحديث الحالى عن الوحدة الاوربية ، يرجع دائما الى اول من حققها، وهو «شارلمان» امبراطور القرن التاسع الميلادى، ثم الى نابليون ، الذى تشبه به، وحاول تحقيق مافشل فيه تاريخ الماضى. ولكن ، أى أوربا هذه التى وحدها نابليون تحت حكمه للحظة وسط سيل القرون؟.

لن نسرد طبعا تاريخه المعروف ، ولكننا سنذكر بعض الحقائق التى كانت تنبىء بها أقواله هو نفسه ، هذه الأقوال التى تتسم بصراحة المنتصر المتعجرف وصلفه.

المعروف أن نابليون قرر، في حربه الضروس ضد انجلترا، ان يخنقها اقتصاديا بأن يمنع سفنها وبضائعها من الوصول الى القارة الأوربية، فكانت سياسة «الحصار الاقتصادى» تلك هى التى أجهزت على كثير من الموانىء الفرنسية والاوربية ، والبلاد التى تعيش ، الى حد ما، على تجارتها الخارجية مع انجلترا ، مثل البرتغال واسبانيا، فكانت الحرب ضدهما عام ١٨٠٧، وكانت الحرب ضد روسيا

فى عام ١٨١٢، ومن قبلهم هولنـدا التى كان قد ضمها الى امبراطوريته .

رفض ملك هولندا وهو أخو نابليون نفسه، أن يطيع أوامره لما يراه من نتائج ضارة على رعيته الجدد، بعد ان تفهم موقفهم من القوانين الجديدة، فغضب الامبراطور بالطبع وكان قد سبق لنابليون أن قال فى الموضوع نفسه : «أنا لم استول على حكومة هولندا لأخذ رأى سكان امستردام بعد ذلك، وأعمل مايريده الآخرون»، وعندما بلغه رفض الايطاليين لسياساته المجحفة لحقوقهم قال أيضا: «إن شعوبى فى ايطاليا تعرفنى بما فيه الكفاية، فعليها ألا تنسى أن أصغر أصبع من أصابعى يعرف اكثر بكثير مما يدور فى رءوسهم كلهم أجمعين»، انه الصلف نفسه، والغرور الذى لا حد له فتكون النتيجة الحتمية: الهزيمة النكراء فى اسبانيا، ونتيجتها فداحة الخسارة فى روسيا بعد ذلك ، ولن نعجب أن رأيناه يعامل الفرنسيين الذين فى البلاد التى ضمها بالفعل الى الامبراطورية الفرنسية - والمتوقع انها دول حليفة - على انهم فرنسيون يتبعون سياسته ، أولا واخيرا ، ولايعملون لصالح البلاد التى استوطنوا فيها بإذنه : إن هذه البلاد لم تكن حليفة للامبراطورية بقدر ما كانت فى خدمة الامبراطورية . ويلخص «تولار» الموقف بكلمات

مقتضبة، لها معنى أكبر وأعمق مما تبدو : «إن نابليون لم يكن يريد حلفاء ، ولكنه يريد اتباعا فقط (...) ولذا، فقد امتزجت صورة الثورة الفرنسية ، فى البلاد التى ضمها اليه، بالاستعمار الاقتصادى القاسى، مع أن هذا النوع من الاستعمار لم يكن ليتفق مطلقا مع الامكانات الحقيقية لفرنسا نفسها».. أما المؤرخ «مارسيل دونان»، الذى تخصص في دراسة هذا الحصار القارى فهو يقول : «إن الامتيازات التى يطالب بها نابليون البلاد الاخرى، هى، فى الواقع، من أجل التجارة والصناعة الفرنسيتين، فهو لا يفكر دقيقة واحدة أن يقدم هذه الامتيازات لأى دولة من الدول الحليفة: كانت المنتجات الفرنسية ترسل الى كل مكان، وتدخل البلاد الاخرى بحرية مطلقة، ولها علاوة على ذلك، امتيازات أخرى تفرض على الدول الحليفة بالقوة، بينما الحدود الفرنسية مغلقة بإحكام تام أمام أى منافس أجنبى فالضرائب الباهظة تفرض على بضائع اى بلد غريب، وتملأ خزانات الجمارك الامبراطورية بالملايين» (٧١) فكان الخراب لهذه الدول، والفوضى لفرنسا، لانها لاتستطيع أن تفى، بصناعاتها الناشئة، متطلبات هذه الاسواق الهائلة على اتساع القارة ، من هنا جاءت القطيعة بين أصحاب المصانع ونابليون ، عندما بدأ حرب اسبانيا باسم مصالحهم ، ونشر مبادىء الثورة والحرية الفرنسية ، لقد

فهموا أن السبب الحقيقي من وراء هذه الحرب الجديدة ـ المكلفة – ليس إلا تحويل اسبانيا الى مملكة أخرى خاصة بعائلة بونابرت.

فما العجب إن قامت بعد ذلك الثورات فى البلاد التى «حررت» بالاسم ، « واستعمرت » بالفعل ، كما حدث أيام حروب الثورة التحريرية ، وكما حدث فى مصر؟ فالحال لم تختلف بل ساءت حالة البلاد «الحليفة» وهى تحكم باسم «الأمة الكبرى » ، ولا ترى إلا استعمارا عسكريا وقاتلا اقتصاديا، ناهيك عن ضريبة الدم، لتغذية جيوش فرنسا بالرجال (٧٢) ؟ قامت الثورات الشعبية ضد الامبراطور، وعرفت بطولات شهداء الحرية الحقيقية، حرية الوطن، بينما تصدر الأحكام الفرنسية التعسفية ضد كل من يثور على هذا الوضع المشين لبلاد لم تعرف مثل هذا الذل من قبل . بدأت ما يسميها تولار «الحرب القومية فى أوربا» (...) منذ عام ١٨٠٩.

وكانت حروب نابليون ذات طابع بشع، كما عرفتها أسبانيا مثلا، فقد قال أحد الضباط وهو يرى الفظائع التى ترتكب فى روسيا : « أهذه هى الحضارة التى أتينا بها إلى روسيا! ماذا تكون نتيجة هذه البربرية عندما يشاهدنا العدو ونحن نمارسها ؟ » ، كلام مماثل سبق أن قيل فى مصر، كما سنرى فيما بعد .

وعندما هزم نابليون عام ١٨١٤، كان هذا بالضبط ما قاله السياسى اللامع بنچامين كونستان: «إن نابليون يسير ضد تيار الحضارة الأوربية» . وعلينا أن نذكر هنا ما قاله الجنرال بونابرت عند عودته من مصر: «إنه كان سعيدا فى ذلك البلد البعيد، حيث استطاع أن يتحرر هناك من كل قيود الحضارة الأوربية » (٧٣) : كلام خطير لم يرد أحد أن يفطن إليه.

ثم كانت الهزيمة الكاملة بعد الحملة الفاشلة على روسيا، وإقصائه من الحكم، ونفى نابليون الى جزيرة «ألبا» ليهرب منها بعد أشهر قليلة، ويعود مرة أخرى الى فرنسا، وقد فهم، بذكائه الخارق، أين تقع الأخطاء التى أبعدت عنه هذه الشعوب التى «حررها» بمبادىء الثورة، لذا ، تقدم آنذاك - فى أبريل من عام ١٨١٥ - بمشروع لدساتير جديدة من أجل شعوب الامبراطورية، يرتكز فيها أساسا على« نظام اتحاد أوربى » . ولم تمهله الأحداث أكثر من ثلاثة أشهر وأسبوع واحد، عرفت باسم حكم الأيام المائة، انتهت بهزيمة «واترلو» الشهيرة والمنفى النهائى لنابليون فى جزيرة «سانت - هيلانة» وانتهى تاريخه السياسى، بعد أن شوه صورة الثورة عند شعوب أوربا، كما يرى المؤرخ والفيلسوف المعاصر لنا، «ريمون آروون» (٧٤) .

★★★

وعلى الرغم من كل ذلك، فقد أصبح نابليون، فى ثورة ١٨٣٠ - أى بعد خمسة عشر عاما من إقصائه - رمزا للحرية التى يموت من أجلها الجمهوريون والليبراليون، مما جعل كلا من السياسى الشاعر «لامرتين» والروائى السياسى «شاتوبريان» عدوى نابليون اللدودين، يصلان إلى النتيجة نفسها «يبدو من هذا الواقع، ان هذا الشعب الفرنسى الحر، لايحب الحرية» (٧٥) محتمل ، ولكنه بلا شك، يحب الأساطير، وكانت اسطورة النسر الجريح المهزوم المعزول المنفى على صخرة جزيرة نائية على خط الاستواء، قد بدأت تستحوذ على خياله، وذلك لأسباب عديدة.

★★★

نرجو أن يكون القارىء قد تعرف، بعد هذا العرض السريع الموجز لتاريخ نابليون بونابرت، على حقيقة شخصية قائد الحملة على مصر، سواء قبل أن يغزو بلدنا، عندما لم يكن إلا بطل جيش ايطاليا، او عندما نمت الشجرة وأصبحت العملاق الغازى المنتصر دائما، الامبراطور نابليون.

وعلينا الآن، بعد أن عرفنا التاريخ، كما يحكى حاليا فى فرنسا، أن نتعرف على ماجعل من اسم نابليون ، بعد هزيمته ووفاته ، اسطورة جديدة ، لاتزال تنبض بالحياة فى قلوب عابديه حتى يومنا هذا . نرجو أن يساعدنا هذا على فهم الطريقة التى يتحدثون بها عن أولى هزائمه ، وهى حملته على مصر.

الفصل
الثالث

أسس أسطورة الحملة ونابليون

« فخمسة جنود من أدنى صفوف جيشنا كانوا عام ١٨٠٦، هم تقريبا الأسياد في القاهرة »

(شاتوبريان)

التسلسل الزمنى لأهم أحداث الحملة الفرنسية على مصر: ١ يوليو ١٧٩٨ - ١٨ أكتوبر ١٨٠١ ، (ثلاث سنوات وأقل من أربعة أشهر) .

بونابرت في مصر: ١ يوليو ١٧٩٨ - ٢٢ أغسطس ١٧٩٩

(سنة وشهران أو أربعة عشر شهرا)

- ١٩ مايو ١٧٩٨ : الاقلاع من ميناء «تولون».
- ١١ يونيو ١٧٩٨: الاستيلاء على مالطة وضمها لفرنسا .
- ٢ يوليو ١٧٩٨ : الدخول إلى الاسكندرية ثم إلى رشيد.
- ١٢ يوليو ١٧٩٨: هجوم مراد بك، فى شبراخيت، على السفن الفرنسية وأغراقها قبل وصول الجيش الفرنسى للنجدة.

المقاومة فى اقاليم مصر السفلى تستمر والجيش يتقدم نحو القاهرة.

- ٢١ يوليو ١٧٩٨: معركة إمبابة المسماة عند الفرنسيين «معركة الأهرامات». مراد بك يتجه إلى مصر العليا .
- ٢٤ يوليو ١٧٩٨: دخول بونابرت إلى القاهرة.
- ١ أغسطس ١٧٩٨: معركة أبو قير البحرية . «نلسون» الأميرال الانجليزى يغرق الأسطول الفرنسى.

- ١١ أغسطس ١٧٩٨: معركة الصالحية التى يهزم فيها ابراهيم بك فيهرب الى الشرق.

- ٢٢ أغسطس ١٧٩٨: انشاء «معهد مصر» ، المسمى «بالمعهد الفرنسى» ، وهو فرع «للمعهد» المشهور فى فرنسا.

- ٣١ أغسطس ١٧٩٨: بونابرت يرسل الجنرال «ديسى» إلى مصر العليا للقضاء على مراد بك ومماليكه.

- ٧ أكتوبر ١٧٩٨: أول معركة نظامية بين «ديسى» ومراد بك فى سدمنت فينتصر «ديسى» ويستولى على الفيوم.

- ٢١ - ٢٢ أكتوبر ١٧٩٨: ثورة القاهرة الأولى تفاجىء الفرنسيين.

- ٢١ يناير ١٧٩٩: هزيمة أخرى لمراد بك أمام قوات «ديسى» . يعى مراد بك الدرس فيكون بعد ذلك الكر والفر.

المقاومة مستمرة فى مصر العليا كما فى مصر السفلى.

- مارس ١٧٩٩: بونابرت يتجه إلى أرض فلسطين المسماة آنذاك بسوريا لمنع الجيوش العثمانية من الوصول إلى مصر.

- ٧ مارس ١٧٩٩: يافا مدينة مفتوحة للسلب والاغتصاب ليومين ، ثم قتل ثلاثة آلاف سجين كانوا قد أمنوا على حياتهم.

– ٧ مارس: هزيمة العثمانيين فى «جبل طابور».

– ٨ أبريل: هزيمة العثمانيين في «كفر قنا» التى يسميها بونابرت «معركة الناصرية».

– من ١٩ مارس ١٧٩٩ إلى ١٠ مايو ١٧٩٩: حصار عكا دون جدوى، فيكون الانسحاب القاسى.

بعد ١٠ مايو: الطاعون والعطش أثناء عودة الجيش.

– يونيو ١٧٩٩: ثورات المقاومة فى مصر السفلى من أسباب الاسراع الى القاهرة . الجنرال «لانوس» يحرق مدينة دمنهور لمساعدتها «للمهدى» وأنصاره المحاربين.

– ١٥ يوليو ١٧٩٩: نزول الأتراك إلى العريش واستسلام الحامية الفرنسية.

– ٢٥ يوليو ١٧٩٩: هزم بونابرت الأتراك، وأسمى نصره «معركة أبو قير» ليمحو ذكرى الهزيمة الأولى للأسطول.

– ١٣ أغسطس ١٧٩٩: بونابرت يترك مصر خلسة، والقيادة العليا لكليبر.

كليبر ٢٣ أغسطس ١٧٩٩ – ١٤ يونيو ١٨٠٠

– ١ نوفمبر ١٧٩٩: هزيمة أخرى للعثمانيين .. ولكن كليبر يطلب بعدها فتح باب المفاوضات للجلاء عن مصر.

- ٢٤ يناير ١٨٠٠: معاهدة العريش تسمح للأتراك بالدخول إلى مصر، ولكن الانجليز يرفضون شروط المعاهدة.

- ٢٠ مارس ١٨٠٠: معركة عين شمس، المسماة بالفرنسية، «معركة هليوبوليس» التى يهزم فيها كليبر الجيش العثمانى : ثورة القاهرة الثانية التى تفاجىء الفرنسيين.

- ٢١ أبريل ١٨٠٠: نهاية الثورة واخمادها.

- ٥ مارس ١٨٠٠: معاهدة صلح مع مراد بك.

- ٢٧ مارس ١٨٠٠: يدخل كليبر الى القاهرة. ليجعلها تدفع ثمن ثورتها.

- ١٤ يونيو ١٨٠٠: سليمان الحلبى يطعن كليبر فى مقتل.

مينو ١٥ يونيو ١٨٠٠ - ١٨ أكتوبر ١٨٠١

- ٨ مارس ١٨٠١ : ينزل الانجليز الى شاطىء ابوقير، ويهزمون مينو وجيشه.

- ٢١ مارس ١٨٠١: ثانى هزيمة قاضية لمينو على أيدى الانجليز فى الاسكندرية.

- ١٠ مايو ١٨٠١: الجنرال (بليار) قائد القاهرة يواجه الانجليز بجوار بلبيس ويهزم أيضا .

- ٨ أبريل ١٨٠١ : موت مراد بك ؛

وصول الانجليز والعثمانيين الى امبابة.

- ٢٧ يونيو ١٨٠١: «بليار» يستسلم ويفتح لهم القاهرة.

- ١٤ يوليو ١٨٠١: «بليار» وجنده يبحرون من أبو قير.

- ٣١ أغسطس ١٨٠١: باقى الفرنسيين يتركون الاسكندرية.

- ١٨ أكتوبر ١٨٠١: يسافر مينو تاركا مصر.

١٧٩٨ : فرنسا في «عصر الأساطير» ...

لم يفق الجمهور الفرنسي بعد من انبهاره بالانجازات الاسطورية لجيش ايطاليا، وهو غارق في تأليه «الجنرال الجمهوري» الشاب النابغة بونابرت المثالي، وفجأة، عرف أنه ذهب إلى مصر، بلد الأساطير، مع الجيش الأسطوري نفسه، الذي لم يهزم في معركة واحدة في ايطاليا . التهب الخيال، تحمست النفوس، جاءت الأخبار تؤكد المسيرة الباهرة للقائد الأسطوري وجيشه: الاستيلاء السريع على مالطة، الانتصارات الفرنسية على «أشهر فرسان في العالم» المماليك: اسم غريب كأنه من قصص «ألف ليلة» ؛ غزو مصر وحب المصريين لبونابرت واحترامهم له. إن النصر حليفه دائما: ألم يصل سالما إلى مصر دون أن يعثر عليه «نلسون» والأسطول البريطاني المرابط في البحر المتوسط، في انتظار فريسته الفرنسية الثمينة، انها المعجزة..

كان بونابرت قد أرسل العلامة «مونج» – أثناء وجوده في ايطاليا بعد انتصاره على النمسا – الى باريس ليعرض نتيجة انتصاره على أعضاء حكومة «الادارة» عام ١٧٩٧. وقال «مونج» في خطبة رنانة: «إن مجد جيش ايطاليا يدوى حتى نهاية مصر العليا؛ حتى البدو تحت خيامهم يتحدثون عنه في أمسياتهم» (٧٦) ، وضعت إذن أول لبنة لأسطورة الحملة قبل حتى التفكير فيها، وسنجد هذه الصورة الشاعرية

للبدو تحت خيامهم فى أدبيات الحملة بعد ذلك، حتى القرن العشرين، دون أى مرجع جدى ، غير الخيال الخصب والخطابى «لمونج» صنيعة بونابرت، والعجيبَ أن البدو عرفوا بعد ذلك بعدواتهم المفرطة للفرنسيين، كما سنرى فيما بعد.

ولكن الشعارات الجميلة، والصورة الشعرية لها فعل السحر، خاصة اذا وجدت بعد ذلك ما يغذيها من شعارات جوفاء أخرى.

وعلى مر السنين ستزيد التهويمات المختلفة (كما سنرى) والتقارير المضللة التى كان بونابرت يرسلها من مصر كما كان يفعل أثناء حربه فى إيطاليا، علاوة على مقالات جريدتين جديدتين تطبعان فى مصر، وتُحكى الأحداث كما يريد لها بونابرت أن تعرف : السياسة الناجحة نفسها، التى أثبتت صلاحيتها المذهلة أثناء غزو ايطاليا. ثم كانت هذه الانتصارات التى قرر لها بونابرت اسماء تثير خيالات الفرنسيين وتوهماتهم ، وتبهرهم بايحاءاتها الأسطورية، فمثلا ، أصبحت معركة تقع بجوار إمبابة، تسمى «معركة الأهرامات» ومعركة أخرى فى قرية مجهولة بالشام ، سميت «معركة جبل طابور» ؛ وكان أى اشتباك مع العدو ، يتحول الى نصر كاسح، حتى وإن كان فى حقيقة امره مشكوكا فى نتائجه، مثل معركة شبراخيت، التى خسر فيها الفرنسيون بقدر ما خسر المماليك، ان لم يكن أكثر، وكما سبق أن فعل بونابرت أثناء حربه

فى ايطاليا، اذا خسر عشرة آلاف جندى ، أبلغ عن ألف فقط، كما حدث فى حصار عكا.

ولكن الجند والضباط كانوا يرسلون فى خطاباتهم الحقائق المريرة لموقفهم في مصر، وكان الأسطول الانجليزى يستولى أحيانا على المراكب التى تنقل هذه الرسائل، فينشرها فى الجرائد الأوربية. وهكذا عرف مثلا ان بونابرت أمر بإعطاء الأفيون القاتل لبعض جنده المصابين بالطاعون، وان «كليبر» يستغيث من موقف الجيش فى مصر، ولكن اشعاع كلمة «جيش الشرق» وصيت بونابرت، كانا أقوى من أية حقائق تقال: عندما نزل الجنرال الهارب من هزيمته فى مصر على شاطىء فرنسا، استقبل استقبال الأبطال، بصفته «المنقذ» المنتصر الذى « لم يهزم يوما » . فى معركة ما، كان فشله أمام عكا معروفا. ولكن ألم ينتصر في أبوقير؟ فى الواقع أن انتصاره على العثمانيين لم يقع فى أبوقير، ولكن بونابرت أراد لنصره هذا الاسم حتى يمحى ذكرى هزيمة أبو قير الأولى، على يد «نلسون» الانجليزى وفرح الجمهور الفرنسى لهذا الانتقام، ونسى عكا، والجيش المعزول فى مصر دون قائده.

وعندما عاد الجيش الفرنسي من مصر، نشر الكثير من المذكرات والخطابات لمن كانوا فى هذه الحملة . ولكن أشهر ما نشر كان ما يعتبر المحاولة الأولى لوصف مصر، كان جزءى كتاب «فيفان دينون» الشهير:

« رحلة الى مصر العليا والسفلى» وبه من الحقائق ما لا يستطيع أن يفخر به أى جيش يدعى غزو بلد ليحررها ويخلصها من طغيان المماليك. ولكن القارىء الفرنسى لم ير فى الكتاب الا جمال رسومات عن أناس وآثار لا تمت الى الحضارة الغربية بصلة ؛ فكان الانبهار . وعندما نقرأ ما كتبه «دينون» فيما بعد، سنعجب للطمس الذى جعل القراء لايفطنون الى ما يقال ، بجانب هذه الرسومات الرائعة ؛ فالقارىء الفرنسى لايريد أن يرى غير بطولة جنده.

ثم كان نشر كتاب وصف مصر، وكان «كليبر» أول من فكر فيه، وبعد وفاته تبنى «مينو» المشروع وفرح نابليون الذى أمر بطبعه، لما يضيفه المشروع من مجد على مجده، وهكذا نشر على صفحته الأولى: «مطبوع بأمر صاحب الجلالة الامبراطور نابليون العظيم ، بالمطابع الامبراطورية سنة ١٨٠٩ » وكان «كليبر» هو أول من فكر فى نشر أبحاث العلماء فى مصر.

وفى عام ١٨١١، ظهر «لشاتوبريان» - أشهر أدباء ذلك العصر - كتاب يؤكد اسطورة الحملة، علما بأن المؤلف كان من أعداء نابليون السياسيين . ولكن مؤلفنا هذا كان لايرى القائد، وإنما يحب مجد وطنه وصناعه، وهم فى نظره، جند الجيش الفرنسى، وليس قائدهم الذى استغل شجاعتهم لمجده الخاص .

شاتوبريان: المسار من باريس إلي أورشليم

«الفيكونت رينيه دى شاتوبريان» كان من العائلات التى يرجع تاريخها الى القرون الوسطى، مما يدل، فى النظام الاقطاعى الغربى، على منتهى الأصالة، حتى وإن كان لقب الأسرة ليس من الألقاب الكبيرة، كأمير او دوق مثلا، فالعبرة عندهم، كانت بالسلف وليس بالمركز، وبالتالى، كان «شاتوبريان» النبيل الملكى، يفخر كثيرا ويعيد مرارا انه «سليل البارون دى شاتوبريان الذى ذهب مع القديس لويس الى الأرض المقدسة وسجن معه فى معركة المنصورة » . وعندما عاد إلى «شاتوبريان» الشاب الملحد، ايمانه الدينى، اعتبر أن من واجبه كمسيحى مؤمن ، أن يخوض بدوره معركة المسيحية بصفته صليبيا من العصر الحديث ليثبت أنه جدير بسلالة الصليبيين التى ينحدر منها . علاوة على ذلك كان والده على حد قوله «ضد الإسلام فى مجال الدبلوماسية ، وكان يؤكد أن أربعين ألفا من الجرابيع الروس، فى استطاعتهم المرور على جثث الانكشارية، والاستيلاء على القسطنطينية» ونلاحظ أنه لا يقول أبدا أسطنبول.

وعندما قرر «شاتوبريان» كتابة رواية عن «الشهداء» المسيحيين الأوائل ، بعد النجاح الساحق لكتابه الشهير «عبقرية المسيحية»، قام برحلة إلى الشرق ، ليصف الأماكن التى ستدور فيها أحداث قصته الجديدة ، بصورة واقعية .

وقبل أن نتعرض لما رواه عن رحلته التى اعتبرها ، فى المقام الأول، حجا إلى أورشليم، علينا أن نفهم الروح التى ذهب بها إلى «الأرض المقدسة» : «كنت على وشك النزول على تلك الشواطىء التى زارها مثلى.. (أسماء عديدة فى ثلاثة أسطر عن مشاهير الصليبيين كلهم من الملوك والفرسان).. وهذا القديس لويس الذى بهر الكفرة بفضائل أخلاقه» (٧٧) . ثم نراه بعد ذلك ، وطوال صفحات وصفه لرحلته الطويلة، ينعت الإسلام بأعجب التهم فالإسلام مثلا هو : «العبادة التى تعادى الحضارة ، بنظامها الأساسى، المؤيد للجهل والطغيان والرق.. إنه الدين الذى أحرق مكتبة الاسكندرية ويعتبر دعس الرجال ميزة » ، ثم يقارن هذه الرؤية بالمسيحية التى «أحيت ، فى العهد الحديث، عبقرية الحكماء القدامى، وألغت الرق»، وكان دائما يطرح الكثير من الأفكار التى تحث على قيام حرب صليبية جديدة، لتحرير البلاد المسيحية من الإمبراطورية العثمانية . والكتاب ينتهى بسيرة «القديس لويس» الذى كان سيحترم وحده (فى تونس) بصفته فرنسيا قبل كل شىء.. ثم يسرد علينا المؤلف تاريخ حربه وموته، وما العجب، وقد بدأ كتابه بذكر سلفه «البارون چوافرا » الذى ذهب إلى الحرب الصليبية مع «سان لويس» .

ومع كل هذا ، فهو لا يرى أى تناقض بين هذا الهجاء المفرط والهجوم السافر، وإعلان حسن نياته فى مقدمة أول طبعة لكتابه هذا،

حيث يؤكد : «أن المسافر يشبه المؤرخ: واجبه يحتم عليه أن يقص بأمانة ما شاهده وما سمعه، لن يسمح له أن يؤلف شيئا ، ولا أن يتجاهل شيئا، وأيا كانت أراؤه الخاصة ، فلا يجب أن تعميه مشاعره لدرجة أن يسكت عن الحق أو يشوهه. » .

وبهذه الثقة فى موضوعيته التى لا تشوبها أية نيات خاصة، يبدأ وصف الطريق الذى سلكه من مدينة بوردو إلى أورشليم . فمن الطبيعى أن نراه إذا ما قابل بعض الصبية من البدو يلعبون وكأنهم جند فرنسيون ، قد تأثر لدرجة البكاء كما يحكى : «وحتى لا أنسى شيئا، صرخت نحوهم، الله يريد هذا ! الله يريد هذا !، كما كان يفعل زملاء جوافرا .. والقديس لويس» . نحمد الله أنه لم يذهب فى تقليده للصليبيين ، وهم يطلقون هذه الصيحة ، الى حد قتل هؤلاء الأطفال كما فعل الأوائل ! .

★★★

وعندما يصل إلى مصر، يرفض إعادة وصفها مرة أخرى: «أنا نفسى قلت ، فى مكان آخر ، ما كان علىّ أن أقوله عن مصر . فكتاب «الشهداء» ، حيث تحدثت عن هذه الأرض العتيقة ، كامل بالنسبة لما يخص العصور القديمة». وعلى طريقة رحالة ذلك العصر، فهو لا يرى، حيث يذهب، إلا آثار الماضى وما قيل عنها فى الكتب القديمة، كما تحتم

عليه ثقافته الكلاسيكية. كان أيضا يراها «كمهد العلوم، وأم الأديان والقوانين » . وهو يثبت بهذه الكلمات أنه – وسنه تحتم عليه هذا – كان يرى مصر كما كان يراها فلاسفة التنوير فى القرن الثامن عشر، ومؤلفو روايات الخيال العلمى فى ذلك القرن.

والأمر يهمنا عندما يبدأ فى سرد تفاصيل مروره عليها، وما يراه رأى العين. إنه يذهب إلى القاهرة ليرى النيل والأهرامات ولكنه لم ير الأهرامات بالفعل إلا من بعيد لضيق الوقت ، مما يدل على سرعة مروره، وبالتالى ، على عدم تعمقه فى تحليل انطباعاته، فهو لم يمكث فى القاهرة أكثر من يومين ، وعندما ركب مثلا مركبا ليذهب به من رشيد إلى القاهرة ، يقول : « وعندئذ كانت أول رؤية لى لهذه الدلتا الرائعة ، حيث لا ينقص إلا حكومة حرة وشعب سعيد. ولكن ما قيمة بلد جميل دون استقلال، إن اصفى السماوات لتصبح بشعة إذا ما قيدتها الأغلال بالأرض .

لم أجد هنا ما يوازى روعة هذه السهول إلا ذكريات مجد وطنى : كنت أرى بقايا صروح الحضارة الجديدة التى جلبتها عبقرية فرنسا إلى ضفاف النيل : كنت فى الوقت نفسه أذكر أن حراب فرساننا و سناكى جنودنا ، كانت قد عكست أشعة هذه الشمس الساطعة مرتين، مع الفارق طبعا، لأن فرساننا الذين هزموا يوم المنصورة، انتقم لهم جنودنا فى معركة الأهرامات » .

نلاحظ أنه على الرغم من تأكيده رؤية أثار العبقرية الفرنسية على ضفاف النيل، إلا أنه لم يحدد أثرا واحدا ، فجاء تأكيده مبهما حتى يحق لنا أن نظنه خياليا.

ويبدو أن هذا ، بالضبط ما فكر فيه الدارس الذى تولى تحقيق هذا النص الذى أعيد نشره أخيرا فجاءت فى أسفل الصفحة المذكورة حاشية تحاول إسعاف النص الخيالى، لتؤكد : «يرى فى مصر حتى الآن الكثير من المصانع التى أقامها الفرنسيون» ، ويتأكد مرة أخرى عدم الدقة ، بل الافتقار إلى تحديد صرح واحد أو مصنع واحد يعرف باسمه أو بموقعه . ويبقى للقارىء المتعجل - الواثق من صحة ما يقرؤه، كما يحدث عادة - الانطباع بوجود هذه المصانع، حتى يومنا هذا ، دون الحاجة إلى أى تمحيص أو مراجعة .

وبعد وصف مطول للباس الجند الألبانيين ، ومعاملتهم للفلاحين، ووصف رحلة شاتوبريان، على مركب يسبح به لمدة سبعة أيام من رشيد إلى القاهرة ، وذكر ما كتبه الإغريق عن عظمة ملوك مصر الفرعونية ، نصل أخيرا إلى صفحة لابد من ترجمتها كاملة لما كان لها من أهمية فى خلق أسطورة الفرنسيين فى مصر، وأسطورة الحملة على الأخص.

و «شاتوبريان» الذى يدعى التواضع كعادته، لا يذهب إلا إلى القنصل الفرنسى كلما نزل فى مدينة ، حتى تؤدى له فروض العظمة التى تتطلبها سمعته الأدبية، ومركزه كنبيل عريق ودبلوماسى سابق،

فعندما وصل إلى القاهرة – والكلمة لكاتبنا – أرسل القنصل الفرنسى «خمسة مماليك فرنسيين حتى يرافقونا فى تجوالنا» .

«كان هؤلاء المماليك في خدمة الباشا . فالجيوش الكبيرة تترك دائما وراءها بعض المتأخرين : وهكذا فقد جيشنا مائتى جندى، أو ثلاثمائة ، بقوا مبعثرين على أرض مصر. انضم هؤلاء الجند الى مختلف البكوات، وسرعان ما عرفوا بشجاعتهم وكان الجميع يؤكد أن هؤلاء الهاربين من الخدمة لو أنهم اتحدوا ولو أنهم عينوا بك فرنسيا من بينهم لكانوا استولوا على البلد لولا التفرقة التى أبعدت بعضهم عن بعض. ومع الأسف الشديد لم يكن لهم قائد ، ومات أغلبهم وهم فى خدمة الأسياد الذين اختاروهم » .

نتوقف هنا لحظة لنعلق على كلمة غريبة، هى «كلمة الجميع» وقد اخترناها ترجمة للتعبير الفرنسى المستعمل وهو العالم كله . وعلينا أن نلاحظ أن «شاتوبريان» لم يبق فى القاهرة إلا يومين اثنين فقط ، وأنه لم يقابل إلا القنصل الفرنسى وهؤلاء المماليك الخمسة ، وحدث له ما يحدث لكل الفرنسيين الذين لا يتحدثون العربية ولا يفهمونها ، من ثم تكون مصادر معلوماتهم كلها من جانب واحد. أيا كان فباقى الصفحة يلقى ضوءا أكثر فجاجة على العقلية التى يتعامل بها رحالتنا مع مصر ما بعد الحملة .

نعود الى كلامه : «عندما كنت في القاهرة ، كان محمد علي باشا يبكي وفاة أحد هؤلاء الشجعان . كان هذا الجندى فى أول أمره ضارب طبل صغيرا فى أحد فيالقنا ، وسقط فى أيدى الأتراك بسبب ظروف الحرب وعندما أصبح رجلا، وجد نفسه في صفوف فرق الباشا. لم يكن محمد علي يعرفه بعد ، ولكن عندما رآه يهاجم فيلقا من الأعداء ، صرخ قائلاً : من هذا الرجل؟ لا يمكن أن يكون إلا فرنسيا وبالفعل كان فرنسيا.. ومنذ تلك اللحظة أصبح اثيرا لدى سيده وكان صدى أمجاده حديث الجميع. وقتل هذا الجندى قبل وصولى إلى مصر بقليل فى معركة فقد فيها المماليك الخمسة الآخرون جيادهم» !! ناهيك عن النرجسية الشوفينية التى تتصف بها هذه القصة فسنقابلها كثيرا فى الكتابات التي تتحدث عن الجند الفرنسيين كلها ، ولكن الجملة الأخيرة توضح مصدر الحكاية ، وهم - بالطبع - زملاء الجندى المتوفى الفرنسيون الخمسة، والذين وجدوا فى هذا النبيل الرحالة، سذاجة تسمح لهم بتجسيد خيالاتهم أمام نبيل ما كانوا يحلمون يوما بشرف الحديث معه.. وناهيك عن تفخيم دورهم فى بلد اختاروا أن يبقوا فيه، بدلا من العودة الى فرنسا ، وهم - وباعتراف «شاتوبريان» نفسه - هاربون من خدمة وطنهم.

نصل بعد ذلك مباشرة إلى وصف تفصيلى لهؤلاء المرتزقة المهاجرين، لنعرف من أين جاءوا وكيف يعيشون. ولا يفوت الكاتب أن يؤكد : «كان الباشا يقدر هؤلاء المماليك الخمسة حتى أنه كان يفضلهم على باقي جنده، فقد كانوا هم، دون غيرهم ، يمثلون الجسارة بل يتفوقون فيها على هؤلاء الفرسان المرعبين الذى حطمهم الجيش الفرنسي يوم الأهرامات . إننا فى عصر العجائب، فكأن لكل فرنسى اليوم قدر يحتم عليه القيام بدور خارق، فخمسة جنود من أدنى صفوف جيشنا ، كانوا عام ١٨٠٦، هم تقريبا الأسياد فى القاهرة» .

هكذا كان «شاتوبريان» يرى هؤلاء الجند الهاربين من الخدمة لا لشىء إلا لأنهم فرنسيون ونراه يعجب حتى بمهارتهم فى افساح الطريق لموكبه فى أزقة القاهرة المزدحمة! هكذا كان يرى ، أو بالأصح لا يرى ، حقيقة موازين القوى فى قاهرة ١٨٠٦، فاحتقاره للبلد يجعله يظن أن خمسة جنود من أدنى صفوف الجيش الفرنسى.. يمكن أن يكون لهم هذه المكانة التى يتحدث عنها باقتناع شديد .

ولنا أن نتخيل الانطباع الذى تتركه مثل هذه الأسطر فى نفس القارىء غير الناقد – وكلنا يقرأ بسرعة وبلا تريث ناقد لما يقرأ، خاصة إن كان المؤلف «شاتوبريان» نفسه – هذه الأسطر التى خطها «شاهد أمين» حسب كلمات المقدمة، وإن كان شديد الغرور والشوفينية ، فلقد كان هناك ، ورآهم وتحدث إليهم ...

وأيا كان الأمر، فالوصف الباهر يستمر فى الصفحة التالية : «كان هـؤلاء الملوك المنفيـون (يقصـد الجنود الخمسـة) قـد تبنـوا ، مثـل الإسكندر الأكبر (نلاحظ هذا التفخيم المبالغ فيه) ، تقاليد البلاد التى فتحوها ، فكانوا يرتدون الجلابيب الحريرية والعمائم البيضاء الجميلة، والأسلحة الرائعة، وكان لهم حريم وجوار وجياد من أحسن السلالات، كل هذه الأشياء التى لم يمتلكها آباؤهم فى مقاطعات جاسكونى وبيكاردى من حيث أتوا..» ، لأن هـؤلاء « الملـوك » كانوا فى الواقع من أدنى طبقات الريف الفرنسى ! وسنرى فى حينه كيف رد « جيرار دى نرفال » على هذا الكلام فيما بعد عندما حضر هو أيضا الى القاهرة ، وقابل من تبقى مـن هؤلاء الجند . كيف أجاب على وصف، أو تخيـلات عبقرى الأدب ، ومـؤلف الـروايات الـرومـانسيـة الشهيـرة : « آتـالا » ، « رينيـه » و « الشهداء » .

وشاتوبريان الذى لم يمكث إلا يومين بالقاهرة، ولم يكن قد زارها قبل الحملة ، ومن ثم ، لا يعرف ماذا كانت حقيقة الحياة فيها ، يقول : «إن القاهرة لا تزال تحتفظ بالكثير من آثار مرور الفرنسيين عليها: فالنساء يظهرن أكثر مما كن يفعلن ، وأنت حر فى تجوالك فى أى مكان، والملابس الأوربية التى كانت تسبب الإهانة ، أصبحت تسبب الآن الاحترام . وهناك حديقة صغيرة، لطيفة مزروع بها نخيل ، ولها ممرات

دائرية، فهي متنزه عام : إنها من صنع جنودنا » . أخيرا، وجدنا شيئا ملموسا تركه الجند الفرنسيون ... حديقة صغيرة لطيفة .

إن شوفينيه كاتبنا تجعله يرى بلده في كل مكان، وصلفه يجد غذاءه في كل خيال. إنه يصف مثلا شاطئ النيل قائلا : «النخيل متراص على الشاطيء ، مثل المخارف التي تزين قصور فرنسا. إن الطبيعة يحلو لها أن تذكرنا بأفكار الحضارة ، في البلد الذي ولدت فيه هذه الحضارة حيث يحكم الآن الجهل والبربرية» .. (يقصد الاسلام) .

★★★

وتكتب كلودين جروسير في دراستها عن إسلام الرومانسيين ، أن شاتوبريان، منذ اللحظة الأولي «يضع نفسه في دور المجاهد ويستعمل كل أسلحته في الحرب التي يخوضها من أجل مجد المسيح ومجده الذاتي» .. فهو «يترك وطنه وفي ذهنه صورة واضحة متخيلة عن الشرق الذي سيزوره ولا يسمح له - بالطبع - مروره السريع باليونان والشرق الاوسط أن يعيد النظر في هذه الافتراضات . وسواء كان مدركا أم غير مدرك، فهو يمحو كل مالا يطابق هذه الصورة المسبقة، ويؤكد اراءه المسبقة بهذه الطريقة. مما يدل على إرادة مصرة على تدمير الشرق ، إرادة هدفها الإسلام ، والمكانة التي حظى بها هذا الدين في أدبيات القرن السابق له» (٧٨) (تقصد في القرن الثامن

عشر) . والباحثة تؤكد، بعد ذلك على سيطرة فكرة الحروب الصليبية على «شاتوبريان» .

ولكنها ، على عمق درايتها بشخصية مؤلفنا ، ودراسة نياته ، لم تشك للحظة واحدة فيما قاله عن الآثار التى تركتها الحملة على مصر : «على الرغم من أنه (على حد قولها) .. لم يكـن يوما من المنبهريـن بـ «بونابرت» إلا أنه لم يسعه إلا الفخر بإنجازاته في مصر» ، ومرة أخرى نقرأ عن الانجازات ولا نعرف عنها شيئا .

ويذكرنا هذا الكلام بـ «ديكوت» - الذى سنقرأ دراسته عن أدباء القرن التاسع عشر - فهو أيضا يفخر بهذه الآثار التى «رآها» شاتوبريان ، مؤكدا أنه : «حتى ألد أعداء نابليون من الرحالة الملكيين ، مثل الكونت دى فوربان فى كتابه رحلة إلى المشرق . اعترفوا بالأهمية الخارقة لمرور نابليون على مصر» . ويعلق ديكوت، في عام ١٩٦٧ ، ليؤكد على كلام «شاتوبريان» القائل : إن مرور نابليون على مصر كان «أول شعاع نور اخترق ظلمات الإسلام والبربرية » .

ويلاحظ ديكوت بالفعل أن شاتوبريان إذا ما تحدث عن أمجاد الملحمة التى نسجها نابليون ينسى كل شىء ليذكر أن «هؤلاء الرجال، الذين هبوا لينتزعوا استقلالهم الوطنى من أطماع بونابرت لا يحلمون إلا به ، لأنه هز خيال الشعوب ، من البدو تحت خيامهم حتى التوتون فى عششهم » .

ولا يلاحظ «ديكوت ، أن هذا الكلام الانشائى لا يقدم دليلا واحدا، حتى وإن كان واهيا . أما «البدو تحت خيامهم» . فقد عرفنا أنها جملة من خطبة حماسية لمونج ، وأصبحت من لزوميات ذكر الحملة على مصر فى كل أدبياتها.

نضيف إلى كلام ديكوت أن شاتوبريان قال أيضا إن بونابرت «كبير (...) لانه علم اسمه للشعوب المتوحشة كما علمه للشعوب المتحضرة» ، وهذه «الشعوب المتوحشة» لم تكن طبعا ، بمنظور شاتوبريان ، إلا مصر والشام التى عرفته غازيا : إن مؤلفنا مر على هذه البلاد مسرعا، لأنه كان على موعد غرامى فى أسبانيا، ليؤكد تحليل كولدين جروسير عن تفكيره المسبق الذى لن يغيره شىء، مهما رأى أو سمع، وأمثال ديكوت يصدقونه بإيمان مؤثر فـ «شاتوبريان» مثلا الذى تخيل أن خمسة مماليك فرنسيين كانوا تقريبا أسياد القاهرة ، يحكى كيف رأى بعينيه «الاسكندرية ، حيث تدخل السفن الأمريكية الآن، مثلها مثل السفن التركية، وهذا انقلاب يرجع الى انتصار اسلحتنا» . وإذا كان أى قارىء يعرف، من جهة، أن الفرنسين قد خرجوا مهزومين من مصر ، ويعرف ، من جهة أخرى العلاقات السابقة على الحملة بين مصر وفرنسا ، والتعاملات التجارية مع أوربا فى القرن الثامن عشر ، فيظهر له بداهة أن شاتوبريان لم يكن يعرف شيئا ، ومن ثم توهم أن حملة

بونابرت هى التى فتحت الميناء للسفن الاوربية . لقد كان يجهل كل شيء، فمثلا أن فرنسا كانت تشترى قمحا من مصر جعلها تظن أن البلد ثرى لدرجة إطعام أهله وجيوشها معا ، وكان ذلك من أسباب ارسال حملة عسكرية عليها ، بل وفشلها أيضا. ولكن هذا الجهل بالأمور لم بمنع «شاتوبريان» من الزهو بنتائج الحملة ، حتى وإن كانت من نسج خياله.

«شاتوبريان» الذى كان لا يغفر لبونابرت هزائمه التى جعلت العدو يحتل باريس مرتين، اعترف على الاقل أن «لنا دائما كيلين ومعيارين : إننا نوافق رجلا، من أجل فكرة، أو نظام أو مصلحة ، على ما نلومه عند رجل آخر، من أجل فكرة أخرى ونظام آخر، ومصلحة أخرى » (٧٩) .. وطالما اتهم «شاتوبريان» الطاغية بونابرت باختلاق الأمجاد . ومع ذلك فالحديث عند شاتوبريان إذا ما وصل إلي مصر ، نراه يأخذ مجرى آخر، مثله فى ذلك مثل الكثيرين ممن سنقرأ لهم بعد الآن .

يعد كتاب «المسار من باريس الى أورشليم» . من أهم كتب الرحلة فى بداية القرن التاسع عشر ، إن لم يكن أولها، بسبب تاريخ نشره ، سنة ١٨١١.

كان شاتوبريان أول هؤلاء الرحالة الرومانتيكيين الذين جذبهم بعد ذلك سحر تلك البلاد المجهولة الغريبة التى يحلمون بها، بل ويحلمون فيها . فكانت هذه الرؤية الجديدة التى يتخللها الكثير من الخيالات

فأكسبت الأدب أبعادا شاعرية لم يعرفها من قبل. وقد تكون لوحات الفنانين الشهيرة عن الشرق، أجمل ما أنتجته هذه الموجه من الاغتراب جنوب البحر الابيض.

ولكن «شاتوبريان» في رحلته لا يرى في كل موقع يزوره ، أو يمر عليه مرور الكرام إلا ذكريات ثقافته الكلاسيكية وما قاله الإغريق والرومان عن هذه المنطقة وما دار فيها من أحداث في الزمن السحيق . إنها رحلة مكتبية أكثر منها رحلة من ينظر الى واقع مختلف يريد فهمه. وإن نظر - كما فعل في مصر - فهو لا يرى إلا مايريده أن يكون . وقد أكدت شهرة الكتاب خيالات المجاهد الصليبي وأكاذيبه ، بل وأكدت أوهام هذا الشوفيني المتعنت وحولتها الى مسلمات رددها من بعده الكثيرون وكان أشهرهم كما سنرى ، الشاعر فيكتور هوجو.

المفروض أن التفخيم الزائد يجعل أى قارىء منطقي يشك في صحة ما يقال خاصة أن الكاتب ليس مجرد رحالة يسرد ما يراه فقط، ولكنه أيضا مؤلف فنان ذو خيال ، سبق أن بهر قراء عصره ؛ وكان «شاتوبريان» معروفا بجنون العظمة حتى أثناء حياته، فمن الغريب أن الدارسين الفرنسيين الذين يعرفون ذلك حق المعرفة قد وجدوا في هذه الصفحات تأكيدا لما اراده دائما بونابرت نفسه وهو تحويل كل ما يتعلق به الى أسطورة .. فكان شاتوبريان أول من أرسى حجر

الأسطورة المثيرة للحملة الحضارية على مصر، فى كتابه « المسار من باريس إلى أورشليم » .

لقد أكد كاتبنا بعد ذلك بسنين الأسطورة السوداء لبونابرت الطاغية، سفاح الحريات والأبرياء، خاصة فى «مذكرات ما وراء القبر» . وسنراه يتراجع عن بعض ما قاله عن الحملة ، ولكن بعد أن أكد سنة ١٨١١ ، أسطورة أثارها ، فسبق السيف العذل .

الميموريال

يقال إن هجوم «شاتوبريان» الشرس على نابليون المهزوم فى عام ١٨١٥ ، تسبب فى رد فعل مناصر للإمبراطور المنفى مما ساعد على خلق أسطورة نابليون المنتصر لمجد فرنسا . ويقال أيضا إن نشر قصيدة لـ «لامرتين» فى عام ١٨٢٣ يمدح فيها رجعية بونابرت، لأنه استطاع أن يوقف التجاوزات الثورية عند توليه السلطة ، يقال إن نشر هذه الفكرة كان سببا لخلق الأسطورة فى الاوساط الادبية. إلا أننا لا نظن أنهما كانا السبب الرئيسى فى اكتساح الاسطورة الجديدة ، وانتشارها بطريقة واسعة ، خاصة بعد وفاة نابليون عام ١٨٢١ . فالأسباب الأخرى كثيرة .

عندما سافر بونابرت إلى مصر كان بطل الحملة على إيطاليا ؛ وعندما عاد من مصر، أصبح بطل الحملة على ايطاليا وبطل الحملة على مصر. ثم استولى على الحكم سنة ١٧٩٩، وأدار دفة الأمور الداخلية

بحكمة أعادت الى البلد سكينة لم تعرفها عبر عشر سنوات صاخبة ، وحلت إدارته المركزية المحكمة ، إلى حد كبير تلك الأزمة الاقتصادية السرمدية في ذلك العصر. ولكن الحملة على مصر كانت قد أثارت غضب تركيا التى انضمت الى انجلترا وروسيا ، فكان ثانى التحالفات ضد فرنسا ، وكانت الحرب .

وكتاب أرتور ليفى «نابليون والسلام» ، الذى نشر فى منتصف القرن العشرين من تلك النوعية التي لا ترى فى الرجل عيبا يحاسب عليه . فالمؤرخ يدافع عن بطلة دفاعا لا يخلو من سذاجة عندما يؤكد مثلا أن نابليون كان رجل سلام ، وأن الحرب كانت دائما تفرض عليه. وأرتور ليفى يتجاهل – لأنه منساق وراء مشاعره الجياشه – أن الحرب تفرض أحيانا كحل لا مناص منه للدفاع عن حقوق اغتصبت وما أكثر ما اغتصب ، نابليون من البلاد الأخرى .

أيا كان الأمر فالقنصل الأول الجنرال بونابرت ، الامبراطور الذى توج نفسه سنة ١٨٠٤ لم يكف عن الحرب، ولا عن الانتصارات إلى أن بدأ نجمه في الأفول حوالى عام ١٨٠٧ ، حتى انتهى به الأمر إلى هزيمة «واترلو» سنة ١٨١٥ ، فكان نفيه فى جزيرة سانت هيلانة وهو يحاول الوصول الى الولايات المتحدة ليعيش فيها بعيدا عن السلطة ومات سنة ١٨٢١ ، فى تلك الجزيرة التى شبهت بالصخرة التى حط عليها النسر الجريح .

«الجنرال بونابرت يهدى قائد الإسكندرية العسكرى سيفه»
(وهذا الزيف بعينه فالإسكندرية لم يكن لها قائد عسكرى مصرى) .

وفى تلك الأثناء كانت الملكية قد عادت إلى فرنسا «فى شاحنات عدو» احتلها بعد أن هزم نابليون.

وكانت الحقيقة التى أصبحت مثلا شهيرا «عاد البوربون ملوك فرنسا ولم ينسوا شيئا ، ولم يتعلموا شيئا » : وكان من بين أخطائهم العديدة تسريح جيش نابليون فعاد الجنود الى موطنهم الأصلى فى الريف. وهم يبكون أيام المجد التى عاشوها مع إله اسمه الامبراطور . فبدأت الأساطير تنساب على ألسنة هؤلاء الجنود العاطلين الفقراء المنتشرين فى كل مكان ، حتى أصبحت سيرة الامبراطور المنفى صورة اسطورية تحكى فى كل انحاء فرنسا . ومما ساعد على انتشار تلك الاساطير وتصديقها أن هؤلاء الجنود كانوا يعتبرون شهود عيان عاشوا، بالفعل ، أحداث الأسطورة التى يروون فيها كيف كان هذا الامبراطور المؤله ينتصر، وكيف كان يعامل جنده ، وكيف اكتسحوا العالم تحت امرته .

وكان هذا على المستوى الشعبى ، الذى عبر عنه بلزاك احسن تعبير فى روايته طبيب الارياف كما أسلفنا .

أما على مستوى علية القوم والمثقفين ، فقد انفجر غضب النبلاء ، الذين أصبحت لهم اليد الطولى عند عودتهم من المنفى مع الملك معبرين عن حقد وكراهية حولت صورة نابليون «المغتصب» ، (للعرش) إلى غول،

قاتل، فاسق الى آخر قاموس الرذائل ، بعد نعته بكل الشتائم . وطبعا، أثار عنف هذا الهجوم رد فعل عكسي ، كما يحدث عادة ، خاصة أن الشعب نسي ، بسبب نفى نابليون وإذلاله ، ما كان يقاسيه أثناء حكمه . ورأى العامة أن كل هذا الهجوم افتراء على اسم الرجل الذى وهب فرنسا مجدا لم تكن تحلم به عندما اذلت كل ملوك اوربا ، بل واستولت على عروشهم ، واستباحت بلادهم ، فأصبحت فرنسا هي المركز الذى تعيش تحت إمرته أوربا كلها . وكان الشباب يقارن بين مايسمعه من آبائه عن أيام المجد الذى ولى وحل محله حكم ملكى لا طعم له ولا معنى . فكان رد الفعل المنتظر ، وهو الأسطورة الايجابية التى واجهت الاسطورة السلبية ، وحدث انفجار فنى عبر فيه الكتاب والشعراء عن مشاعر الاعجاب والاعتزاز .

وكان الشعور بالشفقة الممزوج بالانبهار لما يعانيه الامبراطور ، ذلك « النسر المنفى على صخرة استوائية» ، قد انساهم ما عرفته فرنسا تحت حكمه من كبت للحريات، وما عانوه فى ظل دولة بوليسية ، وعبادة لشخص نابليون وعائلته . وبدأت سيول من الكتب التى تحكى عن حياته فى المنفى تغرق الأسواق ويتخاطفها القراء، الى أن ظهر سنة ١٨٢٣ - أى بعد سنتين من وفاته - كتاب «الميموريال» . هذا الكتاب الذى يحكى على لسان «لاس كاز» الصديق المرافق لنابليون فى منفاه ، كل ما يفعله

ويقوله القائد المخلوع : وقد نجح هذا الكتاب نجاحا منقطع النظير: كان له تأثير لا يتخيله إنسان على شباب الجيل الجديد، فأعيد نشره أربع مرات. وفى تلك الأحاديث التى تبادلها نابليون مع رفيق المنفى - وهو يعرف أن «لاس كاز» يدون كل كلمة ينطق بها - شرح سياساته وقراراته السابقة كلها وأجاب عن كل ما يتهمه به أعداؤه فظهر بصورة المدافع عن الحرية ، ممثل الجمهورية فى أسمى مبادئها ، حامى العروش من غوغاء الثوار الفوضويين، نصير القوميات عدو الطغاة صديق الشعوب.. كما تحدث عن حروبه وخططه العسكرية وانتصاراته . واعتذر حتى عن اخطائه ، وكان أكثرها فداحة، بل السبب الذى أوصله إلى الهزيمة النهائية ، غزوه لأسبانيا . ومحت هذه الصورة الرائعة واقعه السابق كله .

جاء «الميموريال» سنة ١٨٢٢ من بعد «المسار من باريس إلى اورشليم» الذى كان قد نشر سنة ١٨١١ ، وقال فيه نابليون بالطبع ما أراد أن يقال عنه وعن حملاته وأمجاده التاريخية الأسطورية : كانت أكثرها غموضا وأسطورية الحملة على مصر. ونظرا للنجاح الساحق الذى حققه هذا الكتاب، والذى فاق نجاح كتاب رحلات شاتو بريان ، علينا أن نتعرف على ما قاله «نابليون» عن الحملة على لسان « لاس كاز » ليصبح ما يرويه هو الحقيقة الوحيدة التى يؤمن بها الجميع .

★★★

كان « لاس كاز » من النبلاء المهاجرين الذين عفا عنهم بونابرت ، فعملوا له . وكان من أعضاء مجلس الدولة الذى ساعد نابليون بونابرت فى إدارته المركزية المحكمة على كل شئون الدولة .

وكانت تربية «لاس كاز» تؤهله لأن يكون - بعد هزيمة نابليون - من الأوفياء القلائل له في محنته، فقد تربى كنبيل يقدس الملكية ، ويضحى بكل شيء فى سبيل شخص الملك .

انبهر لاس كاز بنابليون - كما نرى ذلك واضحا في كتابه «الميموريال» الذى نشره بعد وفاة الإمبراطور - انبهارا يصل إلى حد عبادة المؤمن لإلهه . وفى محنة نابليون المهزوم ، وبعد أن انفض عنه كل قريب ومستفيد ، كانت تلك المشاعر تعبر عن نبل فى الأخلاق ووفاء لم يجدهما نابليون عندما اصبح طريدا تحاربه دول اوربا وملوكها كلهم . ولذا ، فقد صدق «لاس كاز» فى كل كلمة قال عن لسان سيده وهو يقدم لنا، بسذاجة شديدة وبقلم بارع الدليل على أن نابليون لم يكن غافلا عن مصير هذه المذكرات التى «يمليها» بنفسه فهو يحكى مثلا كيف كان الامبراطور يتحدث ثم يصحح مرة ومرتين وثلاث ما كان «لاس كاز» قد دونه بعد حديثه مع سيده (٨٠) !

وما قيل هنا عن مصر يعتبر ثانويا فهناك مذكرات أخرى أملاها نابليون أكثر استفاضة فى هذا الموضوع، ولكن اهتمامنا ينصب أساسا على الميموريال، بسبب النجاح الذى لاقته تلك المذكرات بالذات عند نشرها ، على عكس ما حدث للمذكرات الأخرى ولا يزال انتشار الميموريال واسعا وسط الأجيال التى استمرت فى قراءته ، فى أحدث طبعاته ، على الرغم من مرور حوالى قرنين من الزمن على ظهوره لأول مرة.

وما يخص مصر في هذا المجلد الضخم، له شقان ، الشق الأول : حديث نابليون عن الحملة وما كان ينبغى أن يحدث فى مصر لو لم يتسبب كليبر ومينو فى خسارتها . والشق الثانى : رد نابليون على الاتهامات التى وجهت اليه، وكان أهمها وأشدها عنفا، ما كان من إصداره أمر تسميم جنوده المرضى بالطاعون . ويقول «لاس كاز» فى هذا الشأن : «جنرال ، بطل ، رجل عظيم ، احترمه القدر كما احترمه الناس ، يثير فضول ثلاث قارات فى العالم، يفرض الاحترام حتى على أعدائه، نراه فجأة، متهما بجريمة معروف أنها شنعاء، لامثيل لها فى التاريخ، متهما بعمل غير إنسانى، بشع، قاس، خاصة وهذا هو الأهم، أن مثل هذا العمل لا طائل من ورائه» . لقد اخترنا هذه الأسطر من الصفحات الخمس التى تدحض بكل ثقة ماقيل عن ذلك الحادث كله، أو

تلك الإشاعة الكاذبة ليتعرف القارىء على الأسلوب الذى يتحدث به «لاس كاز» عن نابليون. ولايرى الكاتب أية غضاضة فى تقديم الدليل القاطع، والساذج على كذب هذا الافتراء المغرض الذى يتهم نابليون بقتل جنده . وإليكم الدليل حسب قوله: «إليكم ماعرفته من أعلى مصدر كان يمكن أن يؤكد الأمر، وهو قول نابليون نفسه» . فالأمر واضح: إن نابليون المتهم سيكون هو نفسه القاضي فى تلك المسألة، لأن ما يقوله كله مثل قول الأنبياء لايمكن الشك فى صحته .

وأيا كان الأمر ، فليس ما يهمنا مافعله بونابرت فى جنده ، لكن ماقاله نابليون عن حملته على مصر لتصبح أيضا «كلمة الحق» . ولن نستطيع تقديم كل ماقيل، ولذا ، لن نترجم هنا إلا مايبدو لنا أكثر دلالة بالنسبة لما أصبح ـ بعد نشر تلك المذكرات ـ الحقيقة الوحيدة التى لايشك فى صحتها فى نظر الأجيال المتتالية كلها. فـ «لاس كاز» لاينقل إلا عن لسان نابليون ، خاصة عندما يقول ، وكأنه يتحدث مع قرائه ولايكتب لهم: «أتعرف! إن ماكان جديرا بالإعجاب فى الحملة على إيطاليا، سنجده ، كله، مرة أخرى فى مصر . إن من يشاهد ويفكر سيجد أن الأمر كان على مستوى أعلى ، بسبب الصعوبات المختلفة التى أضافت إلى هذه الحملة صفة خاصة، وكانت تتطلب من قائدها وسائل أخرى ، واختراعات جديدة ، فالأمر هنا مختلف كلية : المناخ ،

الأرض، السكان، الدين، التقاليد، طريقة المحاربة.. إلخ .. إلخ» . ونظرا لأن هزيمة بونابرت أمام حصار عكا كانت أولى الهزائم فى تاريخ الجنرال العبقرى، ولأنها كانت فى تاريخه الحافل بالانتصارات كالخطيئة الأولى التى لاتغتفر، وكان أعداؤه كثيرا مايلمحون إليها، نجد، لذلك ، حديثا هنا عن عكا يحاول استغلال شهرتها، فهو يحملها - (بالمرة!) - سبب فشل الحملة كلها وكأنها السبب الوحيدة. فنراه يسرد تاريخ الحملة فى نقاط لايهمنا منها إلا مايلى : (...)

النقطة الأولى : «أن امتلاك مصر دبر بحكمة ونفذ بمهارة. ولو أن عكا استسلمت للجيش الفرنسى، لحدث انقلاب كبير فى الشرق، فالقائد العام كان سينشىء إمبراطورية هناك، وكان لمصير فرنسا شأن آخر».

النقطة الثانية: «أن الجيش الفرنسى لم يتكبد أية خسائر تقريبا، عند عودته من الحملة على سوريا، فقد كان الجيش فى حالة رائعة، وفى ثراء مدهش» .

النقطة الثالثة: «أن سفر القائد العام (إلى فرنسا) كان نتيجة خطة رائعة ، وفى منتهى النبل . ولابد أن نضحك على غباء كل من نظر إلى هذا السفر على أنه هروب أو تملص من المسئولية».

النقطة الرابعة: «سقط كليبر ضحية تطرف الإسلام المتعنت، فما من شىء يبرر ، بأى شكل كان، الاتهام الباطل الذى يعزو هذه المصيبة لسياسة سلفه (بونابرت) أو لمؤامرات من تبعه فى الحكم (مينو) » .

النقطة الخامسة: «من شبه المؤكد، ونقولها بالدليل القاطع، أن مصر كانت ستظل مقاطعة فرنسية إلى الأبد، لو أن من دافع عنها كان أى شخص أخر غير مينو إن الأخطاء الجسيمة التى ارتكبها هذا الأخير أوصلته إلى نهايته...».

« وقال الإمبراطور إن الجيش الذى قاده فى هذه الحملة ، كان آخر جيش يمكن أن يتولى مثل هذه المهمة، (كان جيش إيطاليا) : ومن الصعب وصف حالة الاشمئزاز ، والضيق، والحزن، واليأس التى أصابت هذا الجيش ، في الفترات الأولى من وصوله إلى مصر» . ولكن القائد العام عرف كيف يرفع من روحهم القتالية ويشجعهم على الاستمرار فى هدفهم البطولى. وبعد هذا الغزل النرجسى الذى يستمر لصفحات، نصل إلى المهم، وهو علاقة بونابرت بالمصريين..

ويعرف القارىء العربى للمرة الأولى أن «سلطان كبير» كما كان المصريون يسمون بونابرت، كان يعنى «أبا النار»...! وكان «أبو النار» هذا «قد أصبح محبوبا جدا. فقد عرف كيف يجعلهم يكنون لشخصه احتراما خاصا وأينما كان ظهوره فالجميع يقف فى حضوره، ولم يكن أحد غيره يحظى بمثل هذه التحية. كانت المجاملات المستمرة التى أنعم بها على المشايخ، والمهارة التى عرف كيف يكسب بها ودهم، قد جعلت منه الملك الحقيقى على مصر، وأنقذت حياته أكثر من مرة، ولولا

إنذاراتهم له، لذهب ضحية المعركة المقدسة (الجهاد) مثل كليبر ؛ فقد كان كليبر - على عكس ماكان يفعل القائد العام - قد أمر بضرب أحد المشايخ فكرهوه، ومات» .

نلاحظ أنه بهذا الكلام، قد ألقي حمل فشل الحملة على عاتق «مينو» أولا، وثانيا، جعل من «كليبر» الصورة الكريهة - سوداء العروس - التى تبرز مهارته وشعبيته ؛ ناهيك عن جهله بالتقاليد الشرقية، ولو أننا نفهم، إن صدق قوله، أن المشايخ لم يكونوا يقفون لأحد من الفرنسيين غيره!، ولم يقل - ولن يقول - إن ثورة عارمة قامت فى عهده، مثلما قامت ثورة أخرى فى عهد «كليبر» .

والقصص التى يحكيها بعد ذلك، عما حدث أثناء وجوده فى مصر، ترمى كلها إلى التوصل لنتيجة واحدة. ولذا اخترنا القصة التالية كأحسن مثل لما يهدف إليه الحاكي: «وفى مرة أخرى دخل العرب (البدو) الذين كانوا يعادوننا، قرية متاخمة للحدود، وقتلوا فلاحا بائسا. فثار السلطان الكبير ، وأمر بتتبع القبيلة فى الصحراء وإبادتها وهو يقسم أن ينتقم منهم. حدث هذا أمام المشايخ الكبار، فضحك أحدهم من ثورته ومن إصراره قائلا: سلطان كبير إنك تلعب هنا لعبة خاطئة: لا تغضب هؤلاء القوم، فهم كفيلون بأن يردوا لك شرك عشرة أضعافه. ولم كل هذه الضوضاء؟ ألأنهم قتلوا بائسا؟ أكان قريبا لك (ابن عمك) ؟

فرد عليه نابليون على الفور: إنه أكثر من ذلك. إن كل من أحكمهم أولادى، إن السلطة لم تعط لى إلا لأكون كفيل أمنهم : فانحنى المشايخ كلهم عند سماع هذه الكلمات قائلين: آه! ما أجمل ماقلت! لقد تكلمت مثل النبى».

« وقرار الجامع الكبير فى القاهرة ، لصالح الجيش الفرنسى تحفة تشهد على براعة القائد العام : لقد جعل مجلس كبار المشايخ يدلى بقرار علنى، يعطى المسلمين الحق فى طاعة الجنرال الفرنسى ، ودفع الجزية له . إنه المثل الأول والوحيد لمثل هذا القرار، فمنذ «صدور» القرآن ، لم يحدث مثل هذا الأمر، لأن القرآن يحرم على المسلمين طاعة الكفرة: والتفاصيل شيقة، وستجدها فى تأريخ الحملات على مصر» .

وبعد هذا الكلام «الجميل» مباشرة يبرر نابليون للمرة العاشرة - كما سبق أن فعل فى مؤلفات أخرى - هزيمته أمام عكا، يبررها بوجود زميل سابق له كان من بين المرتزقة الفرنسيين الذين أرسلهم السلطان العثمانى لمؤازرة جزار باشا فى دفاعه المستميت عن قلعته. فالفشل على يد ضابط فرنسى يكره نابليون لأسباب شخصية، أخف وطأة على سمعة نابليون، العبقرية العسكرية الفذة من خبر هزيمته على يد أتراك مسلمين. ولم تكن هذه الذكرى مجرد ذكرى هزيمة حصار، بقدر

ماكانت أول هزيمة لبونابرت، عرفتها فرنسا كلها، وتسببت حسب تحليلات نابليون في فشل «المشروع الشرقي» كله.

ولكن ذكريات الحملة على مصر كانت أكبر وأزهى من أن تظلمها هزيمة رجع منها الجيش «دون خسائر تذكر» كما سبق أن قرأنا عن لسان نابليون، فهناك مثلا كيف وصلته ، وفى الحقبة نفسها، «رسائل من روما ورسائل أخرى من مكة، فالبابا يناديه بولدى العزيز جدا، والشريف يدعوه حامى الكعبة المقدسة» . وفى تلك الاثناء، كان القائد العام يشارك جنده فى متاعبهم وأزماتهم. ولذا كان الجند يضحون بحياتهم لإنقاذه من القنابل المصوبة نحوه. وما العجب فى ذلك؟ «كان الجيش الفرنسي قد اكتسب سمعة رائعة فى مصر، وكان يستحقها، لقد شتت هذا الجيش، المماليك المشهورين، وهم أعنف فرقة محاربة فى الشرق، وجعلهم ينتفضون خوفا منه» (٨١) . ولذا فهو يرفض ماقيل عن ضحايا هذه الحملة ، فهم أقل بكثير مما قاله المغرضون. ويثبت «لاس كاز» أن بونابرت فى مصر كان أعظم من قيصر ومن الإسكندر الأكبر. ولذا فسفره المفاجىء إلى فرنسا لم يكن إلا من أجل إنقاذها. وقد تم ذلك بالفعل أما عن الجيش الذى تركه، فما كان له أن يترك مصر أيا كانت الظروف، وموت «كليبر» هو الذى سبب المأساة. ويبدو لنا أن ذاكرة نابليون قد خانته أيضا عند هذه النقطة، إذ يعرف الجميع أنه هو

الذى أصر على تعيين «مينو» في هذا المنصب بعد وفاة «كليبر» مما تسبب فى أستياء شديد لدى ضباط الحملة.

وعلينا أن نستمر فى قراءة ما أملاه نابليون على مرافقه الوفى ، فنابليون يحمل « كليبر » المتوفى مسئولية هجوم الإنجليز الأخير على جيش « مينو » ، ويتفوق على نفسه عندما ينهى هذه الصفحة بإغفال دور « ديسى » فى معركة « مارنجو » عندما أنقذ الجنرال بونابرت من هزيمة ماحقة.. لأن « ديسى » أيضا كان قد توفى. المعروف أن كلا من «كليبر» و «ديسى» كانا معه فى مصر ، وأنهما أبليا بلاء حسنا، بل يبدو أنه كان بلاء أكبر مما يحتمله غرور نابليون ونرجسيته ، حتى بعد مرور خمسة عشر عاما على الأحداث فى مصر. ولكن المهم هو أن يظهر نابليون بصورة القوة الخارقة التى لاتهزم أبد، وإن هزم ، فيكون ذلك بسبب أخطاء الأقزام الذين يحيطون به ، وإن انتصر، فبفضل عبقريته هو وحده ودون أية مساعدة خارجية.

ومن أعجب مايراه القارىء فى هذه المذكرات التى أملاها نابليون على رفيق المنفى ، الأحلام التى تبدأ بحرف « لو » : ماذا كان سيحدث « لو » أنه انتصر فى اقتحام عكا مثلا ؟ : « كان وجه العالم سيتغير. لو أن عكا فتحت ، لطار الجيش الفرنسى إلى دمشق ، ثم إلى حلب ، وفى لمح البصر، كانت جيوشنا ستصل إلى نهر

الفرات : كان مسيحيو سوريا ، والدروز ، ومسيحيو أرمينيا سينضمون إلى جيشنا، كانت الشعوب ستهتز (...) ، كنت سأصل إلى القسطنطينية والهند، كنت سأغير وجه العالم» (٨٢) ! والواقع أنه ـ والحق يقال ـ لم يخص الشرق وحده بأحلام عظمته وجبروته، فالعالم كله كان سينعم ، بلدا بعد بلد، بما كان سيتفضل عليه من نعم ، « لو » أن أعداءه كانوا أمهلوه الوقت ، لو أنه كان انتصر على انجلترا... لو... لو...

نراه يشرح ماذا كان سيحدث لو أنه استولى على الشرق، فهو يرى أنه «كان سيتحول إلى دين الإسلام هو وجيشه ليوطد سيطرته على إمبراطورية الشرق». ثم يحلم مرة أخرى «بغزو الهند كما غزونا مصر» دون أن يذكر مرة واحدة، أن الحملة لم تحقق هدفا واحدا من الأهداف الأساسية التي قامت لأجلها، ولكننا نراه يعتبر حملته على «سان ـ دومنج» خطأ فادحا، ويعزو فشلها إلى قائدها طبعا، لأنه لم يتبع «حرفيا» الإرشادات التي أمره بها... وقد مات ذلك القائد أيضا هناك، وسط هزيمته.

ثم ، تمر الصفحات والأيام الرتيبة في منفى «سانت ـ هيلانة»... ومرة أخرى ، يعود « نابليون » إلى ما أسماه مؤرخ معروف «حلم لم يتحقق » يعود إلى الحلم المهزوم ، حلم السيطرة على مصر :

« لـو أنني تسيدت على البحـار، لأصبحت سيد الشرق ، والأمـر كـان أكثـر مـن ممكـن ، لـولا غباء بعض البحـارة ، أو سـوء تصرفهـم » .

« عندما سافر فولنيه إلى مصر ، قبل الثورة، قال إن مصر لن تحتل إلا بعد ثلاث حروب كبيرة : حرب ضد انجلترا ، وحرب ضد السلطان، وحـرب ضـد الأهالى . والحـرب الأخيرة كانت تبدو له صعبة وبشعة . لقد أخطـأ فولنيـه كليـة فـى تقديره بالنسبة للحـرب الثالثـة ، لأنها لـم تمثل شيئـا بالنسبـة لنا . لقـد وصلنا بالفعـل ، وبسـرعة فـائقـة ، إلى جعل الأهالى أصدقاء لنا ، وأصبحت قضيتنا هـى قضيتهم » .

«إن حفنة من الفرنسيين كانت كافية لفتح هذا البلد الجميل، وكان عليهم ألا يفقدوه أبدا! لقد أنجزنا فيه معجزات فى الحرب والسياسة! إن قضيتنا لم تكن لها علاقة بالحروب الصليبية القديمة: كان الصليبيون لاحصر لهم، وكان التطرف الدينى وحده هو الذى يحركهم، أما جيشى فكان العكس من ذلك صغيرا وكان الجند غير متحمسين بالمرة لمهمتهم (...) ولكنى استطعت أن أوفق بينهم والبلد، حيث الوفرة فى كل شىء، والأسعار زهيدة لدرجة أننى فكرت ألا أعطى الجند إلا نصف راتبهم، واحتفظ لهم بالنصف الآخر.. لقد كانت سيطرتى عليهم كاملة حتى أن

مجرد «أمر اليوم» كان يكفي ليصبحوا محمديين (مسلمين) كانو سيضحكون للأمر، ويسعد الأهالي بذلك، ومسيحيو الشرق أنفسهم كانوا سيظنون أن قضيتهم قد انتصرت، كانوا سيوافقون وهم يظنون أن هذا هو أفضل حل لهم ولنا... » (٨٣) .

وتتوالى التهويمات لنتعرف على السعادة التي ضاعت فرصتها على كل بلدان العالم ، لأن « لو » لم تتحقق ، والأعداء لم يمهلوا منقذ البشرية الوقت الكافي لتحقيق الجنة على الأرض ، تحت سيطرته .

ومرة أخرى، يعود الحديث إلى أرض الفراعنة، من حيث خرجت الديانات السماوية الثلاث. وأخذ نابليون يقارن بين الإسلام والمسيحية. ثم أخذ يشرح أن «الهدف الرئيسى من الحملة على مصر كان زعزعة القوة الإنجليزية فى أركان العالم الأربعة، من أجل ثورة تغير وجه الشرق كله، وتعطى للهند مصيرا آخر» . كان يقول : «إن مصر كان عليها أن تقوم بدور سان - دومنج ومستعمراتنا الأمريكية، وتجمع بين حرية السود ورخاء تجارتنا، إلخ.. كانت هذه المستعمرة الجديدة ستهدم الإنجليز فى أمريكا، والبحر المتوسط، وحتى ضفاف نهر الكانج» . ولانرى فى هذا الكلام، الصريح، أية إشارة إلى المشروع الحضارى الذى طالما سمعنا أنه الهدف الرئيسى من وجود الجيش الفرنسى فى

مصر... ومثل كل ما يمس الأسطورة لم يلحظ أحد هذه الصراحة في الاعتراف بحقيقة نيات الحملة على مصر.

★★★

هذا هو كلام نابليون نفسه ، الذى لم يفنده إلا أعداؤه وبالتالى، لم يشكك فيه أحد حتى عصرنا هذا . وقبل أن نتعرف على مثل من أمثلة هذا التفنيد، فلنقرأ ماكتبه المفكر «جان بريفو» في آخر طبعة حديثة، كمقدمة لجزءى «الميموريال» فى صفحة عنوانها «التشويه التاريخى فى الميموريال» إن بريفو يفند، على ضوء الدراسات الحديثة كل ما يؤكده « لاس كاز » - بعد الحديث مع سيده - عن قدرة نابليون وحده على خلق كل شيء وإرجاع كل الأفضال إلى شخصيته الفذة وحدها. يلاحظ «جان بريفو» كيف أن هذا الحديث المدون حرفيا، يجعل القارئ يتخيل شخصية ذات «قوة خارقة» ؛ ولذا يتهم الكتاب بخلق أسطورة «تجعل الرجل العبقرى يحل محل الله فى كل أمر» (٨٤). وينهى المفكر المعاصر مقدمته قائلا: «هذا الكتاب جدير بأن يخلق أسطورة» ؛ وقد خلقها بالفعل.

أما الحقيقة وراء هذه الأسطورة فهى لن تكتشف ، أو بالأصح لم يقتنع بها الجميع، إلا أخيرا فقد سبق أن كتب «شاتوبريان» عدو نابليون اللدود، فى «مذكرات ماوراء القبر» حقائق رفض الجمهور المنبهر

أن يصدقها، خاصة أنها كانت تعنى ماحدث في مصر، ولكنه كان يكتب وقد سبق السيف العذل ، والجميع منبهر بأسطورة نابليون والحملة على مصر، خاصة الشعراء والكتاب. لقد قال نابليون ما أراد أن يصدق، فأصبحت كلمته هى الحقيقة الوحيدة التى يؤمن بها الجميع، كما سنرى .

الفصل
الرابع

الأسطورة عند الأدباء

« أخذت أوربا من شرلمان ، وآسيا من محمد » .

(ڤيكتور هوجو)

كان الجيل الجديد - من الشبان الذين عاشروا فى طفولتهم أصداء أمجاد نابليون الحربية - قد ضج من حماقات آل «بوربون» وعجرفة نبلاء عاشوا فى المنفى ولم يدركوا التحول الذى طرأ على المجتمع الفرنسى . هذا الجيل سمع عن الثورة ولم يقاس من أخطائها ولا من جرائمها ، ولم يعرف من نابليون إلا ما يقصه ، بحزن ، معاصرو المجد الفرنسى الزائل ، وما يقوله نابليون نفسه فى «الميموريال» عن أحلامه التى حرم من تحقيقها لإسعاد شعوب العالم ، هذا الشباب وصل إلى درجة الغليان ثم الثورة العارمة سنة ١٨٣٠ (٨٥) . ولم يجد الجمهوريون والليبراليون الثائرون غير اسم نابليون ليكون لواء لثورتهم ، كأحسن نصير للحرية ، وهذا فى ذاته كاف لإثبات قوة أسطورة نابليون الخادعة، وسط الشباب الذين ماتوا على المتاريس من أجل الحرية ، هاتفين باسم الامبراطور «الذى كان ، وباعتراف من مجدوه كلهم ، قاتل الحريات فى فرنسا وفى امبراطويته كلها ! كان هذا هو رد الفعل السياسى لأسطوة نابليون بعد نشر الميموريال (٨٦) . وكان يوازيه تيار عاطفى ، وجد فى الفنون ، وحساسية الأدباء ، أرضا خصبة تؤجج مشاعر القراء . إنهم يقرأون ، بشغف شديد هذا التبجيل لنابليون ، البطل الضحية ، الذى ساعد منفاه على زيادة حب الناس له ، بسبب شفقة محت من ذاكرتهم كل شوائب الماضى .

ولم ينج من طوفان ذكرى الرجل الكبير إلا القليل جدا من المثقفين المبدعين ، ممن كانوا أعداء له ، مثل شاتوبريان ، فقد اكتسحت أسطورة الامبراطور المخلوع العقول كلها ، وكان أول ضحياها الأدباء والفنانين ؛ فكتاباتهم كلها تنم عن سيطرة كاملة لصورة نابليون على فكرهم لقد كانوا ضحية الأسطورة بقدر ما ساهموا في تأكيدها وترويجها . وسنعرض بعض الأمثلة المأخوذة من روائع أهم أعلام ذلك العصر، لنعرف ما قالوا عن الحملة على مصر .

الحملة في أسطورة نابليون عند «بلزاك» ١٧٩٩ - ١٨٥٠

مصر نفسها كانت أسطورة ، كما سبق أن أشرنا فأصبح وجودها بين حملات نابليون وكأنها أغلى جوهرة تزين تاجه . وخير دليل على هذا ذلك النص الذى يصور فيه الكاتب الكبير «بلزاك» أحد الجند المسرحين ، وهو يقص على إخوانه من الفلاحين ، مغامراته مع نابليون ذلك القائد الذى كان ينزل إلى المعارك ، فيتساقط ضحايا رصاص العدو من حوله بينما لا تمسه طلقة واحدة ، بسبب العقد الذى أبرمه مع أحد الشياطين وإذا حصد الطاعون جند الحملة ، بقى هو وحده كالوردة الندية وسطهم . وإذا ما انسحب من مصر ، فهذا لأن الساحر «مودى» (٨٧) هو الذى أطلق الطاعون الذى هزمه ؛ فالقوى الخارقة هى الوحيدة القادرة على هزيمته . وهذا الجزء من رواية «طبيب الأرياف» ، ليس

طويلا ، وعلي الرغم من ذلك فإننا نجد أن الجزء الخاص بالحملة أطول فصل في سرده المشوق ، وكأنه أخطر مرحلة فى تاريخ نابليون الطويل: إن ما يعضد أسطورة لا يمكن أن يكون إلا أسطورة أخرى .. ومصر أسطورة لأنها خارج العالم الأوربي .

كان «بلزاك» الذى كتب فى قصصه ما أسماه «بالسجل المدنى» لفرنسيي عصره ، موفقا جدا فى عرضه لعقلية فلاحى بلده آنذاك ، والنص يعتبر فى تاريخ الأدب الفرنسى ، من أوقع ما كتب فى هذا الصدد . إنه يصور بأمانة شديدة ، ما كان يمكن أن يفهمه أهل الريف من الأحداث ، حتى إن كانوا شهود عيان لما حدث ، مثل ذلك الجندى : إنه يؤكد خزعبلات وتخيلات على أنها حقيقة لا يمكن أن يقصها أو يصدقها إلا عقل ساذج ، جاهل وبدائى ، وحتى إن كانت القصة من نسج خياله ، وليست تصوره الحقيقى للأحداث ، فهو يدرك إذن أن جمهوره لن يفتتن بالحقيقة ، ولكنه سيفرح بهذه القصص الخرافية وسيصدقها لجهله بكل شئ . ونلاحظ أخيرا أن العلاقة بين الجند والشعب المصرى كانت منعدمة تماما .

وفى كتابه عن «أسطورة نابليون والكتاب الفرنسيين فى القرن التاسع عشر» يعرض علينا موريس ديكوت كيف هيمنت شخصية نابليون على كل أعمال بلزاك ؛ وكأنه لا يستطيع أن يتخلص من ظل

العبقري الفذ الذى حكم وسيطر بقوة وجبروت اعتبرهما بلزاك أهم قيمتين في الوجود . وكان «بلزاك» ملكيا في انتمائه السياسي ، ولم ينضم يوما إلى حزب نابليون . وعلى الرغم من انتمائه للحزب الملكى ، إلا أنه لم يكف لحظة عن تصوير نابليون من خلال شخصيات تتصف ببعض صفاته ، فتنال عطف القارئ وإعجابه ، مثلما بهر نابليون بلزاك الارستقراطى اليمينى .

سنجد هذه الظاهرة بين الكثير من كتاب ذلك الجيل ، الذى خلق ، من خلال رواياته ، أو أشعاره ، أسطورة نابليون ، وذلك على الرغم من انتمائه - السياسى أو الطبقى - لألد أعداء الامبراطور المنفى .

★★★

عند « ستندال » :

والمثل الآخر ، المعاصر «لبلزاك» هو الكاتب الشهير «ستندال» (١٧٨٣ - ١٨٤٢) . كان ستندال يعتبر أن الرواية «مرآة يسير بها المؤلف على الطريق» فينعكس الواقع عليها ، وفى هذا الواقع الذى يصوره لنا، شخصية أصبحت علما فى تاريخ الأدب الفرنسى ، وهى شخصية «جوليان سورل» بطل روايته الشهيرة «الأحمر والأسود» .

والرواية تحكى طموح شاب من الفلاحين ، سمح له تعليمه بالوصول إلى أعلى درجات المجتمع الارستقراطى ، لولا أن حبه المجنون لسيدة

متزوجة جعله يطلق النار عليها ، فيحكم عليه بالإعدام . ومن أهداف هذه الرواية ، حصر آمال شباب ذلك الجيل ، جيل ١٨٣٠ ، بين لونين يرمز الأحمر فيهما إلى زى الجند ، والأسود إلى دراء القساوسة ولا يرى ستندال - مثل بطله جوليان - مستقبلا آخر غير هذين الزيين لطموحات الشباب المثقف فى عصره . وجوليان مهووس فى إعجابه بنابليون ؛ يقال لنا فى أول الرواية إن «اعترافات روسو وتقارير معارك الجيش الكبير الامبراطورى وميموريال سانت - هيلانة كانوا بالنسبة له، بمثابة القرآن» (٨٨) ، وكان يقضى الساعات يستمع إلى قصص معارك ايطاليا الأسطورية ، وعندما كبر ، أصبح يقضى الليالى فى قراءة الميموريال يستشف من خلاله كل خطوات حياته ، حتى أنه إذا ما أراد غزو قلب امرأة درس فيه استراتيجية نابليون الحربية لسحق أعدائه وكثيرا ما يقارن جوليان مجتمع عصره بما كانت عليه الحال فى عهد نابليون ، عندما كانت البطولات هى التى تجعل البسيط ضابطا وقائدا . ونراه يستمع مرة إلى عاملى بناء ينشدان حبهم للامبراطور الراحل ، ذلك « الملك الوحيد الذى احتفظ الشعب باسمه » . ويؤكد العاملان ما يرمى إليه المؤلف فى روايته ، وهو يتلخص فى جملة يقولها أحدهما : «الجندية ؟ فى عصر الآخر كان عامل البناء يصل إلى رتبة جنرال (...) أما الآن ، فلا يذهب إلى الجيش إلا الفقراء » . إن ما يميز

إذن عصر نابليون بالنسبة للشعب ، سواء كان فلاحا مثل جوليان أو عامل بناء ، هو المساواة الطبقية التى يحلم بها كل فقير ، ومادمنا ندرس الأسطورة ، أى نحاول أن ننظر إليها بعين ناقدة ، فلنذكر أن العصر الذى كان يصل بعامل البناء إلى أعلى صفوف القيادة ، لم يكن يوما إلا فى بداية الثورة ... فقط ! وتذكر مصر فى هذه الرواية ثلاث مرات ، بكلمات تلخص رؤية مثقفى ذلك العصر للبلد البعيد ، الذى لا يعرفونه إلا من خلال مسلمات ثقافية ترددها الأجيال فى كل الكتب .

فنقرأ تشبيها يقول : « كمظهر الحزن (...) على وجه الفلاح فى مصر » ، و «غلالات المومياء المصرية» ، و «نهر النيل (...) ملك الأنهار».

لم يزر «ستندال» مصر حتى يتحدث عن وجه الفلاح فيها ، ولكنه ، وهو الممثل لفلسفة التنوير فى عصره ، لا يعرف عنها إلا «حزن الفلاح» و «المومياء» و «النيل» كلمتان سحريتان وفلاح لم يشاهده ، وربما يكون قد قرأ وصف فولنيه الرافض لكل صورة إيجابية فى مصر . ولكنه يتحدث بثقة المعبر عن حقيقة يقينية يعرفها الجميع ، أصبحت بالفعل من مسلمات الحديث الغربى عن مصر (٨٩) .

وبالثقة نفسها ، كان ستندال قد أفتى فى كتاب آخر ، فيما فعله بونابرت أثناء الحملة ، وأوغل فى دفاعه الحار عن نابليون وما يقال عن

جرائمه فى ذلك البلد البعيد . ففى عام ١٨١٦ ، كان الهجوم على الإمبراطور المنفى على أشده فانبرى ستندال يدافع عنه لأنه كان يرى فيه «أعظم رجل عرفته الإنسانية منذ يوليوس قيصر» . ويشرح «ديكوت» لنا أن ما قاله ستندال فى كتابه عن حياة نابليون آنذاك ، كان ردا على الأعداء الذين لقبوا الامبراطور المهزوم «بأتيلا» و«نيرون» و«تيمور لنك» و«جانكيز خان» . كان ستندال يرد على ما عده اتهامات كاذبة ، وأخذ يبرر تصرفات نابليون السابقة فهو كثيرا ما يحول الأخطاء إلى أمجاد لأن منطقه يختلف عن منطق النبلاء الذين يهاجمون من عد فى نظرهم «مغتصبا» للحكم الشرعى الملكى . ويرى ستندال فى نابليون نصير الأفكار الليبرالية ، كما يصور نابليون نفسه فى «الميموريال» ولذا نرى ستندال يؤكد أن هزيمة «واترلو» كانت نكبة على أوربا بكل المقاييس ، لقد تسببت فى رأيه فى « تأخير الأفكار الليبرالية لقرن من الزمن » . وكانت الشائعات تؤكد ، على لسان الأعداء أن نابليون كفر بدينه وأعلن إسلامه فى مصر ، ويرد ستندال على هذا الكلام شارحا : «أن إسلامه هو نفس إسلام الماجور هورنمان والرحالة الآخرين ، الذين ترسلهم جمعية افريقيا لاستشكاف أسرار الصحراء» . ما كان إذن إسلامه إلا نفاقا سياسيا مشروعا علاوة على أن نابليون «كان يريد أن يكسب ود سكان مصر . فكان محقا فى تملقه هذا بادعاء الإسلام ، إذ كان يأمل

فى أن تصاب نسبة كبيرة من هذا الشعب المتطير بالرعب عند سماع جمله الدينية ونبوءاته . أما فكرة أنه أراد وبصورة جديدة ، أن يكون محمداً آخر ، فهذه فكرة جديرة بعقلية المهاجرين» . والمهاجرون هنا هم هؤلاء النبلاء الذين فروا من الثورة ، ولم يعودوا إلى فرنسا إلا مع عودة الملكية . كان ستندال يكن لهم احتقارا لا حد له ، كما يتضح من هذه الجملة ، خاصة أنهم كانوا أيضا لا يكفون عن مهاجمة رجله المؤله . ويستطرد كاتبنا دفاعه المستميت عن معبوده مؤكدا : « أنه لا يجدر بعاقل أن يسخط من القرارات القاسية التى اتخذها القائد الغازى فى مصر ، لقد حكم بالإعدام رميا بالرصاص على مائتى قسيس (أى شيخ) «يعتقد» (ونلاحظ هذا الشك ، فهو لا يقول : كانوا) أنهم كانوا وراء الفتنة ، ولابد من النظر إلى الموضوع من وجهة نظر فاعليته فقط. فهذا الإعلام جعل المسلمين ، الذين اعتادوا الطغيان ، يتمسكون بحكم عرفوا مدى سطوته » .

نستخلص من هذا الكلام أن أعداء نابليون كانوا يعرفون كيف حكم مصر فى حقيقة الأمر ، وأن «ستندال» لم يكن يعرف أنها لم تكن فتنة واحدة ، بل فتنتين : ما حدث للحملة بعد رحيل بونابرت لا وجود له إذن؛ هذا من جهة ؛ وهذا يعنى أيضا أن الذين لم يتحدثوا عن تلك الأفعال التعسفية ، مثل إعدامه لمائتى «شيخ» ، كانوا يخفون كل حقيقة قبيحة يعرفون أنها لا تليق بإعجابهم بنابليون المنزه عن كل خطأ .

ومن جهة أخرى ، رأينا «ستندال» يحكم على المصريين ، أو بالأصح «المسلمين» ، بصورة مغلوطة ! فكلامه، حسب المنطق ، الفرنسى نفسه ، فيه مفارقة غريبة ، إذ يثبت اعترافه بقيام فتنة : رؤيته للمسلمين خاطئة، فكيف يثورون إن كان الطغيان هو ما اعتادوا عليه ، فأحبوه وتمسكوا به ؟! وفكرة ترحيبهم بالطغيان هذه، من مسلمات الفكر الغربى عن المسلمين ، وسنقابلها مرارا ، كما سبق أن قابلناها بالفعل عند «كوندرسيه» والفارق الوحيد بين «ستندال» و«كوندرسيه» أن «كوندرسيه» ، عندما كتب هذه المسلمة ، لم يكن وجود بونابرت فى مصر قد أثار فتنة بعد ، أى لم يثبت عدم قبول المسلمين للطغيان بعد ، ففكرة تعلق المسلمين بالسلطة الطاغية ، عبر عنها «ستندال» على أنها أمر مفروغ منه ، لأنها من المسلمات التى لا تناقش ، والجميع يعترف بصدقها ، لذا ، فهذه المسلمة تستعمل لدحض حجج أعداء نابليون ، وإقحام من ادعى أن نابليون كان سفاحا قتل «قساوسة» مصر ، أى مشايخها دون مبرر مقبول .

نلاحظ أيضا ما قيل هنا عن إسلام نابليون حين كان فى مصر ؟ هذه الشائعة بالذات ، استعملها كل من كان يريد أن يهاجمه ويطعن فى ذمته ، وهو الذى حكم بلدا أعاد إليه الطمأنينة ، عندما أعاد للكاثوليكية هيبتها ، بل أعاد وجودها نفسه ، وكانت حكومات الثورة قد محتها من خريطة فرنسا .

عند « لامرتين » :

المثل الثالث الذى نستعين به ، وسط عظماء كتاب ذلك العصر، هو «لامرتين» (١٧٩٠ - ١٨٦٩) الشاعر الرومانتيكى الكبير ، الذى لعب دورا مهما فى سياسة فرنسا الداخلية ، والذى درس «ديكوت» علاقته بأسطورة نابليون باستفاضة فى كتابه ، فقد بدأ «لامرتين» حياته ملكيا، ثم أصبح من أكبر رموز «الجمهورية الثانية» فى فرنسا ، وعدوا لنابليون وذكراه . وعلى الرغم من ذلك ، يقال إن الفضل فى تحويل أسطورة نابليون الشعبية إلى أسطورة أدبية ، يرجع إليه بسبب قصيدته «بونابرت» التى نشرت سنة ١٨٢٣ . وإن كان رأيه في نابليون يهمنا بالدرجة الأولى ، لدوره المتميز باعتباره شاعرا كبيرا وسياسيا مؤثرا ، إلا أن ما نبحث عنه الآن هو وجود الحملة كجزء من أسطورة نابليون في أدبه ، ونجد بالفعل فى مذكرات لامرتين صفحة تحكى ما كان عليه صيت نابليون ، والحملة ، فى الريف الفرنسى ، سنة ١٨٠٢ .

كان شاعرنا طفلا فى قريته، وكان يرى البائع المتجول يبيع كميات من الرسوم الشعبية المنتشرة آنذاك وكان من بينها رسم «لرجل صغير، نحيف وأسود يقفز بفرسه وبيده سيف طويل أمام كومة من الأحجار المقطوعة تسمى أهرامات»،كانت هذه هى صورة معركة الأهرامات التى انتصر فيها الجنرال بونابرت وكان مثقف القرية يشرح لزراعى الكرم

معنى هذا الكلام، ويقضى كل أمسيات الشتاء ليعلق عليها ويشرح «معنى هذه الصور الحقيقية الجميلة» . ولن نعجب إذا وجدنا هذا الطفل، وقد أصبح كبيرا ، لا يذكر فى قصيدته إلا ما عرفه وهو صغير ، من أمجاد الامبراطور المتوفى ، وتتلخص هذه الأمجاد فى ذكر جسر «آركول» والحملة على مصر والشام ، وعبوره لجبال الألب مع جيشه وتكاد تكون هذه اللحظات الثلاث فقط، هى كل ما رأى من صور فى طفولته .

الأسطورة لها ، إذن ، ثلاثة أسس ، والحملة أحدها . أما تفاصيل هذه الحملة ، فلا يتحدث عنها إلا الأعداء الحاقدون . إنهم لا يرفضون المبدأ ، ولكنهم يحاولون هدم صورة الرجل الذى أسموه «الغول» ، «السفاح» ، وقد وجدوا فى تصرفه فى مصر خير دليل على صحة اتهاماتهم . أما المعجبون به ، فهم يرفضون هذا الكلام . وكلمة «مصر» السحرية ، أو «الأهرامات» تكفى لأن تخلب لب أى فرنسى فى ذلك العصر ، دون الاحتياج للدخول فى أية تفاصيل ، فمجد الرجل العظيم يغمر بضوئه الساطع ، أى حدث فى حياته ، فما بالك إن كان يقع فى كوكب آخر ، حيث تقع مصر الغامضة ؟!

عند « فيكتور هوجو » :

بقى لنا الحديث عن الشاعر الأديب الذى جمع بين الشعبية والثقافة، وهو فيكتور هوجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥) فهو أطول شعراء جيله عمرا ،

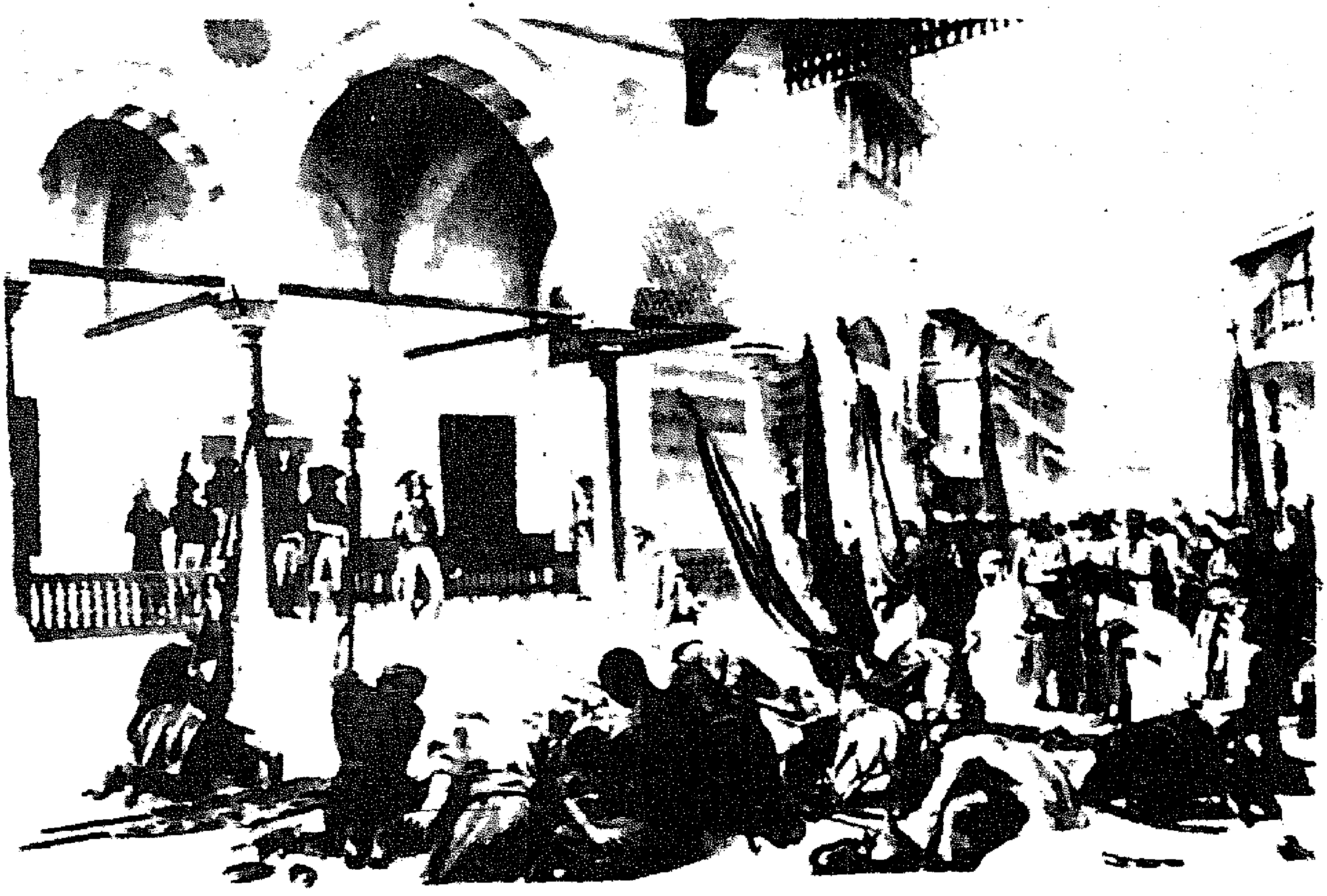

المماليك يسجدون لبونابرت ، أمر لم نسمع به أبداً ،

وأكثرهم إنتاجا ، وأوسعهم شهرة ، كان رجل سياسة . أيضا ، وإن كان دوره أقل تأثيرا من دور «لامرتين» . ولكن شعبية «هوجو» واضطهاد نابليون الثالث له ونفيه ودفاعه عن الفقراء والبؤساء ، ساعد على انتشار شعبيته وشعره ، الذى كان له تأثير كبير على القراء.

وبصفته من أكبر الشعراء الرومانتيكيين ، فقد وصلت سمات الفن الرومانتيكي عنده إلى أقصى حدودها . فكانت كتاباته تهتم بكل ما هو غريب وعجيب ، وتستعمل التفخيم المبجل ، والمبالغة الزائدة فى التعبير عن مشاعره ، وكان العالم ينقسم فى رواياته إلى خيرين وأشرار ، والأبيض عنده أبيض ، والأسود أسود ، فكانت الملائكة والشياطين فى عالم خيالى خصب ، ثرى بالشخصيات الفذة .

كان إعجابه إذن شديد بالشخصيات الفذة ، وكان نابليون من هذا الطراز الفريد من البشر ، فأثار انبهار فيكتور هوجو حتى كتب فيه العديد من القصائد ، التي أصبحت من أهم ما أرسى أسطورة نابليون - والحملة - فى الوعى الفرنسى المعاصر له .. واللاحق به .

كان هوجو فى أول حياته ملكيا ، يعيش فى وسط لا يتحدث عن نابليون إلا بصفته «سمام يافا» ، «الجبان الذى هرب من مصر وهرب من روسيا تاركا من أرسلهم طموحه هناك للطاعون والثلوج » . ومر «فيكتور هوجو» مثل لامرتين بفترات متناقضة من حيث انتماءاته

السياسية ، كان ذلك طبيعيا فى قرن عرف أربع ثورات ، وملكيتين ، وجمهوريتين، وامبراطوريتين . النتيجة الحتمية لتلك التقلبات أن المعايير كانت تختلف من نظام لآخر ، فكانت النظرة إلى نابليون ، ثم إلى الحزب البونابرتى - عندما تكون فيما بعد - تختلف مع اختلاف الأحداث، إلا أن «هوجو» ظل دائما وفيا لإعجابه بنابليون ، وإن كان ينتقد أحيانا أخطاء رآها تشوب حكمه وطموحه ، ولكن قصائده فى مديح نابليون حولت الرجل الكبير إلى شخصية أسطورية لا مثيل لها ، لأنها تخرجه من نطاق عالم البشر .

وشعر «فيكتور هوجو» يتصف بثراء الكلمات الرنانة ، حتى أن بعض قصائده سلسلة من أسماء البلاد والمدن ، ترتيبها وحده يحولها إلى نغم رائع يصل بالشعر إلى مستوى الموسيقى . وكانت مهارته فائقة في استعمال الأسماء القديمة ذات الإيحاءات الشاعرية الأسطورية للقارئ الفرنسى . وكثيرا ما يتساءل القارئ المعاصر إن كان استعماله لكلمات النيل والأهرامات ومصر ، كان استعمالا موضوعيا ، أم أن «هوجو» استعارها فقط لزوم جموح شيطانه الشعرى. ولكن القارئ المعاصر له لم يكن ليذهب إلى حد هذا التحليل الموضوعى فالحملة ونابليون كانا من التاريخ القريب ، والكثير من الكتاب والشعراء الآخرين، يتغنون ، أيضا ، بهما (٩٠) فتداخل الشعر والوحى الغناء على

أحداث مبهمة ، لا يذكر إلا اسمها ، فأصبحت وكأنها حقيقة واقعية ، بل ومن مسلمات الأمور والتاريخ ، حتى طمست بتكرارها المستمر كل ما يمكن أن يشكك في صحتها . ولا ننسى الدور لذي لعبته جيوش «محمد علي» وأسطوله في الحرب بين الدولة العثمانية ، وثوار اليونان ؛ هذه الحرب التي اشتعلت لها قصائد الغرب ، وذهب إليها بايرون ، الشاعر الانجليزى الشهير، ليدافع عن حرية اليونان فمات هناك . وكان «فيكتور هوجو» من أكثر الشعراء هجاء وعنفا ضد « المسلمين » في ديوانه الشهير «الشرقيات» .

لقد تعامل مع هذه الحرب على أنها حرب دينية ، فهاجم الإسلام بشراسة ، واعتبر «إبراهيم» القائد المصرى المنتصر ، من السفاحين ، إلى آخر ما يصوره العقل الغربى عادة من تخيلات عندما يتعامل مع «بربرية المسلمين» والحرب ضد «الهلال القاتل» . وقد يشرح هذا تأكيد «هوجو» المستمر على انتصار نابليون في مصر ، وكأنه انتقام رجعى لما يراه اليوم من الجنود المسلمين ، ووسط هذا الهجاء الدموى ، نجد قصيدته الشهيرة «هو» .

و «هو» هو هذا النابليون الذى يراه هوجو في كل زمان ومكان .. ونلاحظ كثرة استعمال الشاعر لاسم مصر فى هذه القصيدة أيضا ، فعندما يعدد أمجاد نابليون ، نراه يذكر ، بين أربع لحظات مجيدة ؛

«النيل» ، ثم «الاهرامات» ، وكأن حملة مصر وحدها تعادل نصف أمجاد الامبراطور المنتصر . ونقرأ قصيدة أخرى سميت «بونابردى» وهو الاسم الذى كان ينطق به المصريون اسم بونابرت ، وفى هذه القصيدة ، يتغنى فيكتور هوجو بالآثار العميقة التى تركها نابليون فى مصر ، وقارئ القصيدة يعجب لمجرد التأكيد على ما يعتبر حقيقة لاشك فيها ، دون أن يذكر حدث واحد يعضد هذه المسلمة . وسنجد الحملة ، كاسم ، لازمة دوما فى كتابات «هوجو» التى تمجد نابليون كلها ، ودوما دون أية تفاصيل .

فيكتب مثلا فى رواية «البؤساء» أن نابليون «يمزج أرقام نيوتن (٩١) بمجاز محمد ، وترك وراءه فى الشرق كلمات كبيرة كبر الاهرامات» ، وذلك دون أن يفصح الكاتب ، طبعا ، عن هذه ، الكلمات أو هذه المجازات وماذا يعنى بمجاز محمد ، ولكن نغمها جميل فهوجو شاعر حتى فى نثره . كما أننا نقرأ فى إحدى قصائده بيتا من الشعر يقول فيه : « أخذت أوربا من شرلمان وآسيا من محمد» .. فتظهر الحقيقة جلية للقارئ : إنها التفخيم الشعرى والخيال المتوهج ، فما مصر بآسيا ، ولا حتى الشام التى قاد فيها بونابرت حملة سنرى حقيقتها فيما بعد ، ولكن مجرد ، انتصاره فى معركة إمبابة، المسماه بمعركة الأهرامات ، وهى التى تذكر دائما ، تلك المعركة تتحول بفعل سحر الشاعر المفتون ،

إلى الاستيلاء على آسيا بأكملها ... ولا يقال ولو لمرة واحدة مثلا أن بونابرت رحل بعد سنة من وصوله إلى مصر ، أيا كان سبب رحيله ، وأن الحملة فشلت في كل أهدافها باعتراف معاصريها من السياسيين .
إن اسمى « مصر » و « الأهرامات » يكفيان لإذكاء خيال « هوجو » المتوهج .

وكانت رحلة نابليون - وفيكتور هوجو مثله في ذلك مثل الآخرين ، لا يقول الجنرال بونابرت - إلى مصر هى التى تسمح لشيطان الشعر عند هوجو أن يؤكد سيطرة رجله العظيم على العالم كله. فهو - على حد تعبير «ديكوت» الذى يصف الامبراطور كما يراه هوجو - «عملاق (..) يحنى جبال الألب ويسيطر على النيل (...) بينما يده الأسطورية تلعب بالأهرامات وكأنها خشخيشة» . لن نعجب ، بعد ذلك ، إن رأى ڤيكتور هوجو أن الذى هزم نابليون ، لم يكن جيوش الأعداء ، وإنما إرادة الله وحده ، فنابليون ليس من البشر العاديين حتى يهزمه بشر آخرون، وهذا ما يؤكده فى أكثر من قصيدة :

لا يسعنا أمام هذا اليقين ، إلا نذكر ذلك الجندى الفلاح فى رواية «طبيب الأرياف» الذى يؤكد - هو أيضا - أن نابليون لم يهزمه البشر فى مصر وإنما الطاعون والساحر مودى . لقد وصل إذن هوجو شعره الراقى بجهل الفلاح الأمى ، فاجتمعا فى العبادة نفسها ، عبادة

امبراطور ألهوه ، لأنه ، على حد قول فيكتور هوجو ، جعل فرنسا مسيطرة على العالم كله ، بفضل وصوله إلى أقصى حدود العالم ، وهى الكرملين فى روسيا والأهرامات فى مصر .

ولا يقول أبدا إنه هزم فى البلدين كليهما ، إنه يغفر له الكثير لأن المجد فى الحملات الأخرى يجعل كل الأخطاء تغتفر ويبقى هذا الانبهار حتى عندما يتحول فيكتور هوجو إلى جمهورى يسارى ، يدافع عن حرية ، لم تقتل مثلما قتلت فى عهد الامبراطور .. وباعتراف فيكتور هوجو نفسه ! .

***

نلاحظ بعد هذا العرض السريع ، أن الحملة لم تكن تنسب فى أسطورة نابليون ، عند فيكتور هوجو وغيره من الفنانين ، إلى الجنرال بونابرت . فمن البديهى أن أمجاد نابليون اللاحقة طغت على أفعال الجنرال بونابرت السابقة ، فدخلت فى زمرة الانتصارات التى هزت أوربا بعدها ، لعشر سنوات متتالية . ولا ننسى أيضا أن الحملة على إيطاليا كانت قبل الحملة على مصر ، فضاعت نتائج الحملة على مصر وحقيقتها ، بين معارك إيطاليا الرائعة الصيت التى سبقتها فى الزمن، وانتصارات الامبراطور التاريخية التى جاءت من بعدها ، ومن كان يدرى ، بين جمهور فرنسيى ذلك العصر ، ما حقيقة الأمور فى بلد بعيد

مثل مصر، حتى إن كان الأعداء يختلقون الشائعات المغرضة حول ما حدث في هذا البلد الغامض : « ألم يقولوا إنه اشترك هناك في الطقوس الدينية الإسلامية ، وإنه أجرى عملية ختان ليؤكد إسلامه ، وإنه اشترك في الاحتفال بمولد محمد وبوفاء النيل ، وإنه كان يصلى بآيات من القرآن ؟ » . ويرد ديكوت (الذى درسه أخيرا) على هذه الاتهامات الكاذبة بتأكيده : «لقد خلطوا بينه وبين مساعده مينو» .. ونود التنويه بأهمية هذه التبرئة لدلالتها على طريقة الفرنسيين في التعامل مع نابليون حتى الآن .. ففى عام ١٨١٦ ، اعترف ستندال ، كما قرأنا ، بمكيافيلية نابليون الذى استعمل الإسلام ليسيطر به على عقول المصريين ؛ وديكوت الذى يكتب سنة ١٩٦٧ ينفى ، بجملته هذه ، أية شبهة من هـذا القبيل ، من على جبين بـونـابـرت .. كيف يمكن أن يحـدث هـذا ؟ .

★★★

في دراستنا عن أسطورة الحملة فى الأعمال الأدبية الشهيرة تعرضنا ، مثلما فعلنا مع أسطورة نابليون ، إلى أشهر النماذج فى هذا الميدان . فقد سبق لنا أن قابلنا بعض الفقرات التى تدل على أن ما كان يتغنى به فيكتور هوجو مثلا من مسلمات مبهرة - لم تجد أية تفاصيل

لتعضدها - ليست أكثر من خيال شاعر ، عشق مجد قائد فذ ، ذهب إلى بلاد في أقـاصى العالـم ، مثل موسكـو ومصر ، فزاد ذلك من انبهاره ، بسبب بعد المكان وغموضه ، ولكن الموقف كان مختلفا مع كتاب «المسار من باريس إلى أورشليم» فـ «شاتوبريان» زار بنفسه مصر ، فى عصر لم تكـن معروفة فيه بعد، وقال إنه شاهد بعينيه الآثـار الـرائعـة التى تركتها الحملة علـى ضفـاف النيـل . فكـان لكلامه أكبر أثر ، لأنه بقلم الشاهد الأمين ، ورجل السياسة والأدب المشهـور ، وجـاء كلام «الميموريال» عن نجاح الجيش الفرنسى فى مصر ، ليؤكد أكثر وأكثر تخيلات رجل الأدب الشهير ولكن نابليون والحملة كانا ملكا للتاريخ قبل أن يكونا ملكا للفنانين - فما قول المؤرخين فى هذا الصدد ؟ .

الفصل الخامس

الأسطورة عند المؤرخين

« كان الفرنسيون والمصريون يتبادلون القبلات والتهانى عند وصول خبر انتصار بونابرت فى معركة « أبو قير » الثانية ، لأن نبأ النزول التركى كان قد أشاع الفزع .. »

«بينوا - ميشان»

أصبح «الحزب البونابرتى» - على مر العقود - من الأحزاب السياسية الفعالة ، وامتزجت عند البعض ، أسطورة الثورة بأسطورة نابليون . وبدأ الخلط ، بالفعل بين الفكرتين ؛ فعلى الرغم من أن للحزب الجمهورى القديم تياره الخاص المعادى لفكرة الإمبراطورية ، فإن فكرة «نابليون حامل لواء الثورة» كانت قد رسخت في الأذهان ، حتى أن أحد معاصرى ثورة ١٨٣٠ - التى رفعت لواء «الحرية ونابليون» - يقول ، مثلا : «أنا لا أفهم شأن هؤلاء الليبراليين ، الذين أحبوا نابليون إلى درجة الهوس ؛ فأنا لا استطيع أن أفهم ذلك التوفيق بين حماسهم لفكرة الحرية ، وحماسهم فى الوقت نفسه ، لطاغية كان ، مما لا شك فيه ، عظيما ولكنه ، قطعا ، لم يعرف الليبرالية » .

وفى عام ١٨٧٢ - أى بعد الهزيمة النكراء على يد «بسمارك» بروسيا ، وثورة «الكوميونه» الدموية فى باريس - قال «جامبيتا» الجمهورى فى إحدى خطبه : « .. إن فرنسا المجيدة ، فرنسا الثورة ، فرنسا محررة الجنس البشرى ومعلمته ، فرنسا النشاط الرائع كما يقال عنها ، فرنسا الأفكار العامة للعالم أجمع ..» (٩٢) تلك الـ «فرنسا» التى يتحدث عنها «جامبيتا» ، هى وريثة ثورة ١٧٨٩ ، وأمجاد نابليون ، وهى التى ستشكل سياسة «الجمهورية الثالثة» الجديدة وفلسفتها ، وستمضى فيهما حتى الحرب العالمية الثانية .

وتمثل السياسية التعليمية أهم تطبيقات تلك الفلسفة ؛ فقد جاءت «الجمهورية الثالثة» بعد هزيمة ١٨٧٠ ، فكان لابد لتلك السياسة أن تتجه إلى التأكيد على التاريخ المجيد لفرنسا «المنتصرة دائماً » ، ومؤازرة وإذكاء الروح القومية ، وتأليه الأبطال القوميين وعلى رأسهم «نابليون» الذى أذل أوربا كلها ، وألمانيا بالذات . ولا نجد هذا الاتجاه فى كتب التاريخ المدرسية فقط ، بل نجده أيضا ، فى كثير من الكتب التى تؤرخ لسيرة نابليون ، وتتحدث عنه وكأنه من الآلهة أو القديسين .

★★★

«ميز» و «ليجران» : «فى بلاد نابليون - مصر»

صدرت سلسلة من الكتب بعنوان «فى بلاد نابليون» ، نختارها كمثل فاضح لذلك الاتجاه فى بداية القرن العشرين ، وقد نشرت تلك السلسلة فى طبعة قيمة فاخرة ، تحمل الكثير من الرسوم ، التى كان نابليون قد أمر برسمها لدعايته الذاتية ، مما جعلها تسحر العيون ، ومن ثم ، يعجب بها الشباب وغير المتخصصين ، ويكون لها - بالطبع - التأثير الأكبر على عامة الجمهور . وقد اتخذت تلك السلسلة عنوانا يعد، فى ذاته خير دليل على الرؤية التى يتبناها الناشر والمؤلفون فى سرد انتصارات نابليون فى البلاد التى غزاها .

وما يهمنا منها ، هنا ، ذلك الكتاب الذى يحكى عن «مصر» ؛ وقد اشترك : «چان ميز» و«چورچ ليجران» .

ويتعرض أولهما - «چان ميز» - فى الجزء الأول من الكتاب إلى الحملة فى ذاتها .

وتتأكد الرؤية المنبهرة المحدودة ، منذ الصفحات الأولى . فمما يعجب له أن يبدأ المؤلف قائلا إن «حكومة الإدارة أعلنت الحرب على مصر ، فى ١٢ أبريل ، وكذلك على جزيرة مالطة..» . والدارس للتاريخ يعرف أن من أسباب تكوين التحالف الثانى ضد الجمهورية الفرنسية ، أن الحملة نزلت على الإسكندرية دون إعلان حرب على تركيا ، صاحبة الأمر فى مصر آنذاك ، بعد أن استولى بونابرت عنوة على مالطة ؛ وأن أحدا لم يكن يعرف هدف تحرك الأسطول ، وإلا سبقهم الإنجليز إلى هناك ، ولكن الأحداث تحكى فى هذا الكتاب على طريقة روايات المغامرات المثيرة . فبونابرت ، مثلا ، يستعد «لعمل كبير سيذهل العقول ويبلبل أوربا : إنها الحملة على مصر» (٩٢) ، وبهذا الأسلوب ، يصف «ميز» استيلاء الحملة على كنوز جزيرة مالطة كلها ، لينتهى هذا الجزء بالكلمات التالية : «إن علم الحرية يرفرف الآن على كل الطبايا» فى الجزيرة . ومن البديهى أن قراء ذلك العصر لم يفطنوا ، كما لم يفطن المؤلف نفسه ، إلى تلك المفارقة الصارخة ، التى تجمع بين «الغزو

والنهب» و «الحرية» . ثم ينقل المؤلف بيان بونابرت لجنده قبل وصولهم إلى مصر : «أيها الجند ! ستشتركون في غزوة لها نتائج لا تحصى على الحضارة وتجارة العالم ... » . ثم نقرأ البيان الذى وجهه إلى الشعب المصرى ، ودون أن نعرف تأثير ذلك البيان على جمهور المصريين ، نجد المؤلف يعلق عليه بقوله : «إنه تحفة من تحف فن العلوم السياسية» .

يصف الكتاب بعد ذلك غزو الإسكندرية ، وكيف أن جنديا فرنسيا واحدا هو الذى اخترق التحصينات ، فتبعه باقى الجيش ، وعندما رآهم «الأتراك ، فروا هاربين بين الحدائق وهم يصرخون رعبا » ونجد بجانب هذا الكلام رسما عنوانه : «دخول الجنرال بونابرت إلى الاسكندرية «بريشة كولسون» حيث نرى بونابرت فى وسط الرسم ، ممتطيا جوادا أبيض ، ويده ممدودة وكأنها تعد بالصداقة والسلام ، بينما النساء والأطفال الرضع على الأرض يتوسلون إليه وقد ازورت وجوههم هلعا ؛ ونرى آخرين يفرون رعبا . ومؤلفنا معجب إعجابا كبيرا بـ «تكتيك» بونابرت الذى يحطم مع رجاله المماليك «فيصبحون ، آنذاك ، وبالفعل ، منقذى العرب وأصدقائهم » . وأثناء رحلة الجيش إلى داخل البلاد ، «أدرك بونابرت فقر المنطقة ، وهو مستمر فى مسيرته نحو دمنهور ، فأرسل كل المؤن التى تحتاجها فرقه ، على الجمال ووسائل النقل الأخرى » . فهو القائد الذى لا ينسى رفاهية رجاله لحظة وحدة .

ثم نقابل رسما آخر سمى «بونابرت قبل معركة الأهرامات» للفنان «جرو» ، ونرى فيه بونابرت وقد مد ذراعه مشيرا إلى الأهرامات الثلاثة الموجودة فى مؤخرة الرسم ، وبجواره ضباطه . ونرى فى الأسفل ، جسد زنجى ميت ، ومن تحته رجلين مهزومين ، أحدهما مملوك والآخر عارى الجسد ، ينظران إلى بونابرت وقد رفعا أيديهما فى توسل .

وبعد أن رأينا هذين النموذجين ، سنقلع عن وصف تلك الرسوم ، لأنها متشابهة كلها ، فهى تصور الفكرة نفسها : الانتصار الكاسح لراكب الجواد الأبيض ، والتوسلات التى ترتفع من أسفل ، حتى إن كانت تلك التوسلات توسلات الجند الفرنسيين المصابين بالطاعون .

ويكون خير تعليق على تلك اللوحات ، وصف الكتاب ، نفسه لحكم نابليون للقاهرة . فالمؤلف يقول : «إنه يتملق الكبار ، ويعد البؤساء بحمايته ، ويترك حكم العدالة للقاضى (المسلم) ويسلم حكم القاهرة لديوان من تسعة أفراد ، (...) ، ولكنه يحكم بالإعدام على كل من يرفض طاعته . إن الحديد موجود تحت المخمل » ، كيف لا نعجب من مثل هذا الحاكم الحكيم ، الذى يحترم أهل البلد ، لكنه ، فى الوقت نفسه ، يرهبهم فيخشونه ؟

ويستمر مؤرخنا فى وصف ما حدث فى مصر :

«تم منذ الساعات الأولى، إحصاء أملاك المماليك كلها ومصادرتها ؛ ووضع كل ثمين فى صناديق دمغت بخاتم أمين صندوق الجيش،

والقيادة العامة ، واللجنة المسئولة عن الجرد ؛ كل ما يصلح (...) للجيش أرسل إليه على الفور ، ويتم بيع الباقى إلى شركة تجارية» .

«وبعد الغزو ، كانت رفاهية الجنود ، همَّ نابليون الأكبر ، ومن ثم ، فقد أمر ، من فوره ، ببناء أفران ومستشفيات وفرض ضرائب باهظة لسد حاجة الرواتب والشئون الأخرى . وفى نهاية شهر يوليو ، كانت ضرائب التجار فى الإسكندرية ورشيد ودمياط ، والضرائب على وكالات الصابون والتفاح ، والسقائين ، وتجار السكر ومشايخ الغورى ، تسمح بدفع كل ما تأخر من رواتب . وأخذ الجمهوريون ينعمون برغاء الحياة الشرقية ومتعتها ، بعد أن أكل الجند وارتدوا ثيابا أكثر ملاءمة للجو ، وركبوا أفضل جياد فى العالم ؛ فالجديد الذى يقابلونه من التقاليد ، يرفه عنهم ، وسرعان ما فهموا الدور السياسى المطلوب منهم ، فأصبحوا يدعون أكبر احترام لله (الكلمة العربية) ونبيه ، وهم يسخرون سرا منهما» .

«وفى الوقت الذى يفكر نابليون فى محاربيه ، يتخذ كل القرارات المطلوبة للإدارة الرشيدة للبلد ، ولنشر النفوذ الفرنسى . فلكل منطقة فى الدلتا أحد نوابه بفرقته» . ويستمر الوصف ، والراوى ينظر بعين العطف بل والانبهار ، إلى كل ما يفعله الجيش ؛ فالأسلوب الذى قد يفقد خصوصيته عند الترجمة ينم عن التقدير والإعجاب بكل ما يتخذ

من إجراءات ، دون أن يتعرض ، ولو بكلمة ، لما يمكن أن يكون عليه رد الفعل المصرى ، من تطبيق تلك الإجراءات . ويكفينا عرض النموذج التالي لنتعرف على مدى احتقار المؤرخ للمصريين ، وانبهاره ، فى الوقت نفسه ، بالأحداث التي يرويها : «في التاسع من أغسطس ، وعلى مسافة من بلبيس ، قابل الجيش القافلة الشهيرة (للحجاج) . وكان يحاول سلبها مائة من الأعراب الذين فروا هاربين عندما رأوا الزى العسكرى الفرنسي ؛ ولم يتبق على الطريق إلا طابور طويل من الجمال، محملة كلها بالبضائع وبعض النسوة العجائز ، القبيحات ، اللاتى يتسترن في محامل مهلهلة ، ألفان من الحجاج ، بثياب بالية ، قذرة كلها قمل ، وقد انحنوا حتى الأرض أمام القائد العام ، عندما أخبرهم أنه سيحميهم » . . . .

وبعد ذلك ، يستمر بونابرت فى بحثه عن هؤلاء الأعراب حتى يراهم على بعد : «كانت الفرقة هناك ، مخملة بغنيمة مكة الثرية - ما العمل ؟ هل يترك الفريسة تفر ؟ لا - الجنرال الصغير ، منتصب على سرجه ، يستدير صائحا : لوكلير ! فرسانك ، قناصوك ، خيالتك ! إلى الأمام!!! - حضر ، صخب هائل ، الأرض ترتعش تحت وقع حوافر الجياد، كسندان يرتجف تحت المطرقة : المعركة تحتدم جسما لجسم : الفرنسيون يختفون وسط القطيع المعادى للحظة . كلهم أعصاب وجرأة،

يرشقون ، يصوبون ، ينضحون من الدائرة التى بدأت تضيق ، مرشدو حرس القائد العام يرتمون فى المعترك ؛ «مورا» ، «كافارللى» ، «سلكوفكسى»، القيادة العليا كلها تتخبط بعنف ، والسلاح فى أيديهم» والقارىء يلهث مع الأسلوب الذى يصف معركة «الشجيع» ضد قوى الظلام ؛ وتنتقل الغنيمة من الأعراب إلى الفرنسيين ... وهكذا ينعم أفراد الجيش بأملاك الحجاج الذين كانوا «تحت» حمايتهم ، ولا يرى المؤلف أية غضاضة فى تلك الحادثة ؛ يقصها علينا بأسلوب ينم عن انبهاره بالجيش الأسطورى الذى يعرف كيف يغتنم الفرص ... ويستمر هذا الانبهار بتصرفات بونابرت وجيشه كلها حتى أن العلماء والمشايخ أيضا «مبهورون بتقوى» بونابرت الإسلامى «لابد لبونابرت أن يطفىء الكراهية الأبدية التى يكنها المسلم للغريب ، للكافر ، فهو يعرف أن سلامة جيشه طوع المشاعر التى سيثيرها تصرفه ؛ إنه يعرف ذلك ، فينتهز - بمهارة - الفرصة ، التى تتيحها له أعياد النيل ، لتكريم أقدم العادات المصرية ، ليؤكد ، بذلك ، مدى صدق احترامه لأفكار الشعب المصرى السياسية والدينية » ، فأمامهم شعب يكره الفرنسيين ، لا لشىء إلا لأنهم «غرباء أو كفرة» ، وبونابرت الذى يمد لهم يد التسامح والتفاهم ، على الرغم من «الضرائب الباهظة» ، والاستيلاء على الأملاك والغنائم . «ففى الثامن عشر من أغسطس ، عندما وصلت المياه إلى

المستوى المطلوب ، يستعد الجميع لشق الخليج . وتقول جريدة الكوربيه ديچبت إن القائد العام ، ومعه جنرالات القيادة العليا كلهم ذهبوا منذ السادسة صباحا ومعهم القيادات المحلية كلهم ، إلى مقياس النيل بجزيرة الروضة : «الحشد الهائل للأهالى ، على ضفتي النهر ، يهتف من السعادة ، هتافات تجمع اسم بونابرت إلى اسم الله ، الله الكبير . الموسيقى الجمهورية بنغماتها الحربية تمتزج بالسمفونيات الغربية للفرق العربية ، وصدى ضرب المعاول فى الأرض ...» ويستمر الوصف للحفل الذى يسعد الجميع ، ولا عجب ، مادام المصدر لهذا الوصف البهيج هو الجريدة الفرنسية التى ترفع من الروح المعنوية للجند ، وترسل صورة مشرقة عن الحملة إلى فرنسا البعيدة . وهكذا نقرأ أن «حشدا هائلا يسير مع بونابرت ، والناس يتغنون بأفضال النبى والقائد الكبير ، إنهم يقولون : نعم لقد جئت لتحررنا بأمر الله الرحيم ، لأنك منحت الانتصار وأجمل نيل شاهدناه منذ قرن من الزمن ، إنها نعمتان لا يمنحهما إلا الله . وبعد فورات الفرح تلك ، تأتى الصيحات باللعنات ضد المماليك ، وبكواتهم وطغيانهم الملعون . ينتهى اليوم بحفل كبير ، وتنار القاهرة كلها ليلا » . ومادمنا لن نعرف غير ذلك ، فما أجمل الحياة التى عاشها كل من المصريين والفرنسيين معا فى ذلك العصر .

ولكن هذا لا يعنى أن بونابرت يؤمن بهذه الاحتفالات : «فبينما نراه يتملق تعصب العادات القديمة لأهل البلد ، نرى بونابرت منهمكا فى نشر العلم الغربى وحضارته . ففى السابع والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨ ، نراه يجمع العلماء والفنانين الذى أحضرهم معه ، وينشىء المعهد (الفرنسى) الشهير ، فى واحد من أجمل المساكن بالقاهرة : قصر حسن كاشف . ثم يستمر فى إرساء السلام فى الدلتا ومصر الوسطى ، ويعمل كل يوم لتحسين حكومة غزوه . إنه ينشىء محاكم تجارية ، ويصدر تنظيما جديدا لكل مجموعة من الشرائع ، ويحرم العقوبات الجسدية مثل الضرب بالعصى ، ويضم صغار المماليك إلى الجيش ، ويأمر بإنشاء مكاتب تسجيل ؛ وبكل هذه الإجراءات ، يصل إلى تحرير القبطى ، وإلى سيادة مبدأ المساواة بين كل الطبقات . ويتغير مظهر القاهرة ، رويدا رويدا بين يدى الجنرال الصغير ، فتتحول إلى عاصمة فرنسية ، يتدرب السكان على الصناعات الصغيرة ، وفى ورش الأسلحة والبناء والسباكة إلخ ، التى تفتح وتنظم . الحضارة الأوربية تدخل بطريقة غير محسوسة : أصبح للمدينة مسرح وجريدتان: لاديكاد إچيسان والكورييه ديچبت [٩٤] . ويؤمن بونابرت أنه يعضد من الروابط التى تجمع بين المنتصر والمهزوم بمشاركة الشعب المسلم فى العيد القومى للجمهورية» . ويلى هذا الكلام ، وصف للديكور الذى

بنى من أجل الحفل ، وهو يذكرنا بما رأيناه من رسوم للاحتفالات المسرحية للثورة فى فرنسا . على أننا نجد هنا مسلة عملاقة، مكتوب عليها : «إلى الجمهورية فى السنة السابعة . إلى طرد المماليك فى السنة السادسة» ، وباللغة العربية «هذه الآية (هكذا !) التى يعتز بها المسلمون لا إله إلا الله ومحمد رسوله» . وتصدح الموسيقى وتطلق الأعيرة النارية، ويمر الجند أمام القائد العام .. وما من كلمة طبعا ، عن مشاعر الجمهور إزاء كل هذا الاسراف فى استعراض القوة .

ولكن ، «يبدو الصفاء تاما بين الشعبين ، ومع ذلك ، فهناك فى قلوب المسلمين بذرة قديمة من البغض!، ويكفى بعض الفرمانات التى يوزعها مبعوثو (السلطان) حتى تنفجر الثورة ، دموية ، متطرفة ، والفتنة لا تفاجىء بونابرت ؛ فقد كان ينتظر منذ أمد بعيد أن يثور الشعب ضد حكومته . لقد اتخذ كل الاحتياطات ؛ كانت القلعة مسلحة وجميع أبواب المدينة قد نزعت حتى لا تعوق تحركات الجيش فى الضواحى المختلفة » .

فبونابرت لا يمكن أن يخطىء ، وما يفعله كله لا يدل إلا على بصيرته النافذة ! والملاحظ أن «الفتنة لا تفاجىء بونابرت» على عكس كل ما هو معروف عن ظروف قيام الثورة الأولى ، والدليل ، ما حدث أثناءها ؛ ولكن «ميز» لا يقبل أن يكون بونابرت غير مدرك لحقيقة

الشعور الشعبى و«يفاجأ» إنه ينتظرها «منذ أمد بعيد» : وصل بونابرت إلى الاسكندرية فى الثانى من يوليو وقامت الثورة فى الحادى والعشرين من أكتوبر ، فأين «الأمد البعيد» ؟! ولا يشعر القارىء إلا بمدى بربرية المصريين ، عندما يقرأ وصف «ميز» للثورة وأحداثها اللاهثة التى راح ضحيتها الفرنسيون المسالمون ؛ فالذى يحرك المتظاهرين «عنف دموى يسيطر حتى على القوى المجاورة للقاهرة ، حيث ذبح ثلاثة وثلاثون مريضا قادمين من بلبيس ، وقبل وصولهم إلى القاهرة» ، ولذا يجد القارىء نفسه متعاطفا مع ما يحدث بعد انتهاء الفتنة : «يندفع الفرنسيون ، المتعطشون للانتقام فى الشوارع ، يركضون إلى الجامع ، يحطمون القناديل ، يشوهون الكتب المقدسة وينهبون المتاجر المفتوحة» . والأسـلوب يجعل القارىء يعتقد - بما لا يدع مجالا للشك - أن ما حدث ، آنذاك ، "كان نتيجة حتمية ، بل وعادلة لما حدث من «عنف (المسلمين) الدموى» . ونجد هنا أيضا ، ما سيقال مرارا ، أن الثورة لم تقم إلا بتحريض من الخارج . وهكذا تكون تبرئة بونابرت والجيش من أية مسئولية فى إثارة ضغائن المسلمين .

أما عن «الحملة على سوريا» ، فما أجمل المعارك : دخول «رينييه» إلى العريش ، مثلا ، « من أجمل العمليات الحربية التى يمكن

إنجازها». وشروط استسلام الحامية على يدى بونابرت «شروط معتدلة نسبيا» . فلا يمكن لبونابرت أن يكون غير «معتدل» ،. لأن إنسانيته لا حد لها وفي غزة ، «يرسل بونابرت مفاوضا قبل إطلاق النار ، لينذر العدو كما هي العادة . ولكن الفرنسيين استشاطوا غضبا ، عندما رأوا، فوق سور المدينة ، رأس مندوبهم . وقد رفع على حربة . فيطلق أمر الهجوم وينطلق رماة الرمانات ، والنقابون وزارعوا الألغام والآخرون من الثغرة ثائرين ، ويهجمون على القلعة . يفقد العدو صوابه ذعرا ، ولا يعرف أين يذهب ، يبحث عن ملجأ في الطبايا ، على صخور الميناء حيث يأمل في الهرب على المراكب إلى عرض البحر . ولكن الجند (الفرنسيين) كانوا قد تعبوا من إراقة الدماء ، وفضلوا النهب . ولمدة ثلاثين ساعة ، يسلبون وينهبون يحولون المدينة إلى صورة بشعة لا يستطيع أن يتصورها المرء ، وقد كتب بونابرت قائلا : لم تبد لى الحرب أبدا بمثل هذه البشاعة ؛ أبدا» ..

وهكذا ، فهو مشكور لأنه لا ذنب له فيما حدث ، خاصة أنه يرى أن «الحرب بشعة» ويعني ذلك أنه غير راض عنها ، مجبر عليها إجبارا .

ولا يرى المؤلف تناقضا بين هذا الكلام ، وما يليه من أحداث ؛ فعندما يجد بونابرت نفسه ، بعد ذلك مباشرة ، أمام ثلاثة آلاف سجين، سلموا أنفسهم آمنين «لـ «بوهارنى» و «كروازييه» ، فإن المسألة تبدو

عسيرة فى بادىء الأمر ، ولكن بونابرت ، الحكيم الذى لا يخطىء فى قراراته أبدا ، يحلها بمنتهى البساطة ..» ما العمل؟ بونابرت يجزم القضية ، ويأمر بقتلهم جميعا .

«إن فتح غزة يمكن الجمهوريين من موارد مهمة تسمح لهم بسد متطلبات المراحل الأخيرة . فهناك مخازن المؤن والذخيرة الحربية ، وطاقم كامل لمدفعية ميدان» .. وهكذا ، تنتهى قضية قتل الأسرى .

ومرة أخرى ، تعترض بونابرت مشكلة تبدو عسيرة ، وهى فى تلك المرة ، مرض الطاعون . وكالمعتاد ، لا يتصرف إلا كقائد سام فى أحكامه وقراراته : «إنه لا يتردد» ؛ ويكون وصف زيارته للمرضى ؛ وبجانب النص ، رسم للوحة الشهيرة لزيارة بونابرت «لمرضى الطاعون فى يافا» إن بونابرت ، على حسب النص ، «يتصرف بهدوء تام ، وينظم التفاصيل الإدارية كلها ، ويجيب على من يلاحظ أن هذه الزيارة الطويلة لا داعى لها قائلا : هذا واجبى ؛ أنا القائد الأعلى ...» إنها الأسطورة، الأسطورة المثيرة لرجل فوق البشر ، يكاد يكون من الآلهة ، تحكى سيرته وكأنها سيرة قديس .

إنه فرنسى وسط أناس غير أوربيين ؛ ولكنه إذا فشل أمام عكا ، فذلك لأن «مصوبين من الدرجة الأولى وضابطا مهاجرا ، هو لى بيكار دى فليبو ، التلميذ السابق لمدرسة بريان (الحربية) ، وزميل بونابرت ،

جاءوا ليدعموا بمهارتهم الأوربية قوة المسلمين وصلابتهم» . إن الذى هزم الجيش الفرنسي أمام عكا ، ليس المسلمون ، ولكن أوربيين مثلهم ؛ فلا حرج من الهزيمة . أما عن حصار عكا ، «فكادت تقع» فى يدى بونابرت ، لولا الإنجليز ، خاصة أن فرق «دجيزار (الجزار) قد أضعفها حصار شهرين ، فلم تعد خطرا على أحد ، لذا قرر بونابرت أن ينهى الحملة على سوريا ويعود إلى القاهرة » ، وهكذا يتحول انكسار بونابرت أمام عكا وفشله إلى ما يشبه النصر ، مع أن المعروف أن صمود عكا هو الذى جعل بونابرت يقتنع أخيرا بفشل الحملة نفسها ما دام الهدف منها كان ، أيضا ، الوصول إلى اسطنبول عن طريق الشام ، ونلاحظ أن الإنجليز - وليس الجزار وقواته - هم الذين أوقفوا بونابرت فى تقدمه الكاسح ، فلا يليق بفرنسي ، وأى فرنسى ، «القائد الذى لم يهزم يوما» لا يليق به أن يكون سبب فشله من غير الأوربيين . كما أننا نلاحظ أن الحملة صورت وكأنها نزهة حربية كما كان «ديسى» فى الصعيد منتصرا على مراد بك .

وبونابرت معصوم من الخطأ ، حتى عندما يقتل جنده : إنه يجد نفسه ، وهو عائد بعد الحصار الفاشل لعكا ، فى مواجهة مرضى الطاعون من جنده ، خاصة من لا أمل فى شفائهم . فلا يجد بونابرت إلا حلا واحدا ، «فيأمر بإعطائهم كمية كبيرة من الأفيون حتى لا يموتوا

بأيدى الأتراك (...) فيموت معظمهم ، ومن استطاع أن يتقيأه يشفى من المرض ، وهؤلاء سيحكون على زملائهم ، بعد ذلك ، ما كادوا يلقونه من مصير» ، وتنتهى المشكلة بالنسبة للراوى ، الذى لا يعلق بكلمة واحدة على ذلك الحادث ، وكأنه لا أهمية له .

والطريق إلى القاهرة شاق، فيتذمر الجند : «فطريق الصحراء أنهك الرجال»، وبعضهم يرفض السير ويلعن الجنرال (...) ولكنهم عندما يشاهدون أول نخيل مصر ، تنتهى الشكوى ، ويعم الفرح» . إنه الفرح الذى نجده فى كل صفحة ، على الرغم من كل شىء ؛ فالملحمة ، كما يصورها لنا «ميز» ملحمة نصر وسعادة للفرنسيين .

أما الهزائم ، فهى فى حقيقتها ، ليست هزائم : فالمؤلف عندما يصف ، مثلا ، معركة «أبو قير» - التى دُمرت فيها السفن الفرنسية كلها ، فكانت أهم أسباب فشل الحملة - يتحدث عنها وكأنها مجد يضاف إلى أمجاد الفرنسيين ، لأن «المعركة لم تكن متكافئة» ، ولأن «المحاربين الفرنسيين كانوا من الأبطال» ، وهكذا يكون وصف المعارك الفرنسية كلها : فالجنرال ديسى «بعد انتصاره الباهر (على مراد بك) فى سيدمان ، طارد عدوه طوال شتاء بأكمله فى مصر العليا، وأخيرا ألقى به وراء سيان (أسوان) ، على طريق النوبة» . ويصل القارىء ، من ثم ، إلى النتيجة الخاطئة ، أن مراد بك انتهى ، وأن الصعيد فتح للفرن

الفرنسى . «ولم تكن حروب باقى الجيش ، بقيادة بونابرت ، أقل روعة... (ويحكى الحملة على الشام كما أسلفنا) . فالشتاء سيسمح له أن يمر دون مشكلات كبيرة فى الصحراء التى تفصل بين المدن السورية حيث يقابل التجمعات فى يافا (...) ودمشق » : إنه لقاء الأحبة ! .

وترتيبات بونابرت قبل رحيله إلى فرنسا ، تصور بالصورة المنبهرة ، نفسها، التى يعبر عنها الأسلوب المستمر لمؤرخنا . ولا يرى «ميز» غضاضة فى أن بونابرت «يفكر فى فتح باب المفاوضات مع الباب العالى» ، مما يدل على اعترافه بالهزيمة . ولكن «ميز» – بالطبع – لا يقول ذلك . إنه ينبهر بما كتبه القائد العام للسلطان ، كرؤية علوية للأمور والسياسة الحكيمة ، إذ يقول بونابرت فى خطابه «للإمبراطور سليم : عليك أن تستعد لنشر راية النبى ، ليس ضد فرنسا ، وإنما ضد الألمان والروس الذين يضحكون على حربنا الحمقاء ؛ فإنهم إذا رأوك ضعيفا ، سيرفعون رءوسهم ويعربون عن حقيقة مقاصدهم بصوت عال» . ولا نجد من يقول لنا إن بونابرت نفسه هو الذى أشعل تلك «الحرب الحمقاء» بغزوه مصر ، دون إعلان حرب على تركيا ؛ وحتى إن كان قد أعلن تلك الحرب ، فهو المعتدى على أرض غيره .

نصل أخيرا إلى الصفحة التى تتحدث عن رحيل بونابرت والتى تصف المركب الذى يحمل «أعظم رجل عرفته الأرض» ، وتكاد تكون

قصيدة شعر فى وصفها للرياح والموج، والقدر الذى ينتظر من تحمله .. إنها النهاية المنطقية للملحمة الرائعة التى أبهرنا بها المؤرخ ذو الخيال الشاعرى ، والمعلومات المشوشة المنقوصة ، والمنطق الاستعمارى العنصرى .

***

أما الجزء الثانى من الكتاب ، الذى كتبه «چورچ ليجران» ، فهو لا يتعرض إلا لبعثة العلماء . ومن البديهى أنه أكثر أمانة ودقة فى عرضه ، ويكون التحيز هنا لقوم وهبوا حياتهم للعلم ، ولم يجدوا من الجيش أى سند أو تقدير. ونجد فى هذا الجزء ما يفيدنا لتقييم الدور الحقيقى لبعثة علمية ، كان واجبها الأول ، خدمة الجيش وأهدافه.

وعلى الرغم من إعجاب «ليجران» الكبير بأعضاء البعثة ، واحترامه الذى لا حد له ، لشخصياتهم وإنجازاتهم ؛ فإنه يعتبر من القلة التى تحدثت عن الحملة بموضوعية نسبية ، تضيف إلى كتابته المصداقية الضرورية لأى تأريخ علمى محترم . وهو لا يحكى إلا ما يخص البعثة العلمية .

نعرف منه أن «مونچ وبرتولى وبونابرت ، هم الذين ابتكروا الخطة التكميلية لإلحاق لجنة للعلوم والفنون بالجيش المنتصر ، تكون مهمتها تحضير وتنفيذ استعمار مصر بعد ذلك» : هذه حقيقة المهمة التى سافر

من أجلها العلماء إلى مصر مع جيش الحملة ، «تحضير وتنفيذ استعمار مصر» لصالح فرنسا .

وعندما يتحدث «ليجران» عن أهداف بونابرت من وراء غزو مصر ، فهو يؤكد أن بونابرت كان «يحث (حكومة) الإدارة على أن تعهد إليه بجيش من اختياره ولجنة من العلماء . وفى المقابل ، يعاهدها هو على الاستيلاء على مالطة التي عرفت بحصانتها ؛ والاستيلاء على مصر الخصبة ، وطريق مفتوح إلى الهند ، بكنوزها الأسطورية» : الحملة إذن استعمارية بحتة ، بما فيها بعثة العلماء . ولا يمنع هذا المشروع الاستعمارى الخالص ، بونابرت من طلب : «الشاعر ديليل والموسيقى ميهول والمغنى لاييس ، الذى كان سيقوم بدور شاعر الملاحم الذى يتغنى بانتصار الجيش وهو على رأسه مثل (الشاعر الشهير) أوسيان وعلاوة على لجنة العلماء ، كان بونابرت يريد ممثلين ، وراقصين ، وخاصة راقصات... » ، ولكن الجميع اعتذر عن السفر فى اللحظات الأخيرة .

والهدف من لجنة العلماء واضح ، لأن « بونابرت سينشىء مستعمرة مثالية ، تكون جديرة به وبالفلاسفة وبأصدقائه» .

«كان بونابرت يحب العلماء إلى درجة قد تعادل حبه لجنده ، ولكن شريطة أن يكون هؤلاء الرجال – على الرغم من ملابسهم المدنية – نوى

منفعة له حتى يحقق مشروعاته الواسعة . كانوا سيسيرون ، حسب رؤيته ، جنبا إلى جنب مع جنده ، فيطيعه الجميع طاعة سلبية عمياء ، وتنضوى قيادة العلماء العليا تحت قيادته ، مثلما تنضوى قيادة الجيش أيام المعارك .

ولكن الجيش ، ضباطا وجنودا ، لا يحبون هؤلاء المدنيين ، ويتصرفون معهم بغلظة واستعلاء . وكان الجند يكرهونهم ويضطهدونهم ، لأنهم - على حد قولهم - هم الذين وضعوهم فى مأزق هذه الحملة . ويحكى أحد هؤلاء العلماء ما كان عليه أفراد الجيش من خلق قائلا : «إن كنت تقرأ صحيفة فى مكان عام ، ودخل ضابط عليك ، فهو يأخذ منك الجريدة دون أن ينبس بحرف . إذا وقفت فى طابور لدخول مسرح ، كان من حق أى عسكرى أن يتجاوزك ، ويمر أولا ، ولا يتحمل أن ينتظر . وهم لا يتحدثون إلا عن إلقاء الأزواج من النوافذ» ، للاختلاء بالزوجات . كانت هذه حقيقة عقلية أفراد الجيش الفرنسى ، حتى فى معاملتهم للمدنيين من الفرنسيين أنفسهم ، حتى وإن كانوا من كبار علماء عصرهم . ونتعاطف طبعا مع العلماء ، عندما نعرف بالتفصيل ما عانوه من سخرية وسوء معاملة من باقى أفراد الجيش . وإذا كانت تلك حالهم مع المدنيين من الفرنسيين ، فعلينا أن نتصور كيف كان جند ذلك الجيش يعاملون أفراد الشعب المهزوم .

نعرف مثلا كيف أن الجنرال «كافاريللى» كان يجهد مهندسيه ، إذ كان عليهم ، مثلا ، «إعداد مشروع نصب تذكارى للشهداء الذين سقطوا فى فتح الإسكندرية» دون مبالاة بالشهداء من العلماء . كما أن «الجنرال چيرار بدأ يغضب (...) لأن (اثنين من العلماء) كانا يبديان اهتماما واضحا بالآثار القديمة ، مما يتنافى مع تخصصهما كمهندسين للأشغال تحت إمرته من أجل عمل محدد . والمفهوم طبعا ، أن عملهما كان أساسا لمصلحة الجيش ، بينما كان للعلماء ، كما يكتب أحدهم ، هدف آخر عند سفرهم إلى مصر : « كنا نشعر ببعض الغبطة كلما فكرنا أننا سننقل إلى وطننا ، كل نتائج العلم القديم للمصريين . كنا سنحاول القيام بغزوة حقيقية باسم الفنون. كنا سنعطى أخيرا ، ولأول مرة ، فكرة حقيقية وكاملة عن الآثار التى لم يتحدث عنها الرحالة القدامى والمعاصرون إلا بصورة غير مرضية » . وبناء عليه ، فكلما مروا على أثر ، حفروا عليه كلمة : « الفرنسيون منتصرون فى كل مكان » . لكن الجيش كان لا يحبذ وجود هؤلاء العلماء معه ، مما جعل أحد أهم أعضاء الفريق العلمى ، وهو «چوافرا سان - هيلار» يكتب قائلا : « إن علماء القاهرة البائسين أُخذوا إلى مصر حتى تقرأ فى تاريخ بونابرت جملة مديح

أخرى ، ويُحتفظ بهم الآن حتى لا توجد جملة هجاء فى سيرة «كليبر» (...) فلم تتحسن حالنا منذ رحيل بونابرت (...) مع أننا نستحق الآن احترام مواطنينا أكثر من أى زمن آخر : لقد جمعنا مادة لأجمل عمل يمكن لدولة أن تنجزه (...) ونخشى من غيرة العسكريين . نعم يا صديقى ، إن هذا العمل سيبرر ، في يوم ما ، للأجيال القادمة ، الطيش الذى أصاب أمتنا حين ألقت بنفسها فى الشرق . سنتباكى على مصير كل هؤلاء الجند الشجعان الذين سقطوا فى مصر ، وسيكون وجود مثل هذا العمل الثمين هو العزاء الوحيد . سيجئ العصر الذى نرى فيه هذا الجيش ، نفسه، الذى لا هم له إلا تلطيخ وجهنا ، يتشرف بأنه رآنا وعرفنا ، فلننتظر ونعرف كيف نتعذب هنا بصبر» . نبوءة صادقة ، إذ نرى فيما بعد كيف أن «كليبر» قرر أن يتبنى مشروع نشر ذلك العمل ، وهو كتاب «وصف مصر» حتى يخفى به هزيمة الحملة وفشل أهدافها كلها . وأصبح هذا الكتاب هو الإنجاز الملموس الوحيد الذى تفخر به فرنسا بعد فشل الحملة .

ومن خلال التفاصيل التى يرويها «ليجران» ، نعرف أن الضابط المهندس «بوشار » كان «يقيم تحصينات طابية سان - جوليان» عندما اصطدم بحجر رشيد ، بالمصادفة البحتة .

ويصور لنا «ليجران» ، أيضا ، حياة هؤلاء العلماء، الذين أنشأوا «مسرحا للهواة ، وقاعات للتدريب بالسلاح ، ومحلا (ترفيهيا) . لقد أنشئ ، وفى زمن وجيز، حى فرنسى كامل، ولم تكن هناك علاقة بين ذلك الحى والحى الوطنى ، كما هى الحال اليوم » .

« وكانت صعوبة اللغة العربية أهم ما يمنع العلماء الفضوليين من الاختلاط (بالناس) ، ولكنهم تعلموا ، رويدا رويدا ، لغة اصطلاحية تسهل معرفتها وهى التى يستخدمها الأوربيون حتى يومنا هذا وتعتبر بالنسبة للعربية السليمة مثل لغة الزنوج الفرنسية مقارنة باللغة الفرنسية الفح ، وقد اكتفت بها الغالبية العظمى من العلماء» . لغة تكفى الحياة اليومية ومتطلباتها .. وهل كانوا يحتاجون إلى أكثر من ذلك ؟ لذا اكتفوا بها ! ثم إننا لن نسمع أن لقاء فكريا أو حوارا سياسيا دار بين أحدهم والمصريين .. وهل كانوا فى مصر من أجل ذلك ؟

ونظرا لأن هذا الموضوع محدود ولا يحتمل الكثير ، فإن «ليجران» ينهى - باقتضاب شديد - هذا الفصل بالأسطر التالية : « كان تأثير المعهد (الفرنسى) كبيرا جدا على مصر ، فقد أعدت فيه - للمستقبل - كل الإنجازات والمشروعات الكبرى، وكان كل فرد فيه يكن حبا عميقا للعلم ، ولا يتهاون فى مجهوداته، لكن هذه الجمعية الشهيرة لقيت ، بعد ذلك، مصير الحملة نفسه ،وبعدما عادت إلى فرنسا ، أخذت تجتمع فى

باريس ، ونشرت أبحاثها من العام الثامن من الثورة (١٧٩٩ - ١٨٠٠) ، إلى العام الحادى عشر منها (١٨٠٢ - ١٨٠٣) ، وقد حل محلها ، بعد ذلك ، كتاب « وصف مصر الكبير ». وانتهى تاريخ المعهد الفرنسى .

لا يقول «ليجران» إن ثورة القاهرة قامت بإيعاز من الخارج بل على العكس من ذلك ، فهو يقول : « كان سكان القاهرة ناقمين على المهندسين ، مجندين ومدنيين ، لأنهم أرادوا بناء حصون حول المدينة ، كما كانوا يمرون على الأحياء ليسجلوا المنازل والسكان ، من أجل فرض ضريبة الأملاك» ؛ لذا كان بيت العلماء أول مكان هجم عليه الثوار. ويصف لنا «ليجران» كيف دافع العلماء عن أنفسهم بشجاعة مع أن كثيرا منهم كان يمسك البندقية لأول مرة فى حياته. ونعرف من خلال وصفه للثورة أن أحد الشوارع الرئيسية «كان اسمه شارع ديپتى - توار، وهو الذى مات ميتة مجيدة فى أبو قير ...». ونذكر هنا أنه على الرغم من قيام الثورة بعد شهرين فقط من وصول الفرنسيين ، إلا أن أسماء الشوارع كانت قد تحولت إلى أسماء شهدائهم .

أما عن فتح قناة تربط بين البحرين الأبيض والأحمر ، فإن المؤرخ يحكى التاريخ الطويل لهذه الفكرة ، منذ أن كانت هناك قنوات اتصال مع البحر الأحمر عند الفراعنة ، و «استطاع (عمرو بن العاص) أن

يعيد ذلك الاتصال في أقل من سنة ، مما جعل بونابرت يفكر في محاكاته ، بعد آخرين كثيرين» ، وقد شجعت حكومة «الإدارة» المشروع، فحث بونابرت المهندس المسئول على السير في هذه الطريق قائلا : « انشر بحثا في هذا الأمر ، واجبر الحكومة التركية على إيجاد مصلحتها وعظمتها في مثل هذا المشروع » : كلام يؤكد للمؤرخ أن بونابرت كان لا يؤمن بالفكرة ، خاصة أنه كان على وشك العودة إلى فرنسا ، ولم يترك لخليفته «كليبر» أي توجيهات في هذا الشأن .

ومن الاعترافات الضمنية لهذا الجزء من كتابنا اعتراف كاتبه بأن صعيد مصر لم يكن في قبضة الفرنسيين كما كان يدعي الكثيرون ، وأولهم شريكه في تأليف الكتاب «چان ميز» ، فهو يصف الظروف الصعبة التي عمل فيها العلماء ، و «دينون» مع حملة «ديسي» على الصعيد : « وهم يحاربون في كل خطوة» ، ويعرض علينا نصوص الكتابات التي نقشت على الآثار ، ويحكي «ليجران» كيف انبهر الجميع، جندا وعلماء ، بجمال تلك الآثار ، فتحمس «ديسي» لها ، وكتب لبونابرت حتى يتم نقل المسلات إلى باريس .

وفي الجزء الأخير من الكتاب - الفصل السابع عشر تحديدا- نتعرف على ما عاني منه العلماء حتى لحظة رحيلهم ، من معاملة سيئة ، حتى من «مينو» القائد العام آنذاك : عندما استعد العلماء للرحيل،

ومعهم صناديق بها ثمرة أبحاثهم ، «ظن الجند أن هذه الصناديق الثقيلة تحوى كنوزا ، فقرروا نهبها ليلا ، وعلى الرغم من مجهودات العلماء إلا أن الجنود استطاعوا سرقة أحدها ، وعندما كسروه ، لم يجدوا به إلا عينات من معادن سيناء» فاستشاطوا غيظا وألقوها كلها بعيدا . عندئذ ، وصل (أحد الضباط) فجعل العلماء وأمتعتهم تحت حمايته (....) ، وأوصلهم سالمين إلى الإسكندرية » . أصر «مينو» – بعد ذلك – على الاستيلاء على ما جمعوه كله ، « ورفض العلماء بشدة، ولكن المهندسين اضطروا إلى ترك رسومهم وأبحاثهم ، وصار على كل منهم أن يكتب تعهدا بأنه لم يأخذ معه شيئا يفيد الموقف السياسى أو الحربى لمصر » .

وينهي «ليجران» الجزء الخاص به بقوله : « وجاء بعد علماء الحملة ، آخرون ، لا يقلون عنهم شهرة ، أعطوا لمصر أحسن ما لديهم من علم ، وأصفى ما فى قلوبهم . إنهم جند مثل الكولونيل سيف (سليمان باشا) وأطباء مثل كلوت وغيرهم كثير » .

«لابد لمؤرخ أن يقوم بدراسة مستفيضة لهؤلاء كلهم، ليعرفنا بالمتممين المحترمين لزملاء بونابرت » : نتعرف هنا على الوجه الآخر لملحمة الجيش الفرنسى فى مصر، إنها أسطورة علماء الحملة الذين حضروا إلى مصر وتأثيرهم عليها فنحن نجد أن بعضا ممن خدم محمد

على من الفرنسيين ، بعد مرور أكثر من ربع قرن على الحملة ، قد صُوروا كما لو كانوا جزءا من تلك الأسطورة ، لكن الواقع ، الذى يؤيده نص «ليجران» نفسه ، يؤكد عدم وجود أى ارتباط بينهما . فنجد ، من ناحية ، مرتزقة أجبرتهم ظروفهم الخاصة ، وظروف بلدهم ، على خدمة مصر ولحساب واليها ، وعلى الناحية الأخرى ، نجد علماء جاءوا مع حملة لم تدم أكثر من سنوات ثلاث وشهرين، لينقلوا إلى فرنسا ثمرة أبحاثهم . فلماذا يطمس هذا الفارق الجوهرى فى ظروف كل من الفريقين ، اللذين عملا لأهداف ، هى ؛ فى الواقع ، متناقضة ؟

فى الجزء الأول من كتاب « ميز وليجران» ، نرى نموذجا للأسلوب الساذج فى انبهاره البدائى المتطرف ، الذى كان يكتب به مناصرو انتشار الاستعمار فى الدولِ التى لا تستطيع منافسة القوة العسكرية الحديثة للجيش الفرنسى . وكان هذا النوع من الكتب ، يساعد المواطن الفرنسى على محو ذاكرة الهزيمة النكراء أمام البروسيين فى حرب ١٨٧٠ . وكان التمجيد المستمر لكل ما يقوم به الجند الفرنسيون ، يصور وكأنه أفعال بطولية وشريفة ؛ ناهيك عن كونهم جند «نابليون العظيم» ، قاهر أوربا كلها .

وقد استمر هذا الأسلوب الشوفينى - الساذج المنبهر - حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، والتى كان من أهم أسبابها ، الانتقام من

الامبراطورية الألمانية، حيث إنها كانت قد أذلت فرنسا فى عام ١٨٧٠ ، حتى أن تتويج « غليوم الأول» امبراطور ألمانيا الموحدة أخيرا ، تم فى قصر «ڤرساى» الشهير فى فرنسا .

وعلى الرغم من الانبهار المستمر بالحملة وجيشها الرائع ، إلا أن الرؤية بدأت تتحول ببطء ، على مر السنين .

والنموذج الذى نقدمه الآن كدليل على ذلك التطور ، هو كتاب «باستر» : «بونابرت فى مصر» ، المنشور سنة ١٩٣٢ (٩٥) .

بدأ المؤرخ بالاعتراف بحقائق لم يعد من الممكن تجاهلها وإن كانت الأسطورة لاتزال أقوى من أى تفكير علمى، لأن الفكر الاستعمارى لايزال سائدا. فالرؤية التى تحاول أن تكون موضوعية ، تصل فى النهاية ، إلى نتائج غريبة متناقضة ؛ لأن المؤرخ المزعوم لم ينتهج الموضوعية فى تقييمه للأطراف والمواقف ، كما سنرى .

فيقول «باستر» ، مثلا : «كان كل من يقود هذه الحملة من الشباب ؛ وربما كان هذا سبب قيامها بأعمال رائعة» .

وللقارئ أن يعجب لذكر تلك «الأعمال الرائعة» بهذه الصورة المبهمة، خاصة عندما يصل إلى نهاية الكتاب ، وما انتهى اليه المؤلف ذاته من نتائج فى تقييمه النهائى لأعمال الحملة .

بادئ ذى بدء ، فإن «باستر» لا يبرئ نابليون من عيوبه ، فهو يذكرنا مثلا أن «بونابرت قرر ، أيضا ، أن يصطحب معه شاعرا لينشد أمجاده بلغة الآلهة ... » ، أى أن مجد بونابرت الشخصى كان له الاهتمام الأول فى استعداده للحملة على مصر . ونرى كذلك أن مؤلفنا يقيم احتلال بونابرت لجزيرة مالطة بأسلوب مزدوج : «لقد رفع بونابرت عادة النهب إلى مستوى المؤسسة ، مثلما فعل يوليوس قيصر من قبل» ، فإن كان بونابرت ناهبا ، فهذا لا يقلل من شأنه ، إذ إن يوليوس قيصر كان يفعل ذلك من قبل ! كما سنلاحظ أيضا تحامل «باستر» على المسلمين ، فهو يكرر ، مثل غالبية المؤرخين الاستعماريين ، الأفكار المسبقة التى يحملها كل من تعامل مع المستعمرات الإسلامية، نراه يقول ، مثلا : «ولكن (السيد) كريم ، مثله فى ذلك مثل كل مسلم ، كان يكّن الكراهية للمسيحيين» ، وهكذا تحول من تاجر إلى محارب . ولم يخطر ببال مؤلفنا لحظة واحدة ، أن «المسيحيين » الممثلين فى جيش بونابرت ، ذهبوا إلى السيد كريم غازين. وتعبيراته فى وصف «الهجوم الخاطف» المنتصر على الإسكندرية ، تفضح وجهة نظرة تلك ، حيث نراه يقول معقبا : «كما كان يحدث أيام الحروب الصليبية» . فذكرى الماضى تهيمن كلية على تفكيره ، وهو لا ينكر الفظائع التى ارتكبها الجيش الفرنسى ، معترفا بالواقع المرير : «ولكن ذهب رجال ونساء وشيوخ

وحتى أطفال إلى أحد المساجد حيث ذبحهم جنودنا لأنهم كانوا في حالة من العنف الجنوني الذى عادة ما ينتاب الجند عند الهجوم». كيف لا نسامح هذه الفعلة الشنعاء ونتفهمها إذن ، مادامت تلك «عادة الجند عند الهجوم» ، خاصة أن بونابرت قد «أصدر أوامر صارمة ، (....) فمن لم يحترم السكان أو من يهين ديانتهم ، أو يسخر من عاداتهم ، أو ينهب ، أو يقصر فى احترام نسائهم ، سيعدم على الفور رميا بالرصاص» . وبما أن أوامر بونابرت كانت ، ولابد ، مطاعة ، يكون انطباع القارئ ، إذن ، أن هذا ما كان يحدث بالفعل ، خاصة أن المؤرخ لم يعرض علينا حدثا واحدا ، خرج فيه الجند على طاعة تلك الأوامر. فلا مناص للقارئ إذن من أن يجل مثل هذا القائد وجيشه فهما اللذان صانا شعبا وفدا ليه ، بكل هذا الاحترام .

و«باستر» معجب جدا بعبقرية بونابرت السياسية ؛ ألم يقل للمصريين « بسخرية مترفعة : نحن، الفرنسيين ، مسلمون بحق .. » ؟ وهذه «السخرية المترفعة» تعليق من المؤلف ، فإن شرح مؤرخنا شيئا ، فهو لا يشرح عقلية بونابرت ، بقدر ما يشرح رؤيته هو للجمهور المصرى الذى استمع إلى كلام بونابرت . ويتأكد هذا الانطباع ، عندما نقرأ ما قاله مؤلفنا بعد ذلك : «والنتيجة أن المشايخ والعلماء تعهدوا فى الرابع من يوليو ، أن يؤثروا على الجماهير لصالح بونابرت ، لأنهم قد

اقتنعوا بقول بونابرت بأن «الفرنسيين مسلمون بحق..» ، وتتوالى أدلة انبهار المصريين بالمستعمر الجديد ، لأن بونابرت ، مثلا «فكر أن يدخل إلى مصر طواحين الهواء ، وهو ما فعله العلماء (الفرنسيون) فيما بعد ، فكان سبب انبهار الشعوب» . كما أن بونابرت «أطلق منطادا» ولابد أنه أذهل الجمهور المسلم ، ولكن «باستر» لم يقل الحقيقة الكاملة ، وهى أن المنطاد سرعان ما سقط فكانت الكارثة والسخرية كما قال الجبرتى حين قدم وصفا ساخرا للحادث ، ولكن باستر لم يقرأ حتى ترجمة الجبرتى.

ويستمر «باستر» قائلا :

« إن بونابرت استطاع أن يكتسب المشايخ : أغدق عليهم « البقشيش » السخى بكرم شديد حتى أن هذه الشخصيات الكبيرة التقية ، وجهت إلى المصريين بيانا بما كان يريده بونابرت ، قائلين : الجنرال الجمهورى يحترم محمدا ، إنه رسول الله ولابد من الخضوع للقدر ولسيد الساعة . ولكن الازدواجية الشرقية ، تعادلت هنا مع الدهاء الكورسيكى (لبونابرت) ، ففى الوقت ذاته ، كانت شرطة بونابرت المتميزة ، تجهل أن هؤلاء المتدينين ، أنفسهم ، يرسلون سرا إلى السلطان (العثمانى) رسائل ، يتوسلون فيها إليه أن ينظم جيوشا تنجد مصر فى أسرع وقت ، لأن مغامرا كان قد استولى عليها » . وعلى الرغم من اعتراف مؤلفنا بهذه الحقيقة

التاريخية ، التي تؤكد فشل بونابرت في كسب ود المصريين ، ومن ثم ، فشل «سياسة البقشيش» ، إلا أننا نراه يكتب قائلا : «ولكن بونابرت قد اكتسب دون أدنى شك ، وبسرعة فائقة ، هيبة كبيرة جدا ، كبيرة لدرجة أن الفلاحين المصريين ، وبعد مرور مائة وثلاثة وثلاثين عاما ، مازالوا يتحدثون عنه في سهراتهم» . ولم نعرف ماذا يقول هؤلاء الفلاحون في تلك السهرات ، بل ولا من أين عرف مؤلفنا هذه المعلومة غير الموثقة . ويتكرر الأمر فيما يخص حملة الجنرال «ديسى» في الصعيد : «وبعد مرور مائة وثلاثين سنة ، لا ينسى سكان مصر العليا مروره» . ومرة أخرى ، لا يقول ما الذي يذكره «سكان مصر العليا عن مروره» . وفي الحالتين كلتيهما ، فالأسلوب يوحى بأن ما يقال ، ينم عن الانبهار والحب .

ويستمر الكتاب في عرض الحقائق التي لم يعد من الممكن إغفالها ، ولكن بطريقة غريبة لا تدل إلا على شئ واحد ، وهو الرغبة الجامحة للمؤرخ في تأكيد عكس ما يقدمه من وقائع . فمثلا نراه يقول : على الرغم من أن مصر قد كسبت الكثير من السيطرة الفرنسية ، إلا أن بونابرت كان يدرك أنه لن يغزو قلوب المسلمين ، وأن حائطا لا يمكن كسره كان يفصل بين المسيحيين ، حتى إن كانوا غير مؤمنين ، كما كان جنده ، وبين الكفرة . و«الكفرة» هنا هو الاسم الدارج للمسلمين

عند كثير من الكتاب الفرنسيين . والقارئ الموضوعي المنطقي ، لا يسعه إلا ملاحظة أن ما كسبته مصر من السيطرة الفرنسية ، كلام عام لا يؤيده مرجع أو حتى مثل واحد في كتاب «باستر» هذا .

و«فجأة ، من الحادي والعشرين إلى الثالث والعشرين من أكتوبر ، انفجرت ثورة في شوارع القاهرة . وبونابرت ، الذي لم تنجح وداعته ، أثبت سلطته المعتادة ، (...) . فقد فهم نابليون بونابرت أن نظريات القرن الثامن عشر الفلسفية والإنسانية ، لم يكن لها مجال تطبيق في الشرق» : هكذا كان الأمر إذن : بونابرت ، تلميذ إنسانية التنوير الذي جاء ليطبقها في مصر ، فهم أن البلد دون هذا المستوى ، ولا يصلح معه الأسلوب الإنساني لفلسفة القرن الثامن عشر . إن كان بونابرت قد جار وهو في مصر ، فالذنب ليس ذنبه ، بل ذنب الشعب المصري الذي لم يفهم ، ولم يحترم إنسانية الجيش الغازي . حقيقة مرة ، خاصة أن التأثير الفرنسي الرائع كان سريعا في تحضير القاهرة : «أصبحت القاهرة ، بعد بضعة أسابيع (من دخول الفرنسيين) ، عاصمة أوربية كبيرة ، واحة للحضارة الغربية ... وأراد بونابرت أن يدهش المدينة بأحد احتفالاته العسكرية التي برع في تنظيمها . وقد أنشد الشعراء المسلمون في وصف الاستعراض العسكري».و«باستر» ، الذي اعترف من قبل أن بونابرت قد أحضر معه من ينشد أمجاده ، لم يفكر لحظة

أن ما حدث فى هذه المرة أيضا ، كان بأمره ، أو تملقا للحاكم المنتصر، الذى يحب التمجيد ، بل وينتظره ممن هم تحت سيطرته . فما بالك بحال المدنيين المهزومين ، والوصوليين منهم بالذات ؟

وأثناء مروره على يافا فى الطريق إلى عكا ، «أصبح بونابرت فى قسوة الغزاة الشرقيين . (فعندما استسلم له الأسرى العثمانيون) ، أمر بإعدامهم على الفور وكان عنده منهم آلاف كثيرة . قد يبرر هذا التصرف مقتل مبعوثنا ، ولكن هذا لا يمنع أن الفعلة كانت شنيعة ، وهى تلقى بغلالة على مجد بونابرت فى مصر» : ولكن ، ألم يقل «باستر» ، فى أول كلامه ، ما يعنى أن تلك «الفعلة الشنيعة» ما كانت تحدث لولا تأثر بونابرت بالشرق ، وأساليب «الغزاة الشرقيين» ؟ وإذا هزمه الشرق أمام عكا ، قال : «لم تستطع عبقرية بونابرت شيئا هنا . فقد كان أمام قوة (خارقة) من الطبيعة» . وهذا يعنى أن الذنب ، مرة أخرى ، ليس ذنب بونابرت ... وأن هزيمته تلك لم تكن تقصيرا منه ، ولا ترجع حتى لبطولة أهل عكا ، فى الدفاع عن أنفسهم ووطنهم .

وما دام «باستر» قد اقتنع بأن إعدام الأسرى فى يافا كان «فعلة شنيعة» ، فلماذا إذن لم يتفهم تأثير مثل تلك الجريمة على نفسية جنود آخرين يوقنون أنهم لن يلقوا إلا الموت على يدى بونابرت ، إذا هم استسلموا ، فيكون رد فعلهم ، من ثم ، المقاومة البطولية المستميتة ؟

وعندما فشل حصار عكا ، نراه يقول : «ومن جهة أخرى ، لم يعد لدى بونابرت أى وهم (عن حقيقة الموقف) ، فسياسته الإسلامية قد فشلت تماما . فعلى الرغم من انتصاراته ، وهيبته التى أصبحت أسطورية ، كان بونابرت ، بالنسبة للمسلمين ، لا يزال يلقب بالكافر ، الجدير بالجحيم ، وبالكلب ابن الكلب» ، فذنب بونابرت الوحيد ، أثناء وجوده فى الشرق ، أنه مسيحى : هكذا يرى «باستر» السبب فى فشل الحملة .

فالمسألة عنده ، إذن ، تكاد تكون حربا صليبية جديدة ، إذ إنه يقول عن أحد انتصارات الجيش الفرنسى فى الشام : «ستة آلاف فرنسي هزموا سبعة وعشرين ألف تركي ! وفى هذا المكان نفسه ، فى الخامس من يوليو سنة ١١٨٧ ، هزم المسلمون جي دى لوزينان ! يا له من ثأر !» . ولنتذكر القارئ الكريم أن هذا الكلام كتب عام ١٩٣٢ ، أى بعد أكثر من سبعة قرون من الزمن . وهذه الروح قد تكشف مدى موضوعية مؤرخنا الجزئية عند الحديث عن بونابرت ، الذى لم يكن يحارب من أجل مجد المسيحية . فبعد عودته من الشام : «كان بونابرت يلجأ لوسيلة بسيطة ليشرح فشله لحكومة الإدارة ، فهو لا يتحدث إلا عن انتصاراته ، وقال إن عكا كانت فى قبضته ، وكان فى استطاعته احتلالها بقواته ، لولا أنها كانت تعانى من الطاعون ! وأنه

تنـازل عن احتـلالها خـوفا على جيشـه مـن العـدوى ، وليس لأى سبب آخر» .

وبينما كان بونابرت أمام عكا ، كانت الأحداث فى مصر تشكك فى هذه الهيبة التى يتحدث عنها «باستر» : «ففى حين كان ديسى يعيد السلام إلى مصر العليا (...) كلفتنا ثورات الأمير «هادج» (حاج) بعض الصعوبات التى سرعان ما أزيلت . إن العصابات المسلمة غير المنضبطة ، لم تستطع أن تصمد أمام سناكى مشاتنا أو سيوف فرساننا . ومع ذلك ، فالأمير «هادج» تسبب فى مضايقتنا بسبب تحركاته السريعة» . ونحن نعجب هنا لحنكة الأسلوب وخبثه ، ونلاحظ طبعا استعمال كلمة «مضايقات» للتقليل من شأن ما تكبده الجيش الفرنسى من خسائر نتيجة مقاومة أهل الصعيد ، وكذلك بسبب ثورة الدلتا التى انتشرت كالنار فى الهشيم : «كانت الدلتا كلها تقريبا فى حالة ثورة . كان أحد المتعصبين ، وهو مهووس أرعن من النوع الذى يفرزه الإسلام دائما ، يمر على الأقاليم مؤكدا أنه مرسل من الله ، يحمس السكان ليأخذوا السلاح ، ويحثهم على الانقضاض على الفرنسيين . كانوا يسمونه «الملاك المُهدى» . وكان يدّعى أنه نزل من السماء على فرس اسمه «البورق» (...) واتبعه بضعة آلاف من المتعصبين المتطرفين ، وقد هجموا على دمنهور ، واستولوا عليها وقتلوا

حاميتها الصغيرة» : هكذا ، «فالحامية صغيرة» ، ولذا هزمت ، والثوار كانوا من المتطرفين الذين لا يؤمنون إلا بالخزعبلات ، فأصبحت محاربتهم حقا ، وثورتهم تخلفا وجهلا . كان هذا هو عدو الفرنسيين فى مصر ، فى حين كان بونابرت ، فى عكا ، يثأر لهزيمة الصليبيين فى القرن الثانى عشر فى بلاد الشام . ولم يعرفنا «باستر» بما صارت عليه دمنهور بعد تلك الأحداث ...

«باختصار ، كان بونابرت يفعل المستحيل حتى يرفع من هيبته التى اهتزت لفشله أمام عكا . كان يمجد انتصاره فى جبل طابور (بالأرض المقدسة) (...)» .

«وفى الوقت نفسه ، أخذ يحتفل فى القاهرة بانتصارات جيش سوريا فى احتفالات رائعة (...)» .

«كان مجدا لا حد له ... وكان ، أيضا ، فشلا دمويا ...» .

هكذا صور لنا «باستر» الحملة فى مصر والشام . فما الذى استخلصه من هذا التاريخ العاصف ؟

«ما الذى تبقى من كل هذا المجهود الجبار ، وهذا الفيض من العبقرية والقوة ؟ ، ما الذى تبقى من الحملة على مصر وهذا الحظ المدهش والسلطة الكاملة لبونابرت ، «سيد النار» ، «السلطان الكبير» كما كان يقول المسلمون ؟ لم يبق شئ ، غير المجد والزخارف

على الأثاث ، فلولا غزو مصر ، لما وجد «النمط الأمبير» (الامبراطورى) (...) ولكن لم يكن كل شئ فانيا فى هذه الحملة الهائلة . كل هؤلاء الأناس الطيبين لم يقتلوا ولم يموتوا بالطاعون هباء . فحيث فشل الجيش ، نجح المعهد (الفرنسى بالقاهرة) نجاحا يفوق أى توقع . فعلماؤنا ، ومثقفونا ، وفنانونا ، فتحوا للعالم كنز الآثار المصرية . وبعد قليل ، سيفك «شامبليون» رموز اللغة الهيروغليفية . لقد اكتسحت العبقرية الفرنسية ضفاف النيل . فمنذ هذا اليوم ، أصبحت لغتنا هى لغة كل من كان له شأن فى مصر ، وأصبح كل مثقف مصرى ينظر نحو فرنسا ، (...) إن المصريين لا يحتملون الإنجليز ، ولكن كانوا سيستقبلوننا بتسامح ودى ، فقد فعل الزمن فعلته ، لقد نسيت قرارات بونابرت التى اتسمت ببعض الشدة ، ولم يعد أحد يذكر إلا المحاسن الإدارية ، وانتصاراته المبهرة . فكل المثقفين المصريين يشكرون ، فى صميم قلوبهم ، الكورسيكى الكبير الذى خلص مصر من عبء المماليك . ثم بقى المجد ، فشبح الجنرال الشاب على حصانه الأبيض المعروف ، لا يفترق عن القاهرة والأهرامات . كل من يعيش فى مصر وكل من يمر عليها ، يظن دائما أنه سيرى ، عند ناصية الشارع ، منتصر «أبو قير» متوجا ببريق السناكى» : حديث غريب ، وكأن مؤرخنا يكتب بعد خروج الحملة

ببضع سنوات ، وكأن العقود التى مرت على مصر والعالم ، لم تغير شيئا منذ عام ١٨٠١ . والسبب لا علاقة له ، طبعا ، بالتاريخ العلمى الأمين ، لأن «باستر» ، مثله فى ذلك مثل كثير من المفكرين الفرنسيين - منذ عام ١٩٣٢ ... وحتى يومنا هذا ! - لا يزال يأسف على عدم اشتراك فرنسا فى غزو مصر وضرب الإسكندرية فى عام ١٨٨١ . وضاعت «ثورة الدلتا» ، و«سلام مصر العليا» ، وجرائم بونابرت كلها فى طى النسيان لأن «باستر» يريد ذلك ، كما يريد أن تكون نهاية المماليك على يد بونابرت وليست على يد محمد على . فهو فى التحليل الأخير ، لم يقدم لنا من محاسن الحملة إلا عبقرية «شامبليون» ، علما بأن علماء إنجليز وفرنسيين ، فكوا رموز اللغة الأكادية القديمة ، فى العصر نفسه ، ودون أن يحتاجوا إلى حملة عسكرية تساعدهم فى دراستهم العلمية ، إن كانت الحملة قد أفادت «شامبليون» حقا .

★★★

إن ما توصل إليه «باستر» من نتائج ، وتعليقه عليها ، يثبت لنا أن تأريخه لم يكن بريئا ، فهو يريد أن يثبت بشتى الطرق أن الحملة لم تكن فاشلة من جميع النواحى . والغريب هنا أنه ، هو نفسه ، قد اعترف بذلك فى سياق الحديث ، ملاحظا أن «الزخارف على الأثاث»

هى الحقيقة الوحيدة التى نتجت عن الحملة . ولو أضفنا إلى هذا الرصيد الساخر الهزيل ، دراسات «شامبليون» ، كان علينا أن نسجل أن الفضل فيها لا يرجع إلى الحملة فى ذاتها ، ولكن إلى اكتشاف حجر رشيد ، بالمصادفة البحتة ، والذى كان سيكتشف إن عاجلا أو آجلا ، خاصة أن فك رموز اللغة الآشورية لم يرجع إلى «اكتشاف حجر آشورى» بالذات .

إن حصاد الحملة ، وعلى حد قول «باستر» نفسه ، كان هزيلا . أما أن الفرنسيين كانوا سيُستقبلون فى مصر سنة ١٨٨٢ بالأحضان لأجل بونابرت ، على عكس ما حدث للإنجليز المحتلين ، فما هذا إلا تهويم شوفينى ليست له قيمة علمية ، أو حتى إنسانية . فمنذ متى تستقبل الأمم - مهما ضعف شأنها - غزاتها «بتسامح ودى» كما يحلم «باستر» ؟

إن مثل هذا التأريخ - والأمثلة كثيرة مع الأسف الشديد - يجبر أى دراس على قراءة غير بريئة لكتابات مؤرخين أثبتوا أنهم ، قبل كل شىء ، أصحاب هوى وغرض ، وإلا ، لم طُمس كل تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر ، ودور اسماعيل باشا فى إعادة العلاقات الودية مع فرنسا ، وبالتالى ، تحولُ بعض مثقفينا إلى فرنسا ؟

إن كتاب «باستر» ليس الوحيد من نوعه ، وسنجد الكلام نفسه فى كتب أخرى ، من أشهرها كتاب «بينوا – ميشان» الذى سنعرض له فى الصفحات التالية .

★★★

« بينوا – ميشان » : «بونابرت فى مصر أو الحلم الذى لم يتحقق »

كتب المؤرخ «إميل بورچوا» ، فى عام ١٩٠٠ ، أن : «سر سياسة الإمبراطور (نابليون) يكمن فى طرقات المشرق ، فى الافتتان الذى جذبه إلى الشرق » . وفى عام ١٩٦٦ ، كتب « بينوا – ميشان » عن « بونابرت فى مصر أو الحلم الذى لم يتحقق » [٩٦] كتابا يرتفع بهذه الفكرة إلى مستوى النظرية ، ليشرح أن حياة نابليون ، السياسية الحربية ، كلها ، ما كانت إلا من أجل تحقيق هذا الحلم .

ويبدأ مؤرخنا بإشارة «تاليران» إلى ضرورة غزو مصر قائلا : «كانت مصر مقاطعة فى الجمهورية الرومانية ، ويجب أن تصبح كذلك بالنسبة للجمهورية الفرنسية» .

«غزو الرومان كان سبب انهيار هذا البلد الجميل ، وفتح الفرنسيين سيكون سبب رخائه» .

«سرق الرومان مصر من ملوك اشتهروا بالآداب والفنون (...) وسيسلبها الفرنسيون من أبشع طغاة عرفهم التاريخ...» . وأسلوب مؤرخنا يدل على تعاطف كبير مع تلك الأفكار، ولذا، نراه يبرز فقرة فى قرار حكومة «الإدارة» بفتح مصر، تشير إلى أهمية «تحسين أحوال أهل البلد بكل الوسائل المتاحة..» . ولذا، سيبرهن لنا «بينوار – ميشان» حسن نية بونابرت عند غزوه مصر، واتجاه سياسته من هذا المنطلق.

عندما استولي بونابرت علي جزيرة مالطة، «حرر كل المسلمين المحكوم عليهم بالأشغال، وكانوا حوالي السبعمائة (...) توصل إلى فكرة إعادتهم إلى مصر، واعتبارهم «روادا» فى المدن والواحات، للإعلان عن قوته وسماحته في كل مكان، وحتى يخبروا إخوانهم فى الدين أن الجيش الفرنسى هو مقدمة الحرية» . ثم نقرأ البيان الذى يقول فيه بونابرت لجنده، على السفن المتجهة إلى مصر، إن «الشعوب التى سنذهب إليها تعامل النساء بطريقة مختلفة عنا، ولكن المغتصب يعتبر وحشا فى كل البلاد».

«السلب لن يثرى إلا القليل، ولكنه وصمة لشرفنا، وتدمير لمواردنا، ويحولنا إلى أعداء لشعوب، من مصلحتنا أن تكن لنا الصداقة...»، وعلينا أن نفهم، طبعا، أن الجيش التزم بهذه التوجيهات (!) . وعندما ترك بونابرت الإسكندرية، أكد فى تعليماته «لكليبر» قائد المنطقة،

«ضرورة تأكيد العلاقات الطيبة مع الجمهور المسلم : ... أحرم على كل فرنسى، سواء كان جنديا أم غير جندى، أن يدخل المساجد كما سبق (...)، وستؤكد للجيش أوامرى الخاصة بالاغتصاب والنهب ...» .

ويقول المؤرخ بأنه بعد «معركة الأهرامات (...) وُجد أربعون مدفعا تركيا مثبتة على الحوامل فى أرض المعركة»، مما يدل، من جهة، على أن المماليك كانوا يستعملون المدافع، ويوحى من جهة أخرى، بأنها لم تستعمل فى المعركة.

ثم يكون اللقاء مع المشايخ، فى القاهرة بعد فتحها: بدا عليهم الذهول عند رؤية القائد الشاب النحيف : « صدمهم فى أول الأمر أسلوبه الفظ، وتشنج يده على مقبض سيفه، واستقباله لهم واقفا، ولكن نظرته وهيئته كان فيهما من السيطرة ما يجبر على الاحترام ؛ فسرعان ما تيقنوا من قوة شخصية هذا الذى سيتعاملون معه».

«استقبلهم بونابرت واحدا تلو الاخر، وقال لكل منهم كلمة ودية . ثم وجه إليهم كلمة قصيرة ليبث فيهم روح الثقة، ولكن، عندما أرادوا الركوع أمامه عند الرحيل، مؤكدين له تفانيهم الأبدى الأكيد، أنهضهم بحركة آمرة، وأفهمهم بصريح العبارة أنه سيحكم عليهم من أفعالهم، وليس من كلامهم؛ فإن انضواءهم السريع لم يبد له صادقا» . ويود القارىء لو عرف مرجعا لهذا الكلام، وإن كان منطقيا ولا تشوبه

تعليقات عنصرية استفزازية، نظرا للموقف الذى وُضع المشايخ فيه أمام المنتصر الغريب، ونظرا لتقاليد العصر . ولكن الفقرة التالية لها مرجعان لاثنين ممن عاشوا أحداث الحملة، يلاحظ أن نظرتهما يشوبها ، من جهة، الكثير من النرجسية، ومن جهة أخرى، سذاجة كبيرة فى تصديق المظاهر، كما أثبتت الأحداث بعد ذلك . ففى «عيد النيل»: «كان الناس يتغنون بمديح النبى والجيش الفرنسى»، «كانوا يقولون: نعم، لقد جئتم لتحررونا بأمر الله الرحيم، فإن النصر كان لكم، ولكم أجمل نيل منذ مائة عام ؛ نعمتان لا يمنحهما إلا الله».

(وهذه العبارة، كما نرى، موجهة إلى الفرنسيين والجيش الفرنسى، على الرغم من أننا قد قرأنا العبارة نفسها موجهة إلى شخص «بونابرت»، فى الصفحات القليلة السابقة، ولنا أن نعجب إذا عرفنا أن مصدر العبارتين واحد، وهو جريدة «الكوربيه ديچبت» الفرنسية).

وعندما ذهب بونابرت لتناول العشاء عند الشيخ البكرى، وأخذ المدعوون يرتلون القرآن، «استمع إليهم بونابرت بخشوع عميق، مما كان له أحسن الأثر على الحاضرين كلهم»، إن شاهديه كانوا من قراء الجريدة الفرنسية التى كانت تطبع فى مصر لنشر مثل هذا الكلام...

«وفى الثانى والعشرين من أغسطس ١٧٩٨، حقق بونابرت أحد أعز مشروعاته وهو إنشاء «المعهد الفرنسى فى مصر» (ويقول القرار) :

«الهدف الأساسى لهذه المؤسسة هو:

أولا: تقدم ونشر التنوير فى مصر.

ثانيا: البحث، ودراسة ونشر العوامل الطبيعية والصناعية والتاريخية لمصر.

ثالثا: إبداء الرأى فى الأمور المختلفة التى ستطلبها منها الحكومة (...).

ويقترح المعهد جائزتين سنويتين: إحداهما، لمسألة تخص تقدم الحضارة فى مصر، والأخرى لمسألة تخص تقدم الصناعة».

كما أمر بونابرت بإنشاء جريدتين، هما «لاديكاد إيچبسيان» ، و«لى كورييه ديچبت»، وكان بونابرت «يعرض المشكلات الأساسية للبلد، على العلماء، والتى كان لزاما عليهم حلها ليصبح البلد دولة حديثة. والغريب أنه فعل ذلك ببصيرة نافذة وفهم عام، نستطيع بعدهما أن نؤكد، دون أية مبالغة، أنه ما من مشكلة عرفتها مصر منذ عام ١٨٠٠ حتى يومنا هذا، إلا وأدركها بونابرت ووجد لها حلا (...) لقد أخرت القوى المتضاربة المصريين فى تطورهم، وكان عليهم أن يمروا بمائة وخمسين سنة ليحققوا ما رسمه لهم بونابرت، ومن المؤكد أن تطورهم الحالى كان سيصل إلى الدرجة نفسها، حتى وإن لم يكن بونابرت قد نزل على شاطىء الإسكندرية، ولكنهم كانوا سيصلون إليه بطرق أخرى، وكان

فكرهم سيدمغ ببصمة مختلفة». فبالنسبة لمؤرخنا، الذى يؤكد مضمون كلامه أن مشروعات بونابرت لم تخرج عن حيز الورق الذى كتبت عليه، يرى «بينوا – ميشان» أن تأثير بونابرت مستمر لا مناص من ذلك، وقد فاته أن المشكلات العملية ـ أيا كان من يتعامل معها ـ لها دائما حل واحد، وبونابرت كان يرى، ببصيرته النافذة، ما كان لابد أن يراه أى متعامل ذكى مع المشكلة، كما حدث بعد ذلك، بالفعل، مع محمد على . فلم يكن قضاء «محمد على» على المماليك مثلا، فكرة ابتكرها بونابرت من فراغ، ولكن ذلك كان الوسيلة العملية الوحيدة لإنشاء دولة مركزية حديثة، وهلم جرا. وعلى الرغم من أن «بينوا ـ ميشان» يعترف ضمنيا بهذه الحقيقة، إلا أنه يكابر ويصر على تأكيد تأثير بونابرت على تطور مصر، متناسيا دور إسماعيل باشا.

وكالمعتاد، لن نجد مرجعا واحدا لمساندة ما يقوله المؤرخ عن مشاعر المصريين بعد ذلك . ويتعرض هنا «بينوا ـ ميشان» لما لقيه علماء الحملة من ردود أفعال إيجابية: «فنشاطهم، المركز كلية على العلوم، كان محيرا خاصة أن (الطبقة المسيطرة على البلد) لم تكن تستطيع حتى أن تتخيل، بوضوح ، ما يفعلونه (...)، وقد ظنوا أنهم سحرة، أما الشعب البسيط والفلاحون، فلم يكن هذا رد فعلهم، وغالبا ما يكون السبب فى ذلك، عدم وجود أية تحفظات أو أفكار عدائية مسبقة لديهم . كان

العلماء وطلبة المدارس العليا (٩٧) يزورونهم بطريقة منتظمة، ليلاحظوا أسلوبهم فى الزراعة، وهى التى لم تختلف منذ القدم، ولكنهم كانوا يرشدونهم إلى بعض الطرق العملية التى تسهل عليهم عملهم، فأحبهم الفلاحون، وسرعان ما أظهروا لهم الثقة والتقدير، فكانت الطبقات الأقل تنويرا، كالمعتاد، هى التى تعبر عن تشوقها «للتنوير»، وهى التى مهدت لتقارب الحضارتين» . كلام جميل، ورؤية وردية، لا تساندها حادثة معروفة أو أثر سمع عنه ؛ والدليل أن ما جاء مباشرة بعد هذه الأسطر، يكاد ينفى كل ما سبق أن قرأناه، إذ نجد، بعد آخر جملة ترجمناها، ما يلى : «ولكن الزرع كان لايزال هشا، وكانت مصر مستعمرة عسكريا، وكانت تنحنى تحت وطأة الإجبار، لأنها لا تستطيع غير ذلك، ويقول لنا برتييه : كان كل شيء بالقوة، وما من شيء يتم بالاقتناع......، خاصة أن الساحة امتلأت، بعد معركة «أبوقير» مباشرة، بالعملاء الإنجليز والأتراك، فكانوا يجوبون وادى النيل، ويحاولون حث السكان على الثورة بتذكية تطرفهم الدينى» . ، فالأمر واضح: لولا تدخل القوى الأجنبية المعادية لفرنسا، لما ثار المصريون؛ فهى، من جهة، فكرة تبرىء الفرنسيين من وزر أعمال قد تتسبب فى الثورة ، ومن جهة أخرى، تثبت أنه لولا هذا التدخل، لعاش المصريون فى وئام وسعادة مع الجيش الفرنسى . «وجاءت التعزيزات كثيرة من جوانب مختلفة، وضاعفت

الأسلحة الموزعة عند اللزوم من حماس الجماهير المتطرفة»، على الرغم من اعتراف «برتيبه» السابق ذكره .

ويصف «بينوا ـ ميشان» الثورة الأولى للقاهرة وصفا دقيقا، ولولا تسميته المستمرة للثوار «بالمتطرفين الدينيين»، لكان موضوعيا فى تأريخه لها. ولن يذكر «بينوا ـ ميشان» – مثل كل المؤرخين تقريبا – دخول الجند الفرنسيين إلى حرم الأزهر بجيادهم، مما يؤكد عدم إدراكهم لما يعنيه مثل هذا التصرف لجمهور القاهرة وباقى المسلمين، فعلى العكس من ذلك، يقول : «أثبت الجيش الفرنسى قوته، وتأثر بذلك خيال الشعوب، فصوت الرعد المتواصل الذى سمع عندما فتح دومارتين نيران مدفعيته على الأزهر، جعلهم يظنون أن الله مؤيد لقاهر المماليك، وأقنعهم بأن بونابرت يحب القرآن، وأنه كان يقول الحق عندما أعلن عن إرادته فى إسعاد الشعب العربى . وانتشرت فى المدينة والأقاليم، ألف شائعة تقول إن محمدا قد ظهر «للسلطان الكبير» أثناء الفتنة وقال له: شعب القاهرة مجرم، كنت طيبا معه، ولذا، ستنتصر، ستدخل قواتك إلى الأزهر، ولكن عليك أن تحترم الأشياء المقدسة وكتب القانون (الإلهى)، لن أكون معك بعد الآن، إن كنت غير كريم بعد المعركة، ولن تقابل إلا الهزائم ..»

ويقلب القارىء كفيه عجبا لهذا الكلام، فمن أين أتى به مرجع «بينوا ـ ميشان» فهو كلام لم نجده عند أى مؤرخ آخر، إنه يذكرنا بما يقال عن الهنود الحمر، عندما ذهب إليهم الإسبان، وقيل إنهم ظنوا أن آلهتهم تناصر هؤلاء المعتدين.

ويعترف «بينوا ـ ميشان»، بعد هذا الكلام مباشرة، بأن بونابرت قد أجبر على إعادة الديوان، بعد أن أصدر قرارا بإلغائه ردا على عجزه أمام ثورة القاهرة، وذلك لأنه اكتشف أن إلغاءه يحمل مساوىء عديدة . وتؤكد هذه الحادثة أن هذا الديوان لم ينعقد، فى الأساس، لصالح المصريين، بل لصالح حكم بونابرت، فهو لا يستطيع توصيل أوامره دون معاونة القنوات المحلية . ومرة أخرى، نقرأ كلاما غريبا، لا يصدقه إلا من لم يقرأ الجبرتى، وهذا أضعف الإيمان، فمؤرخنا يؤكد ما يلى: «عندما انتشر الخبر وعرف أن بونابرت يعيد لمصر حكومتها الخاصة، بل ويهدى إليها تمثيلا وطنيا، انفجرت مظاهر الفرح فى كل مكان. كان الناس يقبلون بعضهم البعض، ويتبادلون التهانى فى الشوارع، وعندما حل الليل ، عبرت إنارة الطرق التى جرت بطريقة عفوية ، عن الرضا العام . ما من شىء كان يستطيع أن يساعد التقارب المصرى ـ الفرنسى أكثر من ذلك » ؛ وكأننا فى فرنسا، حيث كان «للتمثيل الوطنى» معنى لا يمكن أن يفطن إليه مصريو ذلك العصر، ولكنهم،

قطعا، فرحوا لعودة الديوان الذى انعقد دائما، ومنذ قرون، قبل مجىء الفرنسيين . والكلمات المستعملة تدل على أسلوب مؤرخ «أجنبي» في الحديث عن شعب غريب عليه، لا يستطيع تخيل عقليته، بل إنه لا يفهم الأمور إلا فى أطر تخصه هو، ولا يتصور أن يكون فى الوجود غيرها .

ويؤكد «بينوا ـ ميشان» على «الاستقبال الحافل الذى لقيه أعضاء البعثة العلمية من السلطات المحلية، لأن الشعوب بدأت تفهم معنى عملهم ونتائجه»، دون أن يفطن إلى أن هذه البعثات كانت بصحبة جند، سنرى فيما بعد كيف كانوا يعاملون الأهالى . «رعشة فرح كانت تسرى فى وادى النيل كله، كانت مصر تصحو من سبات قرون، وأخذ الشعراء العرب ينشدون أفضال «السلطان الكبير» بتعبيرات لم تفقد حتى يومنا هذا، مذاقها الحلو» . هكذا يرى مؤرخنا الأمور، ليثبت أنه لم يقرأ ـ أو لم يشأ أن يقرأ ـ إلا ما يسعد شوفينية لا تتلاءم مع الموضوعية العلمية المفترضة فيه.

ولكن «بينوا ـ ميشان» مجبر على الاعتراف بأشياء، من البديهى، أنها كانت أكبر من أن تخفى، أو تتجاهل. فهو يقول عن مذبحة يافا البشعة : «كانوا لأول مرة أمام مدينة فتحت، ويستطيعون الانتقام لما لاقاه الكثير من زملائهم أثناء فتنة القاهرة، فزاد عنفهم عشرة أضعاف ما كانوا يشعرون به من غضب، (...) المنازل نهبت ودمرت، والنساء قد

اغتصبن، وذبح الجند المسلمون».. لم تكن هذه «أول مرة» كما سنرى فيما بعد، ولكن كان لهم العذر هنا على ما يبدو، ثم يكون تعليق أحد الفرنسيين الذين شاهدوا ما حدث للأسرى المسلمين من قتل، وهو يستخلص بمرارة (نتائج الجريمة) : «إن هذا المثل سيعلم أعداءنا أنهم لن يستطيعوا بعد الآن الثقة فى الأمانة الفرنسية، وستقع علينا، إن آجلا أو عاجلا، دماء هؤلاء الضحايا الثلاثة آلاف».

ولا نعجب إلا لأمر يبدو لنا منطقيا، ولكن يبدو أن المنطق يختلف من عقلية إلى أخرى، فمؤرخنا لا يربط مطلقا بين هذا الكلام البشع الذى يعترف به موضوعيا، وباقى «الأحداث الرائعة» التى يحكى عنها فى وادى النيل ، مع أن بونابرت هو بونابرت، والجند الفرنسيين هنا هم الجند الفرنسيون هناك . نراه مثلا يصدق مظاهر الفرح التى استقبلت عودة بونابرت المنتصر من الحملة على الشام، لأن «بونابرت كان قد أرسل أمامه مبعوثين معهم بيانات الانتصار، حتى تؤثر إيجابيا على الشعب» وعلى الرغم من التناقض الواضح، فإنه يعترف بعد بضع صفحات أن «أعضاء الديوان كانوا يعرفون جيدا أن بونابرت قد هُزم، وهو أيضا كان يعرف ذلك»، فكيف إذن صدق أن مظاهر الفرح لم تكن مفتعلة أو بأمر من بونابرت نفسه كما كان يحدث، وكما يعرف كل دارس متعمق لسياسة بونابرت فى مصر، وفى غير مصر . وكالمعتاد

فى مثل هذه الأمور، فإننا لن نجد مرجعا واحدا يؤيد ما يؤكده المؤرخ الفرنسي من أن «الفرنسيين والمصريين كانوا يتبادلون القبلات والتهانى عند وصول خبر انتصار بونابرت فى معركة «أبوقير» الثانية، لأن نبأ النزول التركى كان قد أشاع الفزع...» . وإمعانا فى التجاهل - أو الجهل - نقرأ بعد ذلك أن «التوافق المصرى - الفرنسى كان على الطريق السليم»، وكأن وادى النيل، من أقصاه إلى أقصاه، لم يكن فى حالة من الثورة والمعارك، وهو الأمر الذى دعا بونابرت إلى العودة من عكا مسرعا.

والغريب أن «بينوا - ميشان» يعترف بذلك، وإن قلل من شأنه، قائلا: «ألم يشجع غيابه نشاط المحرضين الدينيين، وهم دائما على استعداد لاستعمال بلاغتهم لتهييج تطرف الجماهير؟ فعندما سافر إلى سوريا وبمجرد أن أدار ظهره، قامت ثورة أمير الحج، وظهر شخص غريب اسمه المهدى، وكان يسمى نفسه الملاك مهلك المسيحيين ، ليثير القلاقل عند الحدود الليبية، ولكن هذه المحاولات سرعان ما دحرت» . لقد كانت معارك المهدى المذكور فى الدلتا وليست على الحدود الليبية، وقد كلفت الفرنسيين الكثير، وأيا كان الأمر، فهى تثبت أن «التوافق المصرى - الفرنسى (لم يكن) على الطريق السليم»، ولكنه التناقض الذى لابد من وجوده إذا ما أصر المؤرخ على الاعتراف بالأحداث

الحقيقية، وهو ينشد ـ في الوقت نفسه ـ أفكارا ذاتية لا تمت إلى الواقع بصلة . ويحاول مؤرخنا أن يضع قليلا من المنطق في كلامه، من خلال ما يظنه قد مر بذهن بونابرت، إنه يقول: «في مايو ١٧٩٨، سافر بونابرت إلى مصر التي لا يعرفها، والتي وصفها كثير من الرحالة على أنها مكان ساحر، حيث ينمو كل شيء بوفرة، وحيث السكان الذين يتطلعون إلى استقباله بأذرع مفتوحة. منذ ذلك الوقت، عرف كيف كانت مصر الحقيقية، فقد جاءت معلومات مادية تحل محل اندفاع الخيال. اكتشف عظمتها ومشكلاتها، وجفافها القاسي، ومناخها الناري، والسرعة التي يتحول بها لطف السكان إلى وحشية عندما تلتهب العواطف»، ويشير المعنى الأخير، بالطبع، إلى التطرف الديني، دون أن يكتب مؤرخنا أن المصريين سلبوا، أيضا، حريتهم وكرامتهم. وهذا التعليق يفرض نفسه على كل من تذكر أن كتاب «بينوا ـ ميشان» هذا، قد نشر عام ١٩٦٦، أي بعد أن نجحت ثورة الجزائر في تخليص البلاد من الحكم الفرنسي، ولم يلعب فيها التطرف الديني دورا يذكر، فعلى الرغم من كل الأحداث المعاصرة لـ « بينوا ـ ميشان»، إلا أنه لم ير غير التطرف الديني سببا لكل معركة التحم فيها الجيش الفرنسي بالشعب المصري، لأن ذلك ما كان يقال، وهو يعيده بأمانة شديدة.

أما ثورة القاهرة الثانية، فهو يمر عليها مرور الكرام، مكتفيا بالإشارة إلى أنها قامت لأن «نصيف باشا، عندما وصل إلى مشارف القاهرة، أرسل نداء إلى الشعب، طالبا منه الثورة على المحتل الأجنبي» ، ونعجب لانصياع أهل القاهرة السريع لأوامر الأتراك، خاصة أن مؤرخنا تحدث من قبل عن فرحة القاهريين بهزيمة الأتراك في معركة «أبوقير» الثانية، على يد بونابرت، وخوفهم منهم؛ ولكن مؤرخنا ـ وتناقضاته لم تعد تحصى ـ يرى أن «الصداقة المصرية - الفرنسية توطدت (بعد هذه الثورة) وتعمقت لدرجة أنها استمرت حتى بعد جلاء قوات الحملة، وبقيت حتى يومنا هذا (بسبب) روح كليبر العادلة وإنسانيته»، وهو لن يذكر طبعا ما قام به إسماعيل باشا في هذا الصدد، وهو سبب استمرار الصداقة «حتى يومنا هذا».

و«بينوا ـ ميشان» يؤكد، أيضا ، أن عصر «مينو» كان «فجر مرحلة سعادة (...)، على الرغم من تأكيد الجبرتي بأن المسلمين كانوا أقل سعادة في عهد مينو عما كانوا عليه في عهد كليبر...» : و« بينوا - ميشان» يتخذ المسرحيتين اللتين كانتا تمثلان حينذاك بالفرنسية، مثلا حاول أن يثبت به صحة كلامه: «كان أعيان القاهرة يجدون فيهما من المتعة ما يعادل متعة أعضاء الحملة»!! وهذا الكلام كله، أولا وأخيرا، بلا أي مرجع، ومن البديهي أنه من تهويماته المتعددة، خاصة إذا عرفنا أن الجبرتي كان يقول ـ وباعتراف «بينوا ـ ميشان» نفسه - عكس ذلك...!

وتعرض خاتمة الكتاب بتأكيد موثق بالأحداث، نظرية مؤرخنا، وهى أن «ذكرى مصر كانت فاتنة لدرجة أن بونابرت كان مصمما على العودة إليها، حين تتيح له شئون القارة (الأوربية) فرصة»، ولم تسنح له تلك الفرصة على الرغم من محاولاته المتكررة، ولذا، كان عنوان كتاب «بينوا ـ ميشان»، «بونابرت فى مصر، أو الحلم الذى لم يتحقق».

«جورج سبيلمان» : «نابليون والإسلام»

ولنقرأ الآن كتابا بعنوان «نابليون والإسلام» (٩٨) لمؤلفه الجنرال «جورج سبيلمان» . وترجع أهمية هذا الكتاب إلى شخصية مؤلفه، فهو، حسب مقدمة الكتاب : «ضابط تولى مسئوليات عسكرية وسياسية وإدارية فى أرض الإسلام لأكثر من ربع قرن، مما جعله خير من يستطيع تفهم الصعوبات التى لقيها نابليون والوسائل التى لجأ إليها ليتخطاها (...) إنه المتخصص فى إسلام البحر المتوسط الذى يدرسه منذ عام ١٩٢٠ كمؤرخ، واجتماعى واقتصادى، وإدارى، لوجوده فى (فرنسا) عبر البحار، على كل سلالم التدرج الوظيفى»..

لقد عرف هذا الضابط إذن ـ ولا يقال إنه كان يوما فى مصر ـ إما سوريا، أو شمال إفريقيا، عندما كانت فرنسا تستعمرهما، وإن كان كتابه قد نشر عام ١٩٦٩، أى بعد استقلال معظم البلاد المستعمرة.

«بونابرت يهدى وشاح الجمهورية ذا الألوان الثلاثة لأحد البكوات»
(المعروف أن المصريين رفضوا ارتداء أية علامة تخص الجيش المحتل)

وعنوان الكتاب ، عنوان خادع، فالمؤلف لا يتعرض لقضية «نابليون والإسلام» إلا في صفحات معدودة، في حين أنه هو في حقيقة الأمر، يقص علينا علاقة نابليون بالدول الإسلامية في الشرق العربي، وأحلامه باستعمارها.

فالعلاقة بين نابليون وهذه الدول قديمة، منذ أن مرّ بأزمته عام ١٧٩٥، عندما كان مغضوبا عليه، ففكر جديا في الالتحاق بالخبراء الفرنسيين الذين كانوا يُرسلون إلى تركيا لإعادة تنظيم جيش السلطان، وكان كثير من الضباط النبلاء الفارين من الثورة، قد سبقوهم إلى هناك.

ويقص «سبيلمان» علينا تاريخ فكرة احتلال مصر، منذ أن عرضها الفيلسوف الألماني «ليبنتز» على الملك «لويس الرابع عشر» مؤكدا له: «أن أفضل وسيلة لضرب (هولندا) هو احتلال مصر، ستجد هناك الطريق الحقيقي لتجارة الهند، وستأخذه منها، وستؤكد السيطرة الأبدية لفرنسا على المشرق، وستُسعد البلاد المسيحية، وستملأ العالم اندهاشا وإعجابا: ستصفق لك أوربا ، ولن تتحد ضدك»، ثم يسرد «سبيلمان» تفاصيل استمرار الفكرة طوال القرن الثامن عشر، إلى أن حولها «تاليران» و«بونابرت» إلى حقيقة.

ويقدم المؤرخ الأمر بالطريقة المعهودة ؛ فمثلا يؤكد أن بونابرت قد حرم النهب على جنده، فيفهم القارىء أن الجيش تصرف بعد ذلك وكأنه من ملائكة الرحمة، ثم يعلق على بيان بونابرت للشعب المصرى، مؤكدا النجاح الساحق لتأثير هذا البيان على المصريين، ويصف «سبيلمان» مظهر «كليبر» الجميل، وكيف أن «حجمه الكبير وأناقته الرجولية ابهرت المصريين إعجابا به (كما أن الجنرال) «ديسى» استحق لقب «السلطان العادل» بسرعة فائقة وسط المصريين [٩٩] . كل ذلك دون أى مرجع علمى . وعموما، فمراجعه تستحق، فعلا، النقد. فهو يلجأ مثلا إلى «تيار» مؤرخ القرن التاسع عشر، الذى لم يعش أحداث الحملة، ليثبت أن «المشايخ كانوا منبهرين بتقوى بونابرت، وهو يردد معهم أحاديث النبى»، وأقل ما يقال عن هذا المرجع، إنه ضعيف، إذ أن «تيار» نفسه نقل هذا الكلام عن مرجع قد يكون غير موثوق به، ليتحمل مثل هذا الجزم . وسنلاحظ أن كل ما سيقال عن مشاعر المصريين نحو الفرنسيين لا مرجع له، مما يجعل القارىء يتساءل: هل كان الجنرال يؤرخ أم يتخيل؟ .

ولنقرأ معا ما يقوله:

طلب بونابرت من العلماء الفرنسيين «أن يساهموا أيضا، بملاحظاتهم وبحوثهم، فى تنمية التجارة، وزيادة الرخاء، وإنشاء

صناعات جديدة وصغيرة، لتسعف بقدر معقول، النقص المقلق فى مواد الاحتياجات الضرورية والذى يسببه الحصار الإنجليزى، وقد أكد هذا النشاط لدى المصريين فكرة أننا باقون فى البلد مهما حدث» .. كيف عرف هذا؟ أم أنه قد استنتجه باجتهاد شخصى؟ «الجندى الفرنسى، عامة، يتصرف بطيبة ملحوظة، وهو سهل المعاش مع الآخرين، مع نزعة ملحوظة للسخرية.. ولكن الحياة المشتركة بين عنصرين شديدى الاختلاف فى الدين والتقاليد والعادات، ودرجة التطور، كان لابد لها أن تسبب المقدور، وهو الاحتكاكات الجادة.. فقد سبب اهتمامنا بالنظام، والإدارة الجيدة، واللوائح، ضيقا مكبوتا، خاصة فى القاهرة، حيث يتبلور الرأى العام» . ولن يتعرض مؤرخنا هنا إلى ما وصل إليه ذلك «الضيق» من ثورة، ولا للأسباب الحقيقية لتلك الثورة، فالثورة ـ أو «الضيق» ـ ترجع، فى نظره، إلى جهل المصريين بحماس الإدارة الفرنسية، ورفضهم لها، وعلى الرغم من كل ذلك، فهو يؤكد بعد ثلاث صفحات «إعجاب المصريين المنبهر» بما أنجزه العالم «كونتيه» ليسد «احتياجات جيش يحارب وقد انقطع عن وطنه» : كان نشاط العلماء، مثل «كونتيه»، يساعد الجيش إذن، وليس المصريين . ومرة أخرى، يعود «سبيلمان» ليؤكد ذلك التأثير الانبهارى على «الشعوب» بسبب انتصارات الجيش الفرنسى فى الشام، أثناء حصار عكا الفاشل، دون

أن يذكر ما كان يتزامن مع تلك الحملة من ثورات فى وادى النيل، من شماله إلى جنوبه، فهو لا يقول إلا كلمة عارضة: «الأمن فى المقاطعات البحرية، أو مصر السفلى، أخذ يتناقص بسبب قلة القوات الفرنسية التى تركها بونابرت فى مصر والتى كانت لا تكفى لحفظ الأمن».

أما بالنسبة لما حدث للأسرى الذين استسلموا للجيش الفرنسى فى يافا، والذين أمر بونابرت بإعدامهم، فإن «سبيلمان» يعترف بفظاعة الجريمة: «أثارت هذه المجزرة استياء أكثر الرجال قسوة في الجيش، إلى حد الغثيان (... وعندما ظهر الطاعون) ربطوا الوباء، بما حدث، واعتبروه نتيجة له، قالوا، إنه العقاب».

ثم نراه يصف «العودة المنتصرة إلى القاهرة» بعد الهزيمة أمام عكا، والتى: يعترف: «بأنها أول فشل جاد فى تاريخ بونابرت العسكرى». ونقرأ على مدى صفحتين وصفا لاحتفال المصريين بعودة المنتصر. إنهم لا يصدقون ما قاله بونابرت لهم عن انتصاره فى الشام ولكن: «هذا«الأبو ـ نابرد» استطاع أن يستولى على كم كبير من الحصون فى الشام، وأفنى جيش عبدالله ، باشا دمشق، ثم عاد سالما إلى القاهرة، فهذا ما يبدو لهم أمرا مدهشا، وكل ذلك بعدد محدود من الرجال . إنهم على حق . إن هذا الرجل الرهيب «لسلطان النار» حقا! إن الإعجاب يختلط بمشاعرهم، التى كانت قائمة أساسا على الرهبة،

ونشاطه أيضا يملؤهم دهشة . لقد عاد لتوه من حملة مضنية، وتراه يتولى ، من فوره، شئون البلد، ويستقبل ويدير ويحث ويتصور ويحرك كل شيء ، وذلك كله دون هدنة، بسرعة، يعتبرها أهل القاهرة، جنونية، يا له من شيطان!».

... بل يا له من ادعاء ، فمطلبنا الوحيد أن نعرف من أين أتى سبيلمان بهذا الكلام الجميل؟!

ويعترف الجنرال المستشرق بالحقيقة الموضوعية، وهى أن الحملة «على المستوى الحربى والدبلوماسي، كانت فشلا تاما، سواء في مصر أو في الشام (...) وموقفنا في مصر كان سيئا، فالبلد لم يكن قد سلم بعد. كنا نحتله، هذه حقيقة، ولكن مشروعنا لم يكن له أساس قوى، فقد ثارت علينا المدن مرتين في ثلاث سنوات، ولم يستتب الأمن في مقاطعات مصر السفلى والمتوسطة، لكن مصر العليا كانت أكثر أمنا، بسبب الإدارة الحكيمة لديسى ، السياسى البارع والجندى العظيم»، وهذا ما يشك فيه كل قارىء للدراسات الحديثة، الأكثر دقة فى معلوماتها، والأكثر موضوعية فى عرضها.

ويتبع هذا الكلام، نظريات غريبة لجنرال، يكتب عام ١٩٦٩، أى بعد أن استطاعت الجزائر أن تحصل على استقلالها، بعد كفاح مرير بدأ منذ استعمارها عام ١٨٣٠، ناهيك عن باقى المستعمرات الفرنسية فى

آسيا وإفريقيا، «فسبيلمان» يشرح، آسفاء ما كان يمكن أن يحدث لو بقى الفرنسيون فى مصر، متناسيا نتيجة الحضور الفرنسى فى الجزائر: «الزمن وحده كان كفيلا بتحسين أمورنا، ونشر خيرها على البلد، بعد إثبات اعتدالنا، وولائنا، واحترامنا للدين، وفعالية إدارتنا، ومحاسن الرخاء الذى نحضره معنا (... ولكن) عداوة دفينة أو معلنة لغالبية الشعب المسلم، أجبرت بونابرت وخلفاءه على الاعتماد، أكثر مما كانوا يتمنون ، على الأقليات الإثنية أو الدينية، مما أكد للسنيين - أى أغلبية المسلمين - ريبتهم وأحقادهم الكريهة » !!

وهكذا ، يفهم من هذا النص ، أن الخطأ ليس فى الغزوة وجيشها المستعمر ، ولكن فى شعب أساء الظن بالفرنسيين دون سبب مقنع . ثم إن بعض «التجاوزات (مثل) قمع ثورة القاهرة الأولى الذى كان قاسيا ، ثم تنفيذ عقوبة الحكم بالإعدام لأسباب تافهة ، ومجزرة حامية يافا ، هذه التجاوزات تركت ذكريات بشعة . ولذا ، صاحبت رحيل الفرنسيين فرحة الجميع (...) وكان يُخشى أن تظل فرنسا مكروهة إلى الأبد فى مصر ، بعد أن جاء الفشل السياسى بعد الفشلين العسكرى والدبلوماسى »، ولا يذكر المؤرخ قمع الثورة الثانية للقاهرة ، ولكنه يؤكد أن «الانجليز قد كُرهوا» بعد رحيل الفرنسيين ، ولا نعرف كيف أو لماذا، وكان عددهم محدودا جدا ولم يبقوا فى مصر إلا أشهرا معدودة ، ولم تكن لهم صفة فيها .

ويكمل مؤرخنا تصوره للأمور : ثم كُره الأتراك أيضا «حتى أن عددا كبيرا من المصريين وصلوا بسرعة إلى نتيجة ، هى أن زمن هؤلاء الكفرة الفرنسيين لم يكن بالسوء الذى كان الوعاظ الدينيون يستمرون فى تأكيده ؛ ولكن المصريين كانوا يشعرون بذلك دون أن يجرؤوا على الإفصاح به» .. ونتساءل مع القارىء : كيف استطاع مؤرخنا معرفة هذا الشعور إن كان دفينا ، صامتا ؟ . ولكن ، ألم يقل جزار باشا عام ١٨٠٢ ، لمندوبى «القنصل الأول بونابرت» : «إن القاهرة تفكر بحنين فيكم، وتشتهى أن تكونوا فيها مرة أخرى» : من هم هؤلاء الـ «هم» الذين يتحدثون عنهم فى عام ١٨٠٢ ؟ ألم يكن مراد بك قد سبق أن انضم إلى الفرنسيين ليضمن سيطرته على مصر العليا عند عودة العثمانيين ؟ وألم يتفاوض البرديسى بك معهم أيضا ، بينما ذهب الألفى بك إلى الحزب الإنجليزى ؟ أهؤلاء هم الشعب المصرى بأكمله ، الذى خدعه الوعاظ ؟! هذا من جهة. ومن جهة أخرى ، نلاحظ ، طبعا ، وجود مترجم مع «سيبستيانى» ، رسول بونابرت ، وكلام جزار باشا لم يصل إلينا فى نصه الأصلى ، مما يجعلنا نشكك فى مضمون الترجمة وصحتها ، لما قابلناه فى دراساتنا مرارا من تحوير عفوى أو مقصود فى ترجمة كلمات عربية غاية فى البساطة (١٠٠) .

ويصل «سبيلمان» إلى نتيجة أن «الحملة لم تكن فاشلة بل على العكس ، فلقد كانت نجاحا كبيرا» . وما سبب هذه الثقة ؟ ، «إن هذه النتيجة الرائعة (أى احترام المصريين وندمهم على انتهاء الوجود الفرنسى) كان سببه شجاعة جندنا ، الذين لم يموتوا هباء هناك ، وأيضا لكوكبة العلماء ، والمهندسين والفنانين والمستشرقين الذين جمعهم بونابرت ، وهم متحمسون بإيمانه ، إلى المعهد الفرنسى الذى أنشأه بعد شهر واحد من دخوله القاهرة (...) إن عمل هذا المعهد العظيم ...» ، وهنا ، يتوقف القارئ ليتعرف أخيرا على ذلك النشاط الذى قرأ الكثير عنه ، دون أن يعرف ماذا كانت فوائده للشعب المصرى، بالضبط، وتجيء المعلومات مبهمة كالمعتاد ، ثم يقدم المؤلف الأعمال المبهرة ، فيصاب القارئ بخيبة الأمل : يقول الجنرال المستشرق : «من بين أمور كثيرة ، هناك «الوصف العام لمصر» الشهير ، أول مؤلف علمى عن هذا البلد (...) ، كذلك دون «ڤيڤان دينون» وصور كتاب «رحلة إلى مصر السفلى ومصر العليا أثناء حملات الجنرال بونابرت» وهو كتاب خلاب .. هذان العملان العملاقان هما الركيزة الأساسية لعلم المصريات القديمة والحديثة . وقد تسبب هذان الكتابان فى موهبة «شامبليون» (١٧٩٠ - ١٨٣٢) (...) و«ماربيت» (١٨٢١ - ١٨٨١) (...) ، وآخرين (...) هم فخر العلم الفرنسى . وقد حكم «شاتوبريان» على الحملة

بالحكم التالي : «لقد بذر الفرنسيون في مصر بذور الحضارة التي زرعها محمت (محمد على باشا) ، وهكذا زاد مجد بونابرت ، فشعاع نور تسلل إلى ظلمات الإسلام ، وفتح فجوة في البربرية» . وينهي مؤلفنا فصله عند هذا الكلام ، مؤكدا بهذه الطريقة تضامنه المطلق مع هذا الكلام الأخير ، واحتقاره المعلن للإسلام ، والمسلمين . وكان قد أشار بالفعل في الصفحة السابقة إلى أن محمد على هو الذي وطد التأثير الفرنسي على مصر ، فاضحا بهذا التأكيد ، قراءته السريعة والسطحية لتاريخ مصر ، خارج نطاق ما يخص فرنسا ذاتها ؛ فالتأثير الفرنسي لم يستطع السيطرة على بعض المثقفين المصريين ، كما يعلم الجميع ، إلا منذ عهد إسماعيل باشا . ولكن الاعتراف بهذا يعني الفشل الكامل للحملة ، لأن هذا التأثير جاء بعد مضي أكثر من نصف قرن على حدوثها ، وفي ظروف أخرى ؛ وهذا ما لا يستطيع مؤرخنا المستشرق الاعتراف به ؛ فلا بد للحملة أن تنجح ، ولو كان نجاحها ملفقا .

والغريب أن «سبيلمان» يكتب قائلا : «مما لا شك فيه أن المارونيين والدروز والأرمن والأكراد ، وحتى العرب أنفسهم كانوا مستعدين للقتال في سبيل التخلص من سيطرة الأتراك ؛ ولكنهم سرعان ما كانوا سيواجهون سيطرة بونابرت ، وكثرة تبعاتها ، وأن المشاكل الإدارية

كانت ستنسيهم المحاسن المكتسبة» : إنه يعترف إذن بأن المشروع كان فاشلا بلا شك ، فلماذا التهويمات بعد هذا الاعتراف ؟

وأخيرا ، يتعرض مؤلفنا لموقف بونابرت من الإسلام ، ويصحح ما يقال عن أن كلام بونابرت عن الإسلام لم يكن إلا «دعاية اللحظة» . فهو يؤكد ، مستندا فى هذه المرة إلى مراجع موثقة ، احترام نابليون للإسلام ونبيه حتى نهاية حياته ، بل وإعجابه بهما ، قائلا مثلا ، وهو فى المنفى ، بعد قراءته للقرآن : «دين محمد هو أجمل دين» . وقد مات نابليون معلنا انتماءه للكاثوليكية ، ويعلق «سبيلمان» بحق أن نابليون صاحب «فكر دينى سمح ، كان منتشرا فى القرن الثامن عشر» . ولا ينفى هذا استغلاله للنزعة الدينية فى مصر ، فى محاولته كسب ود العلماء والمشايخ ، وعامة الجمهور . ويشرح مؤرخنا بعد ذلك كيف استمر حلم الشرق يراود نابليـــون حتى أيامه الأخيرة . وأهم ما يلفت نظرنا فى هذا التاريخ ، البعـــثة الدبلوماسية التى ترأسها الكولونيـــل «سيبستياني» عام ١٨٠٢ ، والمهمة الحقيقـــية التى وكلت إليه ، فهذا الجاســـوس الرسمى يكـــتب فى تقـــريره عن جولته أن جيشا من «ستة آلاف فرنسى كاف لغزو مصر» . لكن ظروف نابليون لن تسمح له بإعادة الكرة مرة أخرى ، ولا بتنفيذ محاولاته غزو شمال إفريقيا .

وينتهى كتاب «سبيلمان» بمحاولة أخرى لتقييم نهائى للحملة ، فى ست عشرة صفحة ، يصعب تقديمها كاملة . ولذا ، نلخصها بترجمة أهم فقراتها ، وإن كان «سبيلمان» يكرر نفسه ، لزيادة تأكيد ما عنده من قول . فالمؤلف مستشرق عسكرى ، قضى حياته منفذا للسياسة الاستعمارية «للجمهورية الثالثة» ، بين الحربين العالميتين ، قبل أن تصل ثورات التحرر فى العالم الثالث إلى ذروتها ، كما حدث بعد ذلك . لذا ، يرى «سبيلمان» الأمور - بطبيعة الحال - من منطلق خاص ، لا يمكن أن توافق عليه حتى العقلية الفرنسية الجديدة ، لهذه الشعوب نفسها التى استعمرت العالم : كانت الفكرة المسيطرة هى أن «الحضارة» واحدة ، لا ثانى لها، وهى الحضارة الأوربية ؛ وأن «التحضر» هو الوصول إلى النمط الأوحد من الحياة فى كل أشكاله من ثقافة وأسلوب حياة ، على أن يكون استيعاب تلك الحضارة ، بتوجيه من الدول «المتحضرة» ، وتحت سيطرتها . إنه الاستعمار فى أكثر صوره فجاجة، كما شكل نظريته الفلسفية مفكرو القرن التاسع عشر ، وسياسيو «الجمهورية الثالثة» . وكان الكل مؤمنا بأن رسالتهم فى الحياة ، بل واجبهم المقدس ، هو «تحضير» الشعوب ولو بالقوة ، بل وبالقوة أولا . وهو أمر طبيعى ما دام الهدف الحقيقى هو الاستعمار الاستغلالى ، والحصول على موارد وأسواق بلاد أضعف من أن تدافع عن حريتها .

من هذا المنطلق ، يرى الجنرال «سبيلمان» أن بونابرت كانت له سياستان ، أولاهما رائعة : تلك السياسة الأولى هى التى عبر عنها فى بيانه إلى المصريين ، فى الثانى من يوليو ١٧٩٨ ، والتى طبقها لمدة ثلاثة أشهر ، حتى ثورة القاهرة الأولى . إنها «نوع من الحماية ، أو التفويض ، أو حتى حكم مشترك بين الأتراك والفرنسيين . كما عُرف وطبق بعد ذلك بثمانين عاما . وتتجه تلك السياسة أولا إلى تخليص مصر من طغيان المماليك الذين يستغلون البلد ؛ ثم إنشاء منظمة إدارية مصرية خالصة ، لها فاعليتها وتماسكها ، على جميع المستويات : القرية ، والمقاطعة ، والأمة ، ثم إعادة البلد إلى رخائه السابق بتجديد نظام الرى ، والزراعة ، والحرف والصناعات الصغيرة ، مما يسفر عن بداية لتجهيزات إنشاء الموانىء وطرق المواصلات البرية والنهرية ، ليساعد ذلك كله على تنمية التجارة . وتلك السياسة ، أخيرا ، تسجل جرداً شاملاً ودقيقاً لكل الموارد ، على أن تبقى قيم الماضى ، وحماية آثار حضارة لها آلاف السنين وكنوزها الثقافية . وتكون السيادة الاسمية والسلطة الدينية الحقيقية لسلطان القسطنطينية ، خليفة المسلمين ، وأن تحترم هذه السيادة . حقيقة أن خطط بونابرت كانت ترتب لإدخال عناصر فرنسية فى كل المهن والتخصصات إلى مصر ولكن الهدف لم يكن هو الاستعمار ، فهؤلاء الفرنسيون كانوا سيلعبون

دور المرشد ، المحرك ، الحافز للهمم . حقيقة أن كثيرا منهم كانوا ضـروريين لاحتياجات قـوة الحملة ، لأن تموينها من الوطن الأم كان لا يزال صعبا وخاضعا لتقلبات الظروف ، فالبحر المتوسط لم يصبح بحرا فرنسيا بعد .. .» : كلام متناقض ، لأن الذئب يحاول التخفى تحت جلد الحمل المزيف .

ولكن هذا المشروع الرائع – الذى لم يكن «استعمارا» – قد فشل ، لأن حكومة « الإدارة » و « تاليران » لم يفيا بوعدهما ، ولم يقوما بالعمل الدبلوماسى اللازم ، الذى كان لابد له أن يحظى بموافقة سليم الثالث على الغزو الفرنسي لمصر . ومن ثم ، فقد انضمت تركيا إلى إنجلترا عدوة فرنسا ، بل انضمت أيضا إلى عدوها اللدود ، روسيا ، وتكون التحالف الثاني ضد الجمهورية الفرنسية ، وكان ما كان . وهكذا، أجبر بونابرت ، الذى لم يكن يريد الاستعمار ، على انتهاج سياسة مغايرة لمشروعه الأول بسبب ثورة المسلمين عليه فى « جهاد » دينى أمر به السلطان . والمعروف لدى القارىء للفرنسية ، ما يعنيه استعمال كلمة « الجهاد » فى السياق السياسى : إنها الحرب الشعواء باسم التطرف الدينى « الجاهل المتعنت » بل و « المتوحش » .

والحق أن دارس هذه القضية ، قد يشعر بالامتنان «لسبيلمان» ، الذى حمل الحكومة الفرنسية وزر هزيمة بونابرت ؛ فكثير من المؤرخين غيره ، ردوا فشل الحملة ، فقط ، إلى سوء فهم المصريين ، الذين لم يدركوا أن بونابرت جاء كصديق يجلب لهم الرخاء والسعادة ، فعاملوه كعدو ، وردوا له الجميل بأسوأ طريقة ، وإن كان «سبيلمان» نفسه ، يقول ذلك أيضا : لقد نزلت القوات الفرنسية عنوة فى ظلام الليل على شاطىء مهجور ، ولم يفهم أهل الاسكندرية أن الجند والسناكى والمدافع كانت عنوان محبة وبشير خير ! وكان هذا الخطأ - خطأ المصريين فى الفهم - هو الذى تسبب فيما حدث بعد ذلك من مصائب ، وفشل الأهداف النبيلة لبونابرت وجيشه .

ولنعد إلى «سبيلمان» وبونابرت ، الذى أجبر على تغيير خططه الجميلة ونياته الحسنة ، لسبب واحد ، هو أنه كان يفتقر إلى جيش كبير، إذ يقول مؤرخنا : « لم يكن معه الكثير من الجند » . ولا يفطن مؤلفنا إلى مغزى هذه الكلمات ، فلو كان لدى بونابرت جيش أكبر، لتغيرت الحال ؛ ونفهم إذن أنه كان سيلجأ إلى حروب لا نهاية لها - كما حدث له فى أوربا بعد ذلك - كان سيلجأ إلى القوة الغاشمة وما يترتب عليها من فوضى وظلم . وفى هذه الحالة ، نتساءل عن مصير الهدف الأول من مصاحبة المصريين ، وأين يقع مشروعه الجميل ؟

أيا ما كان ، «فسبيلمان» يرى أن بونابرت قد أجبر على التنازل عن أهـدافه النبيلة، إذ أعلن «المسلمون السنيون» الحرب عليه بأمر السلطان، فكانت ثورة القاهرة التى أجبرته على ارتكاب الخطأ الفادح ، الذى جعله «يرتكز على الأقليات الإثنية والدينية ، وكان ذلك على نقيض نياته الأولى . وبسبب هذا ، لم يعد بونابرت يعتبر الحكم الموضوعى المسلم به ، وأصبح ندا بدلا من أن يرتفع فوق الأحزاب . ولكن ، وعلى الرغم من كل ذلك ، كم كان حليما صبورا : فعلى الرغم من كل الصعاب والطاعون الذى تفشى وسط جنده ، كان يأمر المعهد الفرنسى بالاستمرار برصانة فى أبحاثه ، حتى ينهى الجرد الكامل ، الدقيق ، المنظم للبلد . لا . فالحق يقال ، لم تكن الحملة على مصر فى المشرق من النوع الاستعمارى المعتاد . كان بها جوانب كثيرة جديدة ، إنسانية وغير مغرضة . وكانت هذه الروح هى روح كثير من القواد آنذاك . ففى مصر العليا ، مثلا ، كان الجنرال « ديسى » جديرا بقلب «السلطان العادل» ، الذى أطلق عليه عفوياً ، فقد كان جنديا ذا كفاءة معروفة ، وقد أثبت أنه رجل إدارة من الدرجـة الأولى ، وكان مديرا جيدا ، كريما، متسامحا ، مثقفا ، وحريصا على أحوال السكان الأصليين . ونرى «مارمون» يفعل الشىء نفسه فى الاسكندرية، ونعرف أن «مينو» وصل به الأمر الى التحول إلى الدين الإسلامى».

طبعا لم يكن بونابرت يفعل كل ذلك من أجل صالح المصريين فهو لم ينس لحظة واحدة المصالح الفرنسية ...) إذ أنه لم يكن يهدف من وراء كل ذلك - وهنا يتنفس القارىء الصعداء لوصوله أخير ، إلي شفافية القول - لم يكن يهدف إلا إلى تحويل البحر المتوسط الى بحر فرنسى حتى يتسنى له غزو البلاد التى تفصله عن الهند ليصل إليها.

نكتفى بهذا القدر الذى أثبت لنا « بحق » حسن نيات السياسة الإسلامية للجنرال بونابرت فى مصر، لنصل إلى ما سبق أن قاله «سبيلمان» ، وهو يكرره هنا مرة أخرى ، فى خاتمة كتابه ، وهو النجاح الرائع للمعهد الفرنسى الذى كان سبب شهرة فرنسا وتأثيرها على مصر . ويبدو أن مؤلفنا كان يجهل أن هذا المعهد قد أغلق بعد رحيل الحملة ، ولم يكن له ذكر حتى عندما أعيد فتحه بعد ذلك بسنين بالاسكندرية . ولكن مؤرخنا يجهل الكثير.

فهو مثلا يكتب أن : «عبدالرحمن الجبرتى الذى ترك مذكرات لها أهميتها، كان من أنشط مندوبى الانجليز فى مصر..» ، فى حين أن المعروف ان المؤرخ الشهير كان من بين أعضاء الديوان الذى جمعه «مينو» وكان عليه بعد رحيل الفرنسيين، أن يشرح أسباب هذا التجاوب

معهم . ان «سبيلمان» لم يقرأ «مذكرات عبدالرحمن الجبرتي» ، وكان القارىء قد فهم ذلك من خلال ما تخيله «سبيلمان» عن مشاعر المصريين وردود أفعالهم، فمن البديهي أنه يكرر تهويمات بعض أعضاء الحملة دون الرجوع الى المصدر المصرى الوحيد عن الحملة، من وجهة النظر المحلية، مع أن «مذكرات» الجبرتي كانت منشورة بالفرنسية ومعروفة لكل من يهمه الأمر. ولكن ما العجب وقد قرأنا رأى «سبيلمان» في الشعب المصرى، وهو المتبنى لرأى «شاتوبريان» المحتقر للمسلمين؟ فمن الطبيعى أن يترفع مؤرخنا عن قراءة ما كتبه أحد هؤلاء المسلمين .

كما سنرى أنه لم يقرأ بتمعن كاف كتاب «ڤيڤان دينون» عن رحلته في مصر، والذى اعتبره هو نفسه من أهم انجازات الحملة: سنرى عند التعرض لهذا الكتاب المهم، إلى أى مدى وصلت تهويمات الجنرال المؤرخ عن اعجاب المصريين بجند الحملة . فما يقصه «دينون» عن الحملة، وتصرف الجند مع الشعب، يتعارض تفصيليا وجوهريا مع كل ما يدعيه «سبيلمان».

ولكننا نتقهم رؤية «سبيلمان» الاستعمارية مرة أخرى، عندما نصل إلي الصفحات الأخيرة لكتابه ؛ إن كل ما سبق كان له هدف أوحد، وهو

أن يثبت فى عام ١٩٦٩ رأيه فى سياسة المصريين المعاصرة ، «فسبيلمان» يصل إلى نتيجة حتمية، فى نظره ، وهى أن إدارة المصريين لقناة السويس بمثابة «قتل الدجاجة التى تبيض لهم ذهبا» .

وتتضح إذن الرؤية ، دون أدنى شك ، فى الغرض من وراء شرح «سبيلمان» لسياسة بونابرت الإسلامية، ودفاعه عن نياته الحسنة. لقد أجهض بغض المسلمين، تلك السياسة ، فهم لم يفهموا أن مصلحتهم تكمن فى الاذعان لخططه ، فبونابرت لم يكن يقصد الاستعمار، بل إنه لم يبغ الا تخليصهم من جبروت المماليك . ولكن لو أن فرنسا استمرت فى سيطرتها على قناة السويس، فممن يا ترى كانت ستخلص مصريى القرن العشرين؟

★★★

الفرق ضئيل إذن بين ما يقوله الجنرال « سبيلمان » فى عام ١٩٦٩، وما كان « باستر » قد نشره عام ١٩٣٢ : إنه من المدرسة الاستعمارية التى قضى عليها تحرير شعوب العالم الثالث المستعمرة فى تلك السنوات، ولم يكن الجنرال قد اقتنع بالواقع الجديد ، ولم يكن هو الوحيد الذى لايزال يعيش فى الماضى ، كما سنرى فى الصفحات التالية .

«ترانييه» و«كارمينيانى»

«بونابرت: حرب مصر»

ففى عام ١٩٨٨ ، صدر المجلد الفاخر عن « بونابرت : حرب مصر» . [١٠١] ومقدمة الناشر للكتاب تقول: «أصبح بونابرت، بعد أن انتصر على المماليك، وتحطم أسطوله، سجين فتحه، لذا، فهو لن يحقق أهدافه. وعلى الرغم من ذلك، فنتائج حملته ستكون هائلة.. أعمال المعهد الفرنسي ستخرج البلد من غفلته، واكتشاف حجر رشيد سيؤسس علم المصريات ويسمح لـ شامبليون بفك الرموز الهيروغليفية» . ويبدأ الكتاب فى أولى صفحاته، بمقولة لنابليون: «مجد الجيوش واكتشاف فنى، هكذا كانت الحملة على مصر» .. وانفراد هذه الجملة على أولى صفحات الكتاب ، وحدها ، دون أى كلام آخر، ينبىء القارىء بادىء ذى بدء، بما سيجده من أسلوب في هذا العمل ، الذى قدم له مؤرخ نابليون الشهير، الأستاذ « جان تولار » الأستاذ بجامعة السوربون ورئيس معهد نابليون.

والكتاب لمؤرخين هما «جان ترانييه» و« ج. س. كارمينيانى » . وبه كم من الرسومات واللوحات الملونة ، يسيل لها لعاب أى مهتم بالحملة، او حتى بالفنون ، وعددها «٢٧٣ منها ٤٢ بالألوان » ، والطباعة

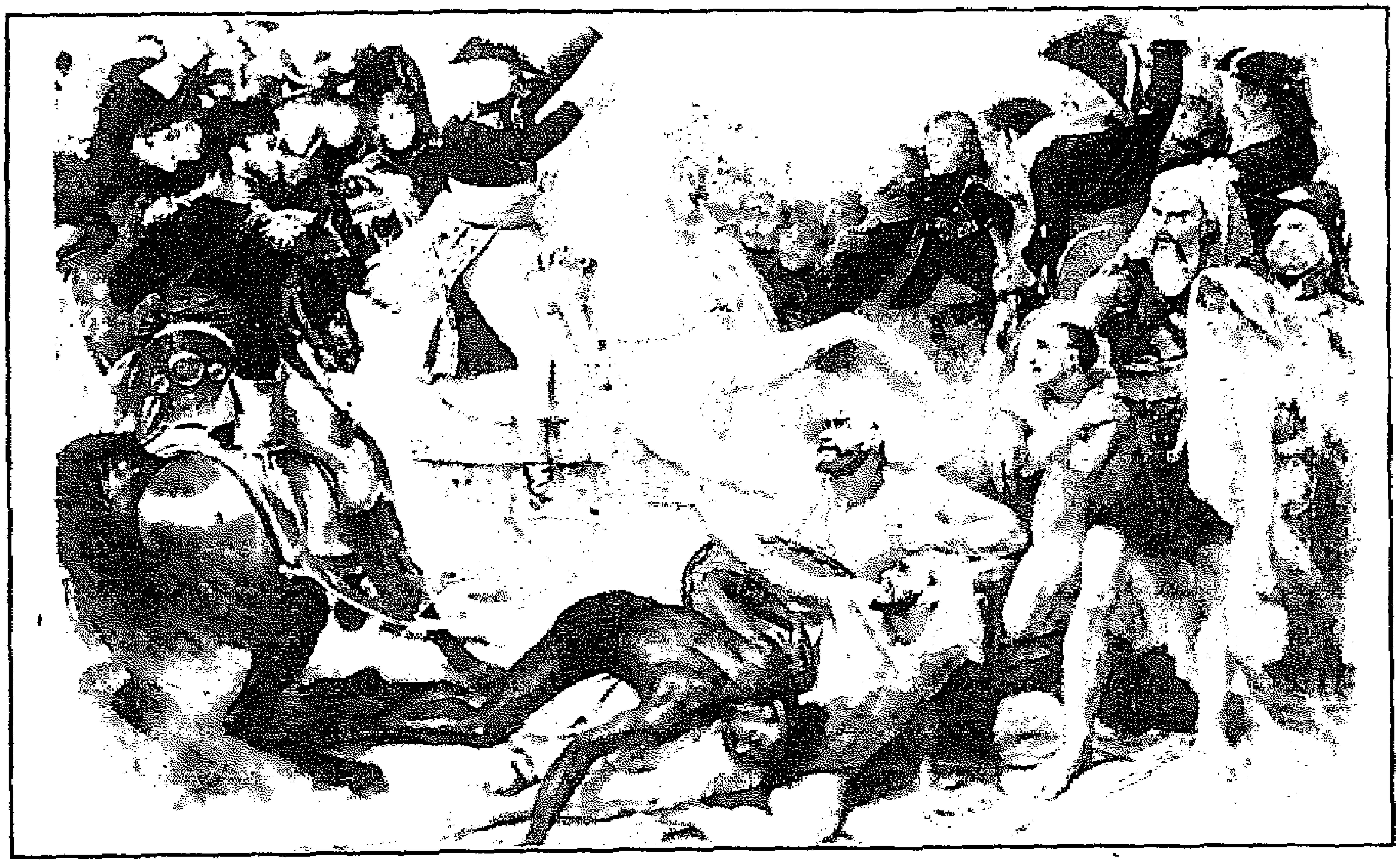

معركة الأهرامات

(بريشة الفنان جرو الذى لم ير مصر يوماً فى حياته)

كما سبق أن وأشرنا ، فاخرة فى ورقها ، وعرضها الشيق الجميل، والمقدمة التى يكتبها «جان تولار» تثبت أن مقدمة الناشر كتبت بقلمه، غير أن «تولار» يزيد ، بعد تكرار ما قيل فى مقدمة الناشر، بتأكيده أن محمد على «سيستفيد مما أنجزته الحملة، ليحدث البلد، فى عام ١٨١٥ وسيطلب*، فرنسيين ليعيد بناء جيشه، ولإنشاء نظام صحى جديد، والتوسع فى زراعة الوادى » .

ثم يبدأ الكتاب بعرض أهداف الحملة ، وهى « فتح مصر ومشروعات خاصة « بالقسطنطينية » وأهداف معينة بالنسبة للهند، ودحـر المماليك الظالمين ، وتحرير المستعبدين ، وعتق المسلمين ، وحماية التجار الفرنسيين ، وكان عددهم ، بالمناسبة ، ثلاثة فى مدينة القاهرة، ودراسة الاثار على طبيعتها ، ثم التبادل والتحسينات الخ» ... ولـن نعرف ممـن « سيحرر المستعبدون ويعتق المسلمون » . وفـى هذه المقدمة السريعة، يصف « جان ترانييه » سياسة بونابرت فـى مصـر بانبهار شديد، فبونابرت مثـلا يقـول لأعضـاء الـديـوان : « ... أبلغـوا شعبكـم أننـا أصدقـاء اوفيـاء للمسلميـن . النصر للسلطان ، لعنـة الله على المماليك. السعادة لشعب مصر (...) كـل مـن أحكمهم أولادى . فيرد أعضاء الديوان عليه بقولهم.. إنك تتكلم كالنبى».

«إن عنايته تشمل كل شيء وكل الناس، هذا ما يكتبه الشيخ الجبرتى» . ولن نقرأ مرجع هذه الفقرات الواضحة فى معناها. ويستطرد «ترانييه» وصفه «لمصر أثناء الحملة» كما يقول عنوان هذه الصفحات، قائلا: «سعد الرجل المصرى بطرد المماليك، ولكنه انسان متقلب وإن كان طيب القلب، فهو الآن يتنفس الصعداء، ويلجلج بعض الفرنسية، بينما الجند (الفرنسيون) يرطنون بعض العربية. إن الجند بسطاء طيبون (يدفعون بسخاء ويمرحون). الحياة محتملة ويمكن حتى أن تكون لطيفة، لو أن رسائل فرنسا تصل ، ولو لم يجُبروا على كل هذا الاحترام إزاء نساء هذا البلد».

« ولكن الانجليزى الغيور يراقب خلف هذه الصورة الزاهية، ويعمل. إنه يرسل الجواسيس الى اليابسة، والمهيجين والمجرمين والجنيهات. وفى الخامس والعشرين من أكتوبر ١٧٩٨، ينفجر التمرد فى شوارع القاهرة (...) وتلقى أيد خفية بالحجارة والرماح» . وهذه الثورة يسميها مؤلفنا «تمردا» ليقلل من شأنها مؤكدا : « فى نهاية اليوم، أعادت مدافع «دومارتين» وفرسان «دوما» التائهين الى الصراط المستقيم، قمع قاس ، وبضعة رءوس مقطوعة، وعدد من المشايخ المحكوم عليهم بالاعدام، تثبت للعامة أن «السلطان ابو نابرتى» عادل ولا يمزح. حتى أن هذه الحادثة الدموية لم تعد أكثر من حادثة عارضة لا تمنع الجنرال

من استمراره فى سياسة الدمج» . ثورة القاهرة ليست اكثر من «حادثة عارضة» . ونعرف أخيرا أن المرجع الذى يستمد منه مؤلفنا هذه المعلومات ، والذى يقلل من شأنها، هو «الكومندان لاشوك» الذى أفتى بهذه الرؤية للوقائع ، ولم يظهر فى وصفه للثورة الا بطولة المقاومة الفرنسية لهذه الأحداث الدموية.

وهو أيضا الذى يوحى لـ « جان ترانييه » بالنتيجة التى لخص بها عرضه السريع لوقائع الحملة ، قائلا : «إن مينو وقع معاهدة استسلام محترمة ، وعاد إلى فرنسا» ، وكأن الحملة انتهت على خير وجه .

«ولكن السكان الذين لا يزالون منبهرين، سيتحدثون فى مصر ولمدة طويلة، عن «السلطان الكبير» الذى عرف كيف يعطى لبلدهم ، النائم منذ الفراعنة ، أبعادا جديدا» .

وبعد هذه المقدمة الخاصة «بترانييه» نراه يسرد علينا تاريخ الحملة، منذ أن أصدرت حكومة «الادارة» أمر البعثة للقائد العام الجديد «والذى كانت تعبيراته من وحيه (...) :

المادة الأولى: القائد العام لجيش الشرق يتوجه الى مصر بقوات برية وبحرية ويستولى على البلد.

المادة الثانية: يطرد هذا القائد، الانجليز من كل ممتلكاتهم فى الشرق، فى كل مكان يستطيع الوصول اليه، ويدحض بالذات، كل وكالات التجارة على البحر الأحمر.

المادة الثالثة: يقطع القائد برزخ السويس ويأخذ كل الترتيبات الضرورية، ليؤكد ملكية الجمهورية الفرنسية ، الحرة المطلقة، للبحر الأحمر.

المادة الرابعة: يحسن القائد ، بكل الوسائل التى يمتلكها ، حال أهل مصر.

المادة الخامسة: يحافظ بقدر استطاعته على العلاقة الطيبة مع السلطان ورعاياه المباشرين.

المادة السادسة: هذا القرار لن يتم طبعه».

كلام واضح وصريح، يرد على كل من يرى أن هدف الحملة كان «إسعاد المصريين» ، فالمادة الرابعة المبهمة كانت ، كما هو بين ، تحية عابرة للأدبيات المثالية لفلسفة التنوير والثورة، ذرا للرماد فى العيون، ولن نفهم لها معنى وسط الأهداف السياسية الأخرى لو أننا تناسينا ما كانت فلسفة التنوير والثورة تدعيانه ، من مشاعر انسانية ، وضرورة اصدار رسالة محبة وسلام لكل شعوب العالم. من الطبيعى اذن أن يصاحب البرنامج السابق ذكره ، « جيش من ثمانية وثلاثين

ألف رجل ، كـان من بينهم ستة آلاف وخمسمائة من المحاربين» بعتـادهم . هذا لايمنع مؤلفنا ، بعد أربع صفحات من نشر الهدف الصـريح للحملة ، والذى اعتـرف انـه مـن تعبيرات بونابرت نفسه - ان يكتب الآتى : « كـان بـونـابرت يتمنى أن تكون لحملته أبعاد ثقافية وفنية وعلمية. انه يريد ان يكـون هـدفها تقدم التنوير » . التنوير من أجل علوم فرنسا، هذا مما لا شك فيه، ولكن تنوير علـوم فرنسا وحـدهـا .

ومؤرخنا يفتقر الى الدقة، مثل كل من كتب عن الحملة بانبهار شوفينى. فهو يشرح مثلا أن المماليك ، «كانوا من صنع السلطان سليم الذى أوجدهـم حتى يساندوا حكمه » . بينما يقص علينا المجلد الذى ينشر فيه هذا الكلام نفسه فى الملحق كيف «أنشأ أحد السلاطين الأيوبيين، فى عام ١٢٣٠ هذا الجيش» . كما سيقول مؤرخنا إن انفجار سفينة المؤن الحربية، فى معركة أبو قير «سيصل دويه حتى القاهرة» مما يدل على أن كلامه نظرى، لأنه لم ينظر حتى إلى خريطة الدلتا، فالمسافة بين القاهرة والاسكندرية لا تسمح بما يؤكده من أن الدوى وصل إلى أول الدلتا.

يشرح لنا كيف ان بونابرت «قرأ قبل رحيله كل ما نشر عن مصر، كما قابل المسافرين واستمع الى الدبلوماسيين، وحدد بالتالى السياسة التى سينتهجها : سياسة المخلص» . ومرة أخرى، نقرأ البيان الذى

أصدره لجنده، والذى يحرم عليهم فيه النهب والاغتصاب. ومرّة أخرى، نتأكد أن الجند لم ينهبوا، ولم يغتصبوا ، « لأن بونابرت لم يأت غازيا ولكن محررا » ، ولذا ، «ستبقى صورة فرنسا المتسامحة الذكية حية لأعوام طويلة، عند كثير من المصريين» . يكـرر مؤلفنا الكلام نفسه ، ومن البديهى أنه كلام يسعده.. « أصـدر بونابرت أوامر صارمة للحامية التى بقيت بـالاسكندرية ، يحرم عليهم دخول المساجد، المغتصبـون والنهـابون سيعدمون، كل شىء يشترى ويدفع ثمنه كاملا». وسياسة الأمان ، تلك، تستمر عندما يدخل بـونابرت مـدينة القـاهـرة : « قال بـونـابرت للمشايخ : ثقوا بسماحتى، فأجابوه قائلين : الله وحـده غفـور رحيـم . فـرد عليهم بغلظة: نعم، ولكنى غير ملزم بأن أكون هكذا » (...) .

وحتى تجد سياستـه السلمية صـدى مقبـولا لـدى الشعب ، أصـدر أوامـر صـارمـة لجنـده ... ومـرة أخرى لـن نسمـع أن جنـديـا اقترف ما يستحق عليه العقاب . ثم نقرأ مرة أخرى أن «كليبر وهامته الضخمة ملأ قلوب المصريين إعجابا... » وذلك دون مرجـع أيضـا .

وكما عرفنـا الأهـداف الحقيقيـة للحملـة ، وذلك بـوضـوح تـام ، عرفنا أيضا حقيقة الديوان الذى أنشأه بونابرت ليحكم المصريين

أنفسهم ، تحت إمرة الفرنسيين ، فالكتاب ينقل إلينا أوامر تكوين إدارات المصريين ، قائلا : الدواوين « يلاحظها مفوض فرنسى . أما الأغوات ، والموظفون التابعون للديوان من أهل البلد ، فهم تحت ملاحظة السلطة الفرنسية (...) . على الفرنسيين المبادرة ، والملاحظة ، والمراقبة ، وعلى أهل البلد التنفيذ ، وأحيانا ، التقدم بالاقتراحات » . هذه هى حقيقة الدولة « المتحررة » التى أراد بونابرت أن ينشئها ، وعندما نُفذ حكم الاعدام فى السيد محمد كريم ، «يقع رأسه على الأرض ، ويؤخذ ليثبت على قمة حربة ، ليمر على جميع أحياء القاهرة، وعليه بيان مكتوب يحكى خيانته » .. ويقابل القارىء هنا عادة من عادات غوغاء باريسية أثناء الثورة ، من تثبيت رءوس ضحاياهم على الحراب والمرور بها فى الشوارع والأزقة . فلا عجب إذا عرفنا بعد ذلك « أن الشيخ الشرقاوى رئيس ديوان القاهرة (...) الذى أغدق عليه بونابرت بأفضاله، تعاون بحماس لكل قرارات القائد الأعلى التى ستساعد على استقلال مصر فى المستقبل، ولكنه يأبى مع ذلك تنفيذ أى قرار يمكن أن يرسى السيطرة الفرنسية» . وعلى الرغم من هذا الاعتراف، فإن المؤرخ يرى أن « الدعاية الانجليزية النشطة » هى التى توعز للسكان ألا يعيشوا فى أمان مع «سيطرة (الفرنسيين) المؤقتة» . ولكن على الرغم من أن « مصر خاضعة » إلا أن «الفروق

كبيرة جدا (...) ولابد مـن وجـود احتكاكات بين الشعب وجيش الاحتلال » . وكلمة « احتكاكات » لفظ غاية فى التهذيب والحياء لاستخدامه تعبيرا عما كان يحدث بالفعل. وقامت ثورة القاهرة الأولى : « مات فيها ثلاثمائة فرنسي وحوالي أربعة آلاف ثائر (...) ، وعلى الرغم من هذا الفشل الجسيم ، إلا أن بونابرت استمر فى سياسة التوفيق، وقرر أن يمنح عفوه للجميع . لم يعاقب إلا من أتى بجريمة النهب أو إراقة الدماء . ولم يصدق أهل البلد مثل هذا الكرم فى أول الأمر، ثم تأكدوا ، باستغراب ، من حقيقة هذه السماحة المدروسة » . ولكن ، « وليؤكد بونابرت استياءه فقد ألغى الديوان، وعاد إلى الادارة المباشرة، ولكنه عاد بعد قليل الى تأليفه مرة أخرى ، لأنه أراد أن يستمر فى تطبيق سياسة التقارب التىَ كان ينتهجها» ، ولا يقال أبدا ان عقد الديوان كان ضرورة ملحة للفرنسيين أنفسهم، فهم لا يستطيعون الاستغناء عنه، لدوره الحيوى فى الاتصال بالجماهير، وتنفيذ رغبات المستعمر وأوامره.

أما حياة الفرنسيين فى مصر، فإنها تصور بألوان وردية؛ فنعرف مثلا أنه فى ديسمبر من عام ١٧٩٨ : «وعلى الرغم من أن القائد العام كان قد أصدر أوامر صريحة بعدم تعرض الجند لنساء البلد دون رغبتهن، إلا أنه يترك، برضاء تام ، قصص الغرام التى ينسجها

فرنسيون ذوو عقول خلاقة» لإيجاد وسائل الاتصال الودى. وهكذا. فالرومانسية هى الصفة التى تتسم بها علاقات الجند بنساء البلد. « ويقال إن أكثر ما عجب له أهل البلد، لم تكن العادات الأوربية التى لم يحبذوها ، ولا حتى الاختراعات العجيبة التى أنجزها علماء المعهد (مثل) عرض المنطاد، ولكن الشعب قد عجب لرؤية المنتصرين يعملون طوال اليوم ويعيشون بطريقة بسيطة ولا يستغلون انتصارهم» ... «يقال» ، من الذى قال؟ أمر غامض كالمعتاد، ناهيك عن أن محاولة اطلاق المنطاد قد فشلت مما يثبت هنا أيضا أن المعلومات التى يقدمها مؤرخنا منقوصة.

كما أن حياة المنتصر لم تكن بالتقشف الذى يلفت النظر، كما سنفهم من مذكرات من كانوا أعضاء في تلك الحملة، ولكنها الأسطورة التى تصف أناسا أسطوريين، خاصة أن المؤلف يعيد ويكرر ما سبق أن قرأه فى الكتب الأسطورية ، دون التأكد من مصادرها، لأنها توافق هواه ، فمرة أخرى، نعرف أن الجيش الفرنسى وصل الى سهل غزة وأن أحد الشهود العيان كتب: «انطلقت الأناشيد الجمهورية فى الوديان نفسها، التى كان الصليبيون الأوربيون ينشدون فيها ترانيم ايمانهم المسيحى» .. فالحروب الصليبية لاتزال فى الأذهان.

نرى أن كل ما يفعله الجند كان مبررا، حتى وإن كانت مجزرة يافا البشعة، التى استنكفتها انسانية الضباط الفرنسيين أنفسهم ؛ ففى السابع من مارس ١٧٩٩ ، دخلت كتيبة «لان» من فجوة فى حصن المدينة : «كان العدو يدافع عن نفسه بضراوة ، ولكن وفى هذه المرة ، استشاط غضب المهاجمين . كانت ذكرى زملائهم المقتولين فى القاهرة تسيطر عليهم ، واستمر القتل والاغتصاب والسلب والنهب طيلة الليل . وحاول الضباط ان يحدوا من هذا العنف . ولكن دون جدوى ، وفى الصباح كان المنظر بشعا . أكثر من ثلاثة آلاف جثة كانت تفترش أرض المدينة . أبيدت عائلات بأكملها » . ، وبعد ذلك ، كان إعدام الأسرى ، بعد أن وعدهم «أوجين دى بوهارنييه» بالأمان إذا هم استسلموا . والغريب هنا هو انفراد مؤرخنا ، دون كل المؤرخين ، بوصف تلك الفعلة الشنيعة على أنها «بدت فى عصرها ، منطقية جدا لغالبية فرنسيى الجيش » ، فى محاولة يائسة منه ، لتبرئة بونابرت بأى ثمن . والمعروف أن الطاعون ، عندما تفشى بين جند الفرنسيين بعد ذلك اعتبره كثير منهم عقابا من السماء لفعلتهم الإجرامية .

أما عن حصار عكا ، فلا عجب إن كان قد فشل ، ما دامت الحامية التى دافعت عن الحصن «كان بها بعض الطوبجية ، الذين علمهم الفرنسيون فحفظوا الدرس جيدا » .

ولكن الكتاب يعترف ، ولو بأسلوب ملتو ، بما كانت عليه حقيقة السياسة الاستعمارية من عنف . فعندما عاد بونابرت فاشلا من الشام، أراد أن «يؤكد الولاء له ، لأن الخوف لا يزال أكثر الأسلحة فعالية في مصر (...) قبض على الأشخاص «المريبين» وأعدموا رميا بالرصاص، كانت هذه الوسيلة تبذيرا للذخيرة ، فلجأوا الى جلاد متمرن ، فعال ولا يكلف الكثير . والعاهرات اللاتي كن يزحمن الثكنات ، ألقين في النيل (....) . كانت الغرامات ، والقروض الاجبارية، والضرائب ، تسيء، الى حد ما ، الى سياسة التقارب التى انتهجها بونابرت على الدوام» . ولا يسعنا طبعا إلا الإعجاب بتعبير «الى حد ما» ، خاصة بعد الذى قصه علينا من إعدام بالجملة ، ولم نعرف عدد من أُعدموا لمجرد الارتياب فيهم وكان رميهم بالرصاص يكبد ذخيرة الجيش الكثير : ألم تعلمهم الثورة فى فرنسا وسائل «رخيصة» للتخلص من الأعداء ؟

والنتيجة التى يتوصل اليها مؤلفنا لا تخلو من سخرية غير مقصودة طبعا . فهو مقتنع تمام الاقتناع بروعة أعمال الحملة ، بعد كل ما حكى عن المذابح العشوائية : ألم يقل إن أعداء الفرنسيين «كانوا يظنون أن الفرنسيين يتمتعون بقوة خارقة يتعذر شرحها» ؟

«حملة مصر ، التى يمتزج فيها الحقد والحب ، والعظمة والخسة ، والشمس والموت ، فتحت آفاقا جديدة للفرنسيين والمصريين ، بفضل

ماتوصلوا اليه من تفهم أعمق ومتبادل لاختلافهم ..ربما لم تكن إلا بداية «الحلم الشرقى» ، ولكنه كان أحسن ما فى هذا الحلم» !!

والغريب أن هذا الكلام فى تناقض تام مع التعليقات التى نقرأها فى المجلد نفسه ، تحت اللوحات التى تنقل الينا . فنصف المجلد تقريبا من الرسوم واللوحات التى رسمها فنانون بعضهم كان مصاحبا للحملة والبعض الآخر رسمها بعد ذلك بتوجيهات بونابرت لدعايته الشخصية، ولنقدم بعضها للقارىء الكريم .

فمثلا ، هناك اللوحة المسماة «دخول بونابرت الى الاسكندرية فى الثانى من يوليو ١٧٩٨ » وهى تصور الموتى على الأرض والجرحى يتوسلون الى بونابرت على حصانه الابيض ، والنور يغمره ، والتعليق يقول : «بونابرت ينقذ أباً بإشارة من يده» ... وعدد الضحايا تحت حوافر حصانه لايحصى . ولوحة أخرى عنوانها : «مسيرة الجيش فى الصحراء » والشرح يقول : « ... ويصاحبه رجال من البدو الذين يقتلون بقسوة من يبتعد عنه من الجند ..» : كلام لا نجد له مرجعا فى النص المكتوب ، الذى لا يصور بونابرت وجيشه إلا منتصرين ، مثلما نرى فى اللوحة الأولى . ثم نرى لوحة «بونابرت (وهو) يهدى الوشاح الجمهورى ذا الألوان الثلاثة لأحد بكوات مصر» ، ونرى هذا «البك» وهو فى الواقع من المشايخ ، ورأسه منحنٍ ، ويداه معقودتان على صدره فى

وضع ذليل ، بينما نقرأ تحت الصورة ما يلى : «أمر القائد العام يوما أن يأتى اليه البكوات ، ثم خرج وعاد وبيده أوشحة بألوانها الثلاثة، ووضع أحدها على كتف الشرقاوى ، واذا بالشرقاوى يلقى به فجأة وقد احمر وجهه غضبا ويقدم استقالته . حاول المترجم جاهدا أن يشرح للمشايخ المجتمعين أن القائد العام يريد تكريمهم بجعلهم يرتدون الشارات نفسها التى يرتديها هو ، ولكنهم أجابوا : سنفقد احترامنا أمام الله وفى قلوب إخواننا فى الدين » . مأخوذ عن مقال «الحملة على مصر فى أعين الكتاب المصريين « بقلم ابراهيم أمين غالى » (١٠٢) ، وكنا نظن أن مثل هذا الكلام كان يكفى لعدم نشر اللوحة الكاذبة، اللهم إلا إذا كان الهدف هو فضح الاسطورة ، واللوحة . وتحت رسم آخر عنوانه « مناظر من مصر السفلى - ١٥ سبتمبر ١٧٩٨ » نقرأ «.. كلف هذا اليوم الفرنسيين ثلاثة قتلى وتسعة عشر جريحا ، فى حين قتل حوالى الثلاثين من الفلاحين الثائرين . وفى الفترة نفسها قامت محاولات ثورية عديدة فى مقاطعات المنصورة ودمياط والمنزلة » ، وهو اعتراف يتنافى مع ما نقرؤه عن الحياة الوردية للفرنسيين فى النص المكتوب لهذا المجلد . وتحت لوحة عن «ثورة القاهرة - ٢١ أكتوبر ١٧٩٨» نقرأ : «بعد وفاة الجنرال دوبوى أخذ الجنرال بون قيادة المكان ، وجمع الوحدات المتناثرة فى المدينة ، وبعد معارك ضارية

فى الشوارع ، رُد الثوار الى جامع الأزهر ، الذى سيصبح الملاذ الأخير لهم » ، هذا الكلام أكثر بكثير مما سبق أن قرأناه فى النص عن « الحادثة العارضة» . كذلك ما كتب تحت لوحة تصور « بونابرت (وهو) يعفو عن ثوار القاهرة » (....) فالجنرال بونابرت قد عفا « عن كل من لم يوجد بيده سلاح» ، ثم عن جموع السكان . ومع ذلك ، فالعقاب كان بشعا للمحرضين على الثورة وكل من « يثبت اشتراكه فى القتل أو السلب » . « قطعت رءوس ستة مشايخ من الأحد عشر شيخا الذين ثبتت مسئوليتهم بعد القبض عليهم ، وكل رجال قبيلة البدو الذين قتلوا ركبا لأحد عشر مريضا من فرقة رينييه القادمة من بلبيس . كذلك ، سينفذ حكم الإعدام فى كل الأسرى المسلحين ، وستلقى جثثهم فى النيل ، كى تمر على مدن الدلتا كلها ، فتعرف تلك المدن عندما تراها مارة عليها أن سيف بونابرت لا ينهزم ، وأنه لا جدوى من معارضة إرادته» . ثم لوحة سميت «بونابرت فى الجامع الكبير بالقاهرة» نرى فيها بونابرت على جواده فى ساحة الأزهر، ويحكى التعليق تفاصيل المعركة كلها ، حتى بعد أن استسلم الثائرون : «بقيت بعض المعارك المتفرقة وسط أطلال الجامع الكبير ، حيث سينتحر بعض المتعنتين حتى لا يسقطوا أحياء فى أيدى الفرنسيين . تسبب يومان من الثورة فى وفاة نحو ثلاثمائة فرنسى ، منهم كثير

من علماء المعهد الفرنسي ، وكثير من الضباط ، كان من بينهم الجنرال دوبوى قائد المنطقة ، والضابط سولكوفسكى ، الياور المفضل لدى بونابرت . وقد مات أكثر من ثلاثة آلاف من الثوار » . وتحت رسم آخر سمي أيضا «ثورة القاهرة - ٢١ أكتوبر ١٧٩٨» نقرأ ما يلى : «استغل الانجليز والأتراك حالة التذمر التى خلقتها (اللوائح الفرنسية) وساعدهم على ذلك الأئمة والمفتون الذين يحرضونهم على الثورة ، بإذكاء التطرف الدينى » .

إن الرسوم واللوحات هى التى تعرف قارىء هذا المجلد أن الحياة اثناء الحملة لم تكن وردية كما يوحى بذلك النص المكتوب ، نرى مثلا الرسم الذى يعرف بالمقاومة المسلحة فى الريف حيث « يتجمع البدو وأهل مكة تحت قيادة الشريف «حسن» فى معركة أبومنا - ١٧ فبراير ١٧٩٩ أو معركة بنوث ٨ - ١٠ مارس ١٧٩٩ ، لأنه فى الثالث من مارس ، حجزت مراكب فرقة ديسى (....) أمام قرية بنوث ، وهاجمها الشريف «حسن» واستولى عليها على الرغم من مقاومة أطقم المراكب الذين قتلوا جميعا (خمسمائة رجل ، من بينهم مائتا بحار) وصل لواء الجنرال بلليار بعد فوات الأوان ، ولكنه تعقب حسن» .

أما عن الحملة فى الشام ، فهناك رسم يشير الى «النقيب أوجين دى بوهارنييه (...) يتفاوض بصحبة كروازييه (...) مع جزء من

الحامية التى احتمت فى الخان لتسلم نفسها ، وقد وعدها بالأمان (....) لكن بونابرت لم يبال وأمر بإعدامهم . وإن كان الجيش لم يوافق على هذا القرار ، الذى قال عنه (المؤرخ) تيير (فى القرن التاسع عشر) إنه : العمل القاسى الوحيد فى حياة امبراطور المستقبل » .

ومرة أخرى ، ناقضت التعليقات التى تشرح الرسوم كلام النص وتأكيداته غير الموثقة.

★★★

منذ بداية هذا الكتاب ، والأمور تبدو مؤكدة ، وكأن الدراسات السابقة قد أثبتتها ، مثلما يقال عن العمل العظيم للمعهد الفرنسى، وامتداد التأثير الفرنسى بعد ايقاظ مصر من غفوتها .

أصبحت هذه المقولات من المسلمات التى لاتناقش ، حتى أن أستاذا مثل « جان تولار » الذى نقب عن كل كلمة قالها نابليون ، وكل عمل قام به ، بدقة متناهية ، وروح نقدية رائعة ، وبكل ثقل سمعته العلمية يرجح هذا الكلام المبهم .

والأسلوب المستخدم بعد ذلك، يصعب توضيح خصوصيته مهما بلغت فعالية ترجمته الى العربية ، فهو أسلوب لايستعمل إلا التعبيرات والكلمات التى تؤثر على القارىء بطريقة لاواعية ، فتجعله ينبهر ببونابرت ورجاله ، ويقلل فى الوقت ذاته من شأن المصريين وكفاحهم .

فالنظرة العلوية لمؤلف الكتاب لاترى إلا ماهو سيىء فى كل مايفعلونه ، ولاترى خطأ فيما يقترفه الفرنسيون .

«فترانييه» المسئول عن النص المكتوب ، ليس مؤرخا بقدر ما هو مؤلف فنراه يحبذ جانبا ، ويحتقر الجانب الآخر فتأتى كتابته دعاية سافرة للأمجاد الفرنسية ؛ وإذا لزم الأمر ، اختلق الأعذار لتبرير مالا يبرر ، وفخم مالا يستحق حتى الذكر . والرسوم المعروضة ، بتعليقاتها تأتى أحيانا على عكس ماقيل فى النص ، ولايبدو أن المؤلفين اهتما كثيرا بهذا الأمر ، مما يقلل من القيمة العلمية لكتاب ، نتوقع أنه يؤرخ لواقع لاتتغير صورته عبر الصفحات .

وأقل مايقال عن هذا الكتاب ، الجميل المظهر ، والذى نشر عام ١٩٨٨ ، انه لايستند إلا على الكتب التى تغنت بأسطورة بونابرت والحملة ، وتجاهل كل ماقيل عن الحقائق المريرة لتلك الحملة ، وبقلم من كان مصاحبا لها، إنه ترديد لكل ماسبق ان كتب دون سند علمى ، بلا أية اضافة جديدة ، اللهم إلا الدفاع عن مجزرة اسرى يافا، وهو الأمر الذى لم يصل إلنيه أكثر المؤرخين انبهارا بالحملة وببونابرت .

وتأتى بعد ذلك التعليقات تحت اللوحات ، والمسئول عنها «كارمينيانى» لتؤكد ذلك التناقض الذى نلاحظه عند مؤرخى هذه المرحلة فهم لم يتخلصوا بعد من داء الدفاع عن بونابرت حتى وإن كان ظالما ،

وتمجيد الحملة حتى وان كانت فاشلة ، وفى الوقت نفسه يعترفون بجوانب سلبية فرضت نفسها على أكثر المؤرخين تحيزا لمجد الجيوش الفرنسية .

يبقى دور «جان تولار» الذى قدم للكتاب بإعجاب شديد ، وكأنه يوافق على كل كلمة جاءت فيه .

★★★

« جان تولار » والحملة

مقدمة «جان تولار» لهذا الكتاب ، تجبرنا على التنقيب عما قاله المؤرخ الكبير عن بونابرت والحملة ، خاصة أن كتابه المهم عن نابليون أو «أسطورة المنقذ» ، كان قد نشر فى عام ١٩٨٧ ، اى قبل عام واحد من ظهور هذا المجلد . وكان «تولار» قد اهتم بدراسة الحملة كجزء من تاريخ نابليون ، ولكن كتابته عن الحملة سبقت هذا التاريخ بسنوات أربع .

نشر لـ « تولار» مقال فى مجلة «لستوار» ، عام ١٩٨٣ (عدد ٦١) عن «بونابرت فى مصر» ، ونشرت المجلة على غلافها - إمعانا فى تأكيد أهمية مقال «تولار» - صورة للوحة ، لم يذكر اسم راسمها ، نرى فيها بونابرت على اليمين ، ومن ورائه ضباطه ، منتصبين فى إباء ، وفى النصف الأيسر ، مجموعة من المصريين ، خاشعين ، ورءوسهم كلها

أقصر من رءوس الفرنسيين وأحدهم يركع أمام بونابرت ليتسلم منه سيفا وعنوان اللوحة «الجنرال بونابرت يهدى سيفا للحاكم العسكرى للإسكندرية» علما بأن الحاكم العسكرى لم يكن يوما مصريا أثناء الحملة .

وتحت عنوان مقال «بونابرت في مصر» نقرأ ملخصا لأفكار المقال بالخط العريض · «أيوجد فى تاريخ فرنسا حملة أكثر غرابة من غزوة مصر عام ١٧٩٨؟ حتى إن كانت «جنونية» ، فهذا لم يمنع حرب بونابرت من تغيير وجه الشرق الأدنى ، وفي مصر نفسها تختلف الآراء حول نتائج الوجود الفرنسي ، سواء أكانت هذه الآراء ايجابية أم سلبية » .

ويشرح «تولار» هذه المقدمة بقوله : «جنونية ، لأن الغزوة تبدأ فى شهر يوليو ، مما يدل على الجهل التام بمناخ المنطقة ، ولأنها هجوم على بلد لم تعلن الحرب عليه . وجنونية ، من جهة أخرى ، لأن السبب المعلن كان إنشاء مستعمرة ، فى اللحظة التى يعلن فيها حق الشعوب فى تقرير مصيرها . والأغرب أن الجيش الفرنسي وجد نفسه سجين فتحه ، لايستطيع الرجوع الى فرنسا ، في حين يتركه القائد لمصيره ، ويعود مسرعا لإنقاذ جمهورية ، يهددها تحالف كان منتظرا من أمد بعيد . وعلى الرغم من ذلك ، وحتى ان كانت مجنونة (.....) فقد ولدت

الحملة علم المصريات (....) وساعدت على الانطلاقة الاقتصادية لمصر، لأنها أعادت للشرق الأوسط مكانة ، كان قد فقدها» . ويلاحظ «تولار» الاهتمام الحالي بالحملة «فأعيد نشر كتاب بونابرت فى مصر لبينوا - ميشان كما اعيدت ترجمة الجبرتى» . لذا ، أخذ «تولار» يقدم فى مقاله تاريخ الحملة ، مؤكدا ان فكرة الاستيلاء على مصر كانت وليدة سياسة «تاليران» ، حتى اهتم بونابرت بالفكره . ويرفض «تولار» ما يؤكده أسلافه من المؤرخين - ومنهم «بينوا - ميشان» أن بونابرت كان يحلم دائما بإمبراطورية شرقية .

أما عن الحملة ، فقد تم الاستعداد لها فى سرية تامة ، وبسببها أبعد عن فرنسا - وهى مهددة - أحسن جيوشها وأكبر علمائها. ولكن «الغزوة لم تكن بالسهولة التى كانوا يتوقعونها . فالهجوم أثناء شهر يوليو كان بمعدات لاتتلاءم مع الحرارة الشديدة للجو ، وكل أقوال الشهود العيان تؤكد انهيار الروح المعنوية للجند ، وقد أصبحوا ضحايا لأنواع مختلفة من الحمى ، علاوة على أن دوافعها لم تكن مقنعة (.....) فالجند لايدافعون (كما حدث فى حروب الثورة) عن أرض الوطن (.....) فكانت حالات الانتحار العديدة » .

ولكن بونابرت يعيد تنظيم البلد ، ومثل أسلافه لم يتحدث «تولار» عن رد الفعل المصرى على بيانات بونابرت ، وكذلك لم يتعرض لما

اتخذه بونابرت من اجراءات لتمويل خزانة جيشه . فهو يرى ان احترام بونابرت لشعائر الدين الاسلامى كاف لكسب محبة الجمهور المسلم . وكان الاهتمام بالآثار كبيرا . ولكن هناك بعض الثورات المحلية ، الى ان نصل الى ثورة القاهرة ، فى الحادى والعشرين من أكتوبر : «ان العامل الدينى هو الذى يشرح هذا ، وليس تأثير الانجليز او المماليك» ، ومن البديهى ان «تولار» يرد هكذا على من سبقه من مؤرخين ، يؤكدون هذا الكلام الذى ينفيه هو ، ولكننا نراه يتفق معهم على ان التطرف الدينى ، وليست أفعال الجيش أو إجراءات بونابرت ، هى التى تسببت فى الثورات على الجيش . والجديد هنا ، تأكيد «تولار» على انضمام علية القوم للجيش الغازى ، متخذا «الجبرتى» مثلا لذلك :«هذا البورجوازى المثقف ، الذى ترك مذكراته (......) كان عضوا فى الديوان الثالث الذى أنشأته السلطات الفرنسية ، فى حرصها على اشراك الأعيان فى ادارة مصر . لم يرفض الجبرتى هذا التعاون مع العدو ، حتى إن كان كتوما (بالنسبة لهذا التعاون) فى مذكراته . ما أسباب هذا التعاون؟ أهو الحس الانتهازى ؟ الخوف ؟ الاقتناع بأن المستعمر الفرنسى يستطيع تحسين البلد ؟ نلاحظ انه يكتب باستحسان عن اعدام الناهبين الفرنسيين ، انه يرى فى هذا التصرف دلالة على اصرار بونابرت على حماية الممتلكات . ويلاحظ (الجبرتى) ان الشعب ،

فى المدن والقاهرة بالذات ، قد عاد الى أخطائه السابقة» .. وعندما يصف «تولار» – سريعا – الحملة على الشام ، نراه يعزو فشل بونابرت أمام عكا الى وجود «المهاجر فليبو» الفرنسى وإلى المساعدة الانجليزية، دون ذكر لمجازر بونابرت السابقة ، ولكنه يصف تدهور حالة الجيش الصحية والمعنوية أثناء العودة ، ويلاحظ ان هذه الأمور لم تؤثر بأى صورة على مشروعات بونابرت ، ولكنه يعود الى فرنسا بعد انتصاره على الأتراك فى معركة «أبو قير» الثانية .

أما عن نتائج الحملة ، فقد كان المستفيد الأول منها هو بونابرت نفسه : « لقد تسببت هذه الحملة – أكثر من حملة ايطاليا – فى ازدياد هيبته بصورة هائلة ، فلا يستطيع الخيال الشعبى (الفرنسى) إلا أن يلتهب لذكر انتصارات دارت تحت سفح الأهرامات ، أو بجانب الأماكن المقدسة (بفلسطين) وانتشرت الرسوم الشعبية بألوانها الرديئة ، حيث شىء من الجمال وقليل من النخيل يكفى وراء جنودنا بزيهم الكامل ، وهم يعاركون أناسا لهم شكل غريب وعلى رءوسهم العمائم . وفى ركن من الرسم ، أو يتوسطه ، ضابط شاب نحيف ، شرس ، واثق بنفسه وبالانتصار، يلقى أوامره . هكذا وجدت فرنسا فيه القائد الذى كانت تبحث عنه

لينهى الفوضى التى سببتها الثورة » . ويلى هذا، شرح للدور الذى لعبه بونابرت وفريقه «بمهارة» ، لتغذية الأسطورة ، على الرغم من «الانبهار الشعبي العفوى» للحملة.

«ولكن كانت هناك نتائج أخرى للحملة بالنسبة لفرنسا»، فكان التأثير على الفن أول مايرشدنا إليه «تولار»، وكأنه اهم مانتج عن الحملة، ولو ان «تولار» يجد فى هذه «الموضة» نوعا من التملق لحاكم فرنسا، «القنصل الأول بونابرت» ، لأن هذا النموذج لم يكن جديدا على ميادين الفن، خاصة فى إيطاليا، ويرى «تولار» ان تلك اللوحات كان لها أكبر الأثر على اهتمام الفنانين الرومانتيكيين من بعد؛ مثل لوحتى الفنان «جرو»، «مرضى الطاعون فى يافا» عام ١٨٠٤ و «معركة «أبو قير» عام ١٨٠٦، ولوحات لآخرين مثل لوحة الفنان «جيران» عن «الجنرال بونابرت يعفو عن متمردى القاهرة»، والتى عرضت عام ١٨٠٨ ويذكر «تولار» كتاب «فيفان دينون» عن رحلته وانبهاره بالآثار المصرية، ويصف لنا جمال الرسوم التى نشرت فيه ويلفت نظرنا أن «تولار» ، مثله فى ذلك مثل غيره لم يتوقف عند الصفحات التى يحكى فيها «دينون» عن الوجه المظلم للحملة على مصر، تلك الصفحات التى سنترجمها فيما بعد.

الأثر الايجابي الآخر للحملة، من وجهة نظر مؤرخنا، هو اكتشاف حجر رشيد، وما سببه من فك للرموز الهيروغليفية على يد الفرنسي «شامبليون» ، بعد ان فشل الانجليزى «يونج» فى تلك المهمة.

ويقول «تولار»: «من جهة اخرى وعلى المستوى الحربي، فلابد ألا نبالغ فى الدروس المستفادة من الحملة على مصر، فإنشاء جيش استعمارى لم يأت إلا فيما بعد، مع غزو الجزائر، ولكن مما لاشك فيه ان الحملة كان لها اكثر من نتيجة غير فرنسية. فعواقبها الدبلوماسية كانت مهمة، على الأجلين القصير والبعيد». لقد أثبتت الحملة ان «قسطنطينية لم تعد قادرة على الاحتفاظ بفتوحاتها القديمة. وكانت انجلترا واعية لأى تغيير جذرى» ، يطرأ على المنطقة.

ثم يستعرض «تولار» مايقوله الدارسون للحملة، خاصة من العرب. ويختار مثالا على ذلك صلاح الدين بستانى، الذى يرى انها بداية الصحوة الاقتصادية لمصر، فما بونابرت، من وجهة نظره، إلا رائد محمد على الذى حقق مشروعات بونابرت واستعان بالفرنسيين فى نهضته. ثم يهاجم «تولار» سلسلة مقالات «رشاد رشدى» فى جريدة الأهرام : « فهى نتيجة التعليم الدينى السلفى المتعنت الذى يتهم فرنسا بجلب سموم الغرب ، لأن رشاد رشدى يتهم الحملة بأنها افقدت مصر هويتها» . ويكفى هذا الوصف الغريب لرشاد رشدى

ليفهم القارىء العربى « تعنت تولار » نفسه ، انه لايريد ان يرى ان فقدان الهوية ، فى مصر ، مرفوض من الدينى وغير الدينى ، كما يحدث فى فرنسا بالضبط وفى كل بلدان العالم، ثم ينصح مؤرخنا «المخرج يوسف شاهين بخصوص فيلمه المقبل (عن الحملة) الذى تشترك فرنسا فى انتاجه ان يعى ان الحملة كانت تحمل بذور فتح قناة السويس ، وتنظيم مجرى النيل ، كما أنها تسببت فى صحوة مصر السياسية والاقتصادية ، واكتشاف ماضيها» . وهكذا ينتهى هذا المقال المكتوب سنة ١٩٨٣. ويشرح لنا إعلان تلك الأفكار، منذ ذلك التاريخ ، تبنى «تولار» لكتاب « ترانييه وكارمينيانى » ، وكتابته لمقدمته .

ظهر للمؤرخ بعد ذلك العديد من الكتب، تفضح كلها أسطورة نابليون.. إلا فيما يخص الحملة على مصر!

ويتعرض «تولار» للحملة طبعا فى كتابه الشهير عن «نابليون أو اسطورة المنقذ»، عام ١٩٨٧ ، يرى فيه مؤرخنا ان الحملة على مصر كانت لها أهداف مهمة، وهى « قطع طريق الهند على الانجليز، (...) إنشاء مستعمرة تساوى - على حد قول تاليران - كل المستعمرات التى فقدتها فرنسا . (...) وترسيخ قاعدة لغزو الهند فى المستقبل ، وهى التى تعتبر أهم مورد للثراء البريطانى : (...)

كان غزو مصر يبدو جنونا (...) خاصة ان البلد لايزال مجهولا، على الرغم من تاكيدات القنصل الفرنسي «ماجالون» عن سهولة مثل هذا الفتح . ولكن خيال بونابرت كان يستهوى الشرق.. (...) اما الرأى العام ، فقد التهب حماسا لحملة تذهب الى منطقة غامضة، كان كتاب فولنى ، الاطلال ، قد جعل منها موضوعا ساخنا»، وأراد بونابرت ان تكون لحملته على مصر «صبغة علمية»، ليؤكد تكاتفه مع تيار الفلاسفة «الفكريين» (١٠٢) . وأيا كان الامر «ففتح مصر بدا، قبل كل شيء ، عملية سياسة داخلية: إن بونابرت كان اكثر واقعية مما يبدو، حسب ما نسب اليه من تصريحات بعد ذلك ، حتى يفكر فى إنشاء امبراطورية خاصة به فى الشرق، مثلما فعل الاسكندر، كانت هناك عوائق متعددة، أولها الدين واللغة ، وهى تمنع مثل هذا التفكير. (...) انهيار المماليك بسرعة: معركة واحدة كانت كافية لذلك (...) فسرعان ما تحول هذا الانتصار ، وبفضل ما قيل عنه من اساطير، الى معركة كبيرة جدا . ولكنها ، على الاقل ، فتحت القاهرة لبونابرت (...).. وفى الحادى والعشرين من اكتوبر، عبرت ثورة القاهرة عن عداء السكان (...) وقد اثبتت هذه الفتنة العنيفة حدود انضمام الاعيان المسلمين» إلى بونابرت...

لن نعرف تفصيلات اخرى عن الثورة ؛ فرأى « تولار » واضح : الدين وحده هو سبب رفض المصريين لبونابرت : « مشروعات تحويل الجيش الى الاسلام كانت تقابلها صعوبات جمة (مثل احتساء الخمر) ودون الدخول فى الاسلام، فلا امل فى اى انتشار فى الشرق الادنى ، كما يثبت ذلك شارل - روو » ، فى كتابه بونابرت حاكما على مصر (١٠٤) .

وعلى الرغم من تشبيه «تولار» لموقف الفرنسيين فى مصر «بالكابوس» ، إلا انه يؤكد ان : «بعض المسلمين قد انضموا للفرنسيين. ولكن كان هذا شأن البورجوازية المستنيرة وحدها، وهى التى يمثلها الجبرتى»: فالاستنارة فى نظره، هى التى تقود الى التعامل مع الجيش المستعمر. ولايفوتنا انه لايذكر اسما آخر غير اسم «الجبرتى» .

وفى عام ١٩٩١، يضيف «تولار» بعض التفاصيل الأخرى عن الحملة، فى كتابه عن «حكومتى الادارة والقناصل»، انه يثبت فيه ان بونابرت لم يكن مجددا، بقدر ما كان منفذا، أثناء توليه «قنصلية» فرنسا بعد عودته من مصر، فما كان بونابرت إلا منفذا لسياسة الحكومة السابقة، حكومة «الادارة» التى سبق أن ارسلته الى مصر، فهو يرى ان البعثة العلمية التى صاحبت الحملة على مصر، لم تكن اكثر من «تبرير للحملة» ، ولكن «تولار» صور بونابرت على أنه : «حامى

العرب ومحرر الفلاحين ، متعهد باحترام الدين وتقاليد الاسلام ؛ كان عليه ان يعيد ايضا ثراء مصر، التى كانت تصدر الغله لروما القديمة، حربه إذن حرب تحرير » . ولكن المصريين لم يقبلوا الوضع ، « وكان على الفرنسيين إخماد فتنة القاهرة بعد ان اعطى الفرنسيون امتيازات لليهود » .

.. أى نعم ، فعلى القارىء ان يعيد القراءة ويتأكد من ذكر اليهود حيث انهم لم يذكروا يوما فى أى نص آخر. ومثل هذا الكلام يأتى هكذا، دون أى مرجع، بالطبع. ويبدو ان «تولار»، هو الآخر، اصطدم بضرورة تبرير اخطاء الحملة، على الرغم من مرور اكثر من قرن عليها، حتى إن لجأ المؤلف الى قضايا معاصرة له ليستخدمها فى تبريراته: ففى النصف الثانى من القرن العشرين، تقوم الحروب بين العرب ، مصر بالذات ويهود اسرائيل؛ فيشرح هذا «لتولار» فى عام ١٩٩١، ثورة القاهرة فى عام ١٧٩٨ ! .

إنه ، مثل اسلافه – «سبيلمان» بالذات - يقحم الحاضر، وينتهز فرصة تأريخه للحملة، ليصفى حسابات قضاياه المعاصرة.

ويأتى «تولار» الى لحظة حساب الحملة: «إن نتيجة الاستعمار بدت ايجابية الى اقصى حدود على المستوى الثقافى» : فتولار سعيد جدا بإنشاء المعهد الفرنسى، وما جمع من عناصر «لوصف مصر» ،

واكتشاف حجر رشيد؛ ولن يذكر غيرهما كنتيجة ايجابية مادية مؤكدة للحملة.

فنظرة «تولار» إذن، لم تتغير كثيرا، منذ كتابة مقاله فى عام ١٩٨٣، ولكن وفى عام ١٩٩١ نفسه، تنشر له «الببليوغرافيا النقدية الجديدة لمذكرات المرحلة النابليونية، المكتوبة بالفرنسية او المترجمة إليها»؛ وهو لايقدم فيها إلا «الكتب التى تخص نهاية الحملة، بعد سفر بونابرت» (١٠٥).

«أما المذكرات الخاصة بالحملة، فهى فى الببليوغرافيا النقدية لمذكرات الثورة ، التى نشرها فيررو سنة ١٩٨٨» .

مجلد « تولار » ، يلخص فى بضعة سطور محتوى كل عنوان يقدمه . فنقرأ عن مذكرات احد جنود الحملة مثلا « أنها ضرورية لمعرفة الحال البائسة للجند فى مصر ، بالنسبة لشخص لايهتم بالمجد » .

ويلفت نظرنا عنوان « مذكرات تصلح لتأريخ حملتى مصر وسوريا» ، لجال فرنسوا ميوو ، والتى يعلق عليها «تولار» بما يلى: «فعلى حسب الطبعة الثانية، يبدو ان نشر هذا الكتاب أثار غضب بونابرت ، وان هذه الطبعة (الثانية) بها عناصر إضافية لم يجرؤ ميوو على ذكرها عام ١٨٠٤ » . والكثير من المذكرات يفضح – على

حد قول قارئها «تولار» – « فظائع الجند » فى البرتغال ، واسبانيا وروسيا. ولكننا لم نسمع منه اى تعليق على فظائع الجيش فى مصر.

★★★

لايختلف «تولار» إذن منهجيا عن اسلافه ، ممن تبنوا النظرة المتعالية على الشعوب المستعمرة، والتى كانت سائدة عند كل من كبر وتعلم وتشبع، بفلسفة «الجمهورية الثالثة» القومية الاستعمارية قبل الحرب العالمية الثانية، فهم يدلسون «بضمير مستريح»، حسب التعبير الفرنسى، ويتجاهلون ردود الافعال الطبيعية لاى شعب يخضع للقوة الغاشمة، ولا يفهمون ثورته على مستعمر يستغل ضعفه. ولذا، نراهم لايعزون رفض المصريين للاستعمار الفرنسى إلا لسبب اختلاف الدين، فقط، ولا يذكرون الافعال الاستفزازية للجند الفرنسيين.

وعلى الرغم من أن الكنيسة المسيحية ، قد وقفت الى جوار كل المتمردين على المحتل الفرنسى - الذى كان يدين هو نفسه بالمسيحية الكاثوليكية - فى كل بلاد أوربا وأسبانيا بالذات، أثناء حروب نابليون، بعد الحملة على مصر؛ إلا ان أحدا من المؤرخين لم يعتبر ذلك إلا عاملا من العوامل المساعدة للثورة ؛ وذلك على العكس ، تماما ، مما يرونه فى مصر. فعندما وقف المشايخ والعلماء مع ثوار القاهرة اعتبرهم المؤرخون، هم وحدهم، السبب فى الثورة، والمحرضين عليها. وعندما

تعرض « تـولار » نفسه للثـورة الاسبانيـة على غزو نابليون للبلاد ، كتب قائلا : « مرة اخرى ، يكتشف نابليون الحرب القـومية ، التى تمـزج الوطنية بالتطرف الدينى .. » (١٠٦) ؛ ولكن كلمتى « قـومية ووطنيـة» لم تستعمـلا ولـو لمرة واحدة عندما تحدث عن الثورات فى مصر، مع التشـابه الكبير لما حدث فى البلدين كليهما. وكـان مثقفو الاسبان يحبـذون الحكم الفرنسى ، كما يرى المـؤرخون الفرنسيـون ان مثقفى مصر احتفلوا ببونابرت ؛ وعلى الرغم من ذلك التشابه، لم يـذكر احدهم ثورة القاهرة بالخير ويتفق المؤرخـون على ان الحملة لم تنجح إلا ثقافيا ، دون ذكر كلمة « فشـل » بالنسبة لباقى اهدافها، مستعملين أسلوبا غاية فى التهـذيب ، عند التعرض المباشر للمسألة . فمن البـديهى أنهم لايحبذون فكـرة انكســار الجيــش الفرنسى إلا اذا كان العدو اوربيـا مثلهم ، فيكـون ، عنـدئـذ ، جـديرا بالندية ؛ ولعب الانجليز هذا الدور اثناء حصار عكـا . ويضـخم دور المعهد الفرنسى فى كتبهم ، حتى يساند فكرة « النجـاح الثقافى » ، دون ان يقدموا دليلا واحدا يثبت ان المصريين استفادوا من هذا النجـاح . فكل مايقال عن التأثير الفرنسى فى القرن التاسع عشر، كان بسبب فتح باب مصر للإرساليات الفرنسية في عهد اسماعيل باشا ، أى بعد مـرور عقـود ، اختلف فيها كل شيء، حتى سياسة فرنسا نفسها.

وهكذا تأكدت اسطورة الحملة ونتائجها، لكل من أراد ان يعرف عنها شيئا، من غير المتخصصين.

★★★

«كلودين جروسير» : «إسلام الرومانتيكيين»

نأخذ كأحسن مثل على تأثير كتابة هؤلاء المؤرخين ، وعلى رأسهم أشهرهم ، « جان تولار » ، ما نقرؤه من تعليقات « كلودين جروسير » فى كتابها عن « إسلام الرومانتيكيين » فى عام ١٩٨٤ . من البديهى أن « كلودين جروسير » باحثة جادة ، لم تقصر فى البحث عن معلومات تخص الحملة، فجاء تعليقها كالآتى :

« استطاع بونابرت ان يقنع انه المالك الوحيد لحقيقة الاسلام (فى مصر) . وعندما افنى تهديد المماليك الجاثمين لقرون على انفاس المصريين ، استطاع ان ينال تأييد شعب اعتبره مخلصه . وما كان هذا الاسلوب إلا إعادة لما فعله فى ايطاليا بنجاح ظاهر . ولكن الأرض المسلمة لها صعوبات اخرى ، خاصة بغربتها ، مما يشرح اللجوء الى العلم والاستثمار الفرنسى فى هذا الميدان . وترك بونابرت بعد رحيله من الارض الافريقية ، الكثير من آثار مروره : لقد أنشأ المعهد الفرنسى حسب رغبته ، حيث يعمل مائة من العلماء

المصاحبين للجنرال . لن يعود بعضهم الى فرنسا ، أو قد يعودون مرحليا ، ليؤكدوا استمرارية الوجود الفرنسى أثناء القرن التاسع عشر » . ولا نعرف من أين جاءت الباحثة بهذه المعلومة الخاطئة ، خاصة انه لاتوجد هوامش هنا تدل على مراجعها . ويقابلنا الغموض نفسه عندما تؤكد : « على الرغم من ثورة القاهرة ومقتل كليبر فإن شعبية بونابرت لاتخبو (..) ، ففى القاهرة نفسها ، يعيد الكولونيل السابق للجيش الفرنسى ، سيف ، تنظيم الجيش المصرى من اجل محمد على : ما اكثر الامثلة لذرية رائعة متميزة ! » . وهكذا ، يختفى مرور السنوات ، واختلاف الظروف ، ويتم دمج عصر محمد على بظروفه الجديدة ، لعصر سابق لا علاقة له بما حدث اثناء الحملة . ونذكر ما تلحقه الباحثة بعد ذلك لتأكيد امانتها .. « لتدخل فرنسا فى مصر فى بداية العصر ، تاريخ طويل . ولكن ، على عكس ماحدث اثناء الحروب الصليبية ، فالتدخل فى هذه المرة لم يثر معارضة الشعب ، او ، على الاقل ، فهذه المعارضة لم تكتب..» .. ولذا ، فكيف لانعذرها مادامت لم تقرأ إلا مؤرخين لم يتحدثوا عن المقاومة المصرية ؟

★★★

« برتران سوليه » : « فى مصر مع بونابرت »

الرؤية الفرنسية للحملة تتطور باستحياء شديد. فأصبح هناك من الاحداث مالا يمكن اغفاله . ولدينا نموذج ممتاز لهذا التطور، فيما يقال عن الحملة للأطفال. فالحديث الموجه لهم لابد ان يكون واضحا سلسا.

ففى سلسلة الكتب التى تحكى مغامرات شاب فى نهاية القرن الثامن عشر، «الموجهة لسن ١٢ عـاما ومابعدها»، نذهب مع البطل الـى « مصر مع بونابرت » (١٠٧) . وهو الكتيب المنشور سنة ١٩٨٨.

ومع ان المؤلف دارس جاد للموضوع ، إلا اننا نراه يجعل من الجنرال «ديسى» وليس «كليبر» خليفة لبونابرت فى مصر، وهو خطأ فادح . ولكن باقى معلوماته التاريخية صحيحة ، خاصة فيما يخص اعمال السطو التى يقوم بها الجند: الحق يقال ان الضابط يحاولون الحد من نهمهم المخرب، ولكن دون جدوى ، وهدف الحملة، والكتاب واضح منذ الصفحات الاولى : «الجيش الفرنسى للشرق فى طريقه الى مصر ليحرر المصريين من طغيان المماليك (...) ، إنهم طغاة ، دكتاتوريون» : نلاحظ ان كلمة «طغاة» ، وهى من مفردات الثورة ، فى حاجة الى توضيح للجيل الجديد، فتضـاف اليهـا الكلمة الحـديثـة « دكتاتور » ، ليفهم المعنى ؛ فـالقـرن العشـرون ضـد « الدكتاتورية » ،

كما كان « الطغاة » اعداء « الثورة الكبرى » فى القرن الثامن عشر، فيصبح المماليك جديرين فعلا بالمحاربة. وفى الطريق الى القاهرة عبر الصحراء ، يدور الحديث التالى، عندما يهجم البدو على الجيش : « ولكن ، لماذا يهاجموننا؟ لقد جئنا لنخلصهم من المماليك » .

« - هناك مجرمون فى كل مكان». وفى حادثة اخرى، يحكى ضابط ماحدث: «ظهر فرسان عرب فى الصحراء، أخذ الفرنسيون يلوحون لهم بإشارات ودية، دون حتى الإمساك بأسلحتهم، حدث هجوم (العرب عليهم) ، وقتلوا جميعا. أتفهمون، لم نعد نعرف كيف نتعامل مع الناس هنا (...) يعلم الله وحده ما فى عقول هؤلاء المتوحشين» .

وعلى الرغم من ذلك ، فإننا نقرأ كيف ان الجند أحرقوا قرية الرحمانية ، انتقاما لعدم وجود اى شىء يؤخذ . كما ان المرور على باقى القرى يدل على ان كل الاهالى قد فروا أمام الجيش المتقدم . ثم نشاهد الجند وهم يتاجرون ويتعاركون بعد معركة امبابة ، وقد قضوا الليل يجردون جثث الموتى من كل ما كان عليها . فمن نصدق ؟ قول جيش التحرير، أم سطو الجند على الفلاحين العزل ؟

البطلة غير متفائلة ، وهى فرنسية كبرت فى القاهرة : « الناس لا يحبوننا على الرغم من المظاهر . فالتجار يتحملوننا ، لأننا نجعلهم يعملون ، ولكن الأعيان منقسمون . أما الشعب ، بصفة خاصة ، فهو لا ينظر إلينا كمحررين ، ولكن ككفرة أعداء للدين الإسلامى ، على الرغم من تأكيدات بونابرت .. أنا أسمع الناس يتكلمون ، وهم لا يعرفون أننى أفهم لغتهم » . ويرد البطل قائلا : «أنا لا أفهم بالضبط معنى معاركنا : علينا طرد المماليك ، ولكن ما هذا إلا حجة » . ولا يقول ما وراء هذه « الحجة » .

وترى شخصية أخرى أن الفرنسيين اقترفوا هفوات تسببت فى نشر الشائعات عن أن الفرنسيين ، مثلا ، حطموا الأبواب فى بعض الأحيان «حتى يتسنى لهم ذبح المسلمين العزل عند اللزوم... كلام فارغ، ولكن الناس يصدقون أى شئ ! (.....) إن أصدقاء المماليك يجدون فى كل ذلك حججا ليمشوا بالنميمة فى حق المحتلين ، ويثيروا الغضب والكراهية » : الأمر واضح من حيث صورة المصريين السذج ، لأن من بين ما يستغله «أصدقاء المماليك» ، كان « تنظيف الشوارع » الذى يرفضه الشعب ، وتقوم ثورة القاهرة ؛ أمر لا يفهمه البطل ، لأن «بونابرت قال : كل من أحكمهم أولادى : جئنا نخلصهم من المماليك؛ أفيكون هذا هو جزاءنا» . فترد الشابة الفرنسية : «يبدو أن الشعوب

عليها أن تحرر نفسها ، وأنها لا تحب الحرية التى تأتيها من الخارج» ؛ فالفرنسيون أحضروا إذن الحرية بالفعل ، ولكن المصريين لم يقدروا قيمة الهدية . ويعرض المؤلف ما تم من تدمير بسبب ضرب الأزهر بالمدافع ، « حيث تنهار المنازل المجاورة على السكان ، الشيوخ منهم والشباب ، وأغلبهم لا علاقة له بالمعركة (...) جلادو الشرطة يعملون بهمة ونشاط ؛ مئات الجثث تلقى فى النيل ، يجرفها تيار النهر ، قد يصل عددها إلى الألفين» .

وعندما تتحرك قوة عسكرية نحو الفيوم «لتحصيل الميرى (...) ومصادرة الجياد والجاموس ، تقول (الشابة الفرنسية) : هكذا كان يفعل المماليك » . ولن نجد كلمة واحدة بعد ذلك ، تعليقا على هذا الرأى الخطير .

يعجب البطل ، أثناء مجزرة سكان يافا ، لما حدث لجند الجيش الفرنسى : «ماذا أصاب جند الجمهورية ، الذين دربوا على الدفاع عن الوطن المهدد ، وهم حاملو قيم الحرية والعدالة ؟ » ... ! وتستمر المجزرة والسلب والنهب ، والبطل فى حالة من الغثيان . ويزداد الأمر سوءا ، ولا يكاد يصدق عينيه ، وهو يرى الجند يعدمون الأسرى الذى أسلموا حياتهم للجيش المنتصر «بهدوء تام» . كانت النتيجة أن بعض الجند قالوا بعد ذلك : «إن السماء تعاقبنا (على هذه الجريمة) ، فالطاعون يقتل عشرات الجند منذ ثلاثة أيام » .

وبعد الهزيمة أمام عكا ، يعترف الجنود : « لقد أحرقنا القرى والمحاصيل وقتلنا كل شئ يتحرك» ، ونقرأ وصف ما حدث آنذاك ، وتطول ترجمته .

وفى النهاية ، تلخص النتيجة .. «كان بونابرت عابسا ، غالبا لأنه لم يكن فخورا بهروبه من مصر (...) : فقدت مصر ، كما فقدت جزيرة مالطة ، التى أخذها الإنجليز» . وينتهى الكتيب ، ولا يسع القارئ إلا الإشفاق على الشباب الذى سيقرأ هذا الكلام المتناقض ، فمما لا شك فيه أنه سيصاب ببلبلة !! فهل عبرت الشابة الفرنسية التى تتحدث العربية عن رأى المؤلف ؟ ربما . ولكن ألم يؤكد لنا مرارا أن الجيش جاء ليحرر المصريين ؟ وقيل إن «أصدقاء المماليك» هم المسئولون عن الشغب والثورة !! وأن الشعب المصرى لم يفهم النية الحسنة لجند عزل ، يُقتلون وهم يلوحون بصداقة للبدو ؛ وأن الإسلام هو سبب كراهيتهم لأنهم «كفرة» : ما هذا إلا أسطورة الحملة ، وما سبق أن كتبه مناصرو الاستعمار الفرنسى للدول «غير المتحضرة» . ثم يأتى وصف الفظائع التى ارتكبها هذا الجيش نفسه ، والاعتراف بفشل الحملة ، وقد «هرب» بونابرت وضاعت حتى جزيرة مالطة ..

أهو الاعتراف بالواقع المرير، ولكن دون ذكر كلمة «فشل» إبقاء على ماء الوجه ؟ ألم يقل إن «جند الجمهورية (...) حاملو قيم الحرية والعدالة» ، تحولوا إلى سفاحين ناهبين ؟

من البديهى أن الحقائق وراء الأسطورة بدأت تفرض واقعها المرير : هذه الحقائق التى عرفت منذ أيام الحملة نفسها ، ثم طمست لأكثر من مائة وخمسين عاما .

★★★

هكذا كانت أسطورة نابليون والحملة .

ماذا كان يمكن أن تفعله جيوش أوربا مجتمعة أمام عبقرية عسكرية مثل عبقرية نابليون بونابرت ؟ لقد تجلت تلك العبقرية في أكبر معاركه ، عندما هزم جيوش أوربا ، التي تحالفت كلها ضده في الثاني من ديسمبر ١٨٠٥ ، سارت تلك المعركة وكأن نابليون هو نفسه الذي رسم لها خططها بإحكام ؛ بما في ذلك تحركات أعدائه ، فكان لهم بالمرصاد حيث أراد : أصبح اسم هذه المعركة «أوسترليتز» أكبر النياشين على صدر نابليون ، وأسماها ، وهو القائد الذي كسب من المعارك ما يكفي لنياشين أكثر من قائد .

وماذا كان يمكن للحقيقة أن تفعله أمام عبقرية إعلامية مثل عبقرية بونابرت الجنرال ، ثم نابليون الإمبراطور ، خاصة أنه كان لا يدافع عن هذه الحقيقة إلا أعداؤه ، فتظهر الحقائق البذيئة وكأنها افتراء وكذب من حاقدين ومتنمرين ، أو نقول يمينيين لا يبغون إلا عودة الملكية السابقة .

على الرغم من ذلك ، فقد قيلت الحقيقة ، وإن أهملت لعقود ، بل لأكثر من قرن ، إلى أن عادت ليعترف بها الجميع . بالضبط مثلما حدث . للملوك المتحالفين ضده ؛ فبعد الهزائم العديدة ، عرفوا

كيف يهزمونه فى معركة «واترلو» ، فأنهوا حكمه ، بل أنهوا حياته السياسية والعسكرية معا . كذلك ، جاءت الحقائق ، أخيرا ، لتفضح الوجه الآخر للأسطورة المنيرة .

عاشت أسطورة نابليون بونابرت تتحدى أى عداء ، كعداء «شاتوبريان» الملكى مثلا ؛ أو عداء الجمهوريين الشهيرين ، «لامارتين» والمؤرخ «ميشليه» ، وكان كلاهما من مؤرخى الثورة ، والمدافعين عنها . رفض ثلاثتهم أسطورة نابليون لحامى القوميات والحريات ؛ ووقفوا ضد التيار العنيف الذى أطاح بعقول الفرنسيين كلهم ، فأصبح اسم نابليون ، حتى الأمس القريب ، رمزا لمجد فرنسا ، وصورة حية للمنقذ الذى انتشل شعبها من الهاوية .

نسى الجميع ذلك الثمن الباهظ الذى دفعته فرنسا من أجل بضع سنوات من المجد الحربى . فنابليون ترك فرنسا مهزومة ، محتلة ، وقد استنزف دمها لسنوات طويلة ، وتأخرت عن ركب الثورة الصناعية التى كانت قد بدأت فى إنجلترا ، بعد أن فقدت من أراضيها أكثر مما كسبت فى حروب الثورة كلها .

ولكن سحر الأسطورة ، التى خلقها نابليون بونابرت ، كان أقوى من الحقيقة . تلك الحقيقة التى فضحها أكثر من « شاهد من أهلها » ، كما سنرى فى الجزء الثانى من هذه الدراسة بإذن الله .

هوامش المقدمة

١- يكفينا ذكر ما ينتهى إليه الدرس الخاص بالحملة : عمت الفوضى مصر بعد رحيل الفرنسيين، «ولكن سكان القاهرة تذكروا سنوات الأمان التى عاشوها أثناء الحكم الفرنسى، فحفزهم ذلك على التحرك، وأعطاهم قوة المبادرة، فوجدوا في شخص القائد الجديد للألبان «محمد على»، الأداة المنشودة..» ، ص ٥٦ .

- كتاب تاريخ خاص للطلبة المصريين :

Charles-H. Pouthas - Histoire de l' Egypte depuis la conquête ottomane, Paris, Hachette1948.

شارل - هـ . بوتاس .

« تاريخ مصر منذ الفتح العثمانى»

٢- تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للعلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى بيروت - دار الجيل ١٩٧٨ ، ٣ أجزاء .

٣- السيدة / مها جاد الحق، بكلية الآداب جامعة القاهرة، قدمت فى رسالة ماچستير، دراسة نقدية لأول ترجمة ظهرت فى فرنسا سنة ١٨٣٨، للمستشرق «الكسندر كاردان» . إنه يفضح بها سوء طباع

المسلمين، ليتعظ المستوطنون الفرنسيون فى الجزائر، كما يشرح ذلك هو نفسه، في مقدمته للقارىء الفرنسي. وقد ظهرت أخيرا ترجمة أخرى لنفس النص للجبرتي عن الحملة أيضا، سنة ١٩٧٩، «لچوزيف كيوك» وهى أكثر أمانة من سابقتها . ولكن عدد قرائها أقل بكثير طبعا من قراء الترجمة الأولى، المنتشرين على مدى قرن وأكثر من الزمن .

هوامش المدخل

1- Henry Laurens : L' expédition d' Egypte, 1798-1801-Bonaparte et l' Islam. Le choc des cultures, Paris, Armand colin,1989.

والترجمة التى نشرت بالقاهرة سنة ١٩٩٦ عنوانها :

«الحملة الفرنسية فى مصر، بونابرت والإسلام» .

تأليف « هنرى لورانس » - ترجمة بشير السباعى .. القاهرة - دار سينا - بدون تاريخ - وقد أجبرنا على إعادة ترجمة بعض المقاطع . فلنا ، مع الأسف الشديد ، أكثر مُن تحفظ على أسلوب المترجم .

هوامش الجزء الأول : عصر الأساطير

هوامش الفصل الأول : الحملة فى تاريخ الثورة.

1- Jacques Solé : La Révolution en Questions Seuil,1988

«چاك سوليه» :

الثورة من خلال الأسئلة : ص ٢٤ .

2- La Légende de la Révolution, Centre National des Lettres,1988

«أسطورة الثورة» : ص ١٣٦ .

مجلد نشرت فيه مجموعة أبحاث عن الثورة، وهو أهم مرجع لنا فى كل ما نقوله عن الثورة ورجالاتها خارج نطاق السرد التاريخى. ونظرا لصعوبة الرجوع إلى المقال المختص عند كل معلومة، نكتفى بالإشارة إلى اسم الباحث فقط عند عرض رأيه.

ويقول كاتبا بحث «الأسطورة المباشرة للثورة فى صحافة ١٧٨٩» ، وهما «لابروس» و «ريتاه» : إن المستمعين لقراء الجرائد، كانوا يتأثرون جدا بنبرات صوت قارئها.

ومن الجمل اللافتة للنظر، هذا الوصف لرجال الثورة ؛ نشر فى ٣٠ يوليو سنة ١٧٨٩ ، أى بعد شهرين فقط من اجتماع «مجلس طبقات الأمة» الثلاث: وهو يقول : «لم يكونوا رجالا، بل آلهة يلقون بالبرق على المغارة البشعة التى تحتوى على الجرائم كلها » .

٣- كتب المفكر المؤرخ «إدجار كينيه» هذا التشبيه بالنص فى كتابه عن المسيحية والثورة الفرنسية، سنة ١٨٤٦، عندما شبه جيوش الثورة بالصليبيين، الذين ذهبوا إلى المعارك «بإنجيل ١٧٨٩ الحربى» لأن : «الكلمة التى بذرها هذا الإنجيل على أرض المعارك هى كلمة فرنسا، هذا المسيح الجديد الذى كلف بنشر روح التضامن والصداقة فى العالم، روح الثورة » (اسطورة الثورة ص ٤٣٣) . وقد قال ، فى كتابه هذا، من بين ما قال، إن «الاستيلاء على سجن الباستيل كان بمثابة تحرير للعقل البشرى والجميع » . والحق أنه تراجع عن كل هذه الآراء بعد ذلك بسنين .

٤- قصة من تأليف «باربو - روابيه» لخصها «هنرى كولييه» فى أسطورة الثورة ص ١٧٦ .

٥- تأكيدا لفكرتنا هذه، نذكر ما حدث فى الفن ، إذ كتب «شاتوبريان» أشهر كتابين له فى ذلك الزمن ، وهما قصة « الشهداء » ، و « عبقرية المسيحية » ، ونجحا نجاحا ساحقا : كانا فاتحة للتيار

الرومانتيكى الذى يرفض القوانين الكلاسيكية والموضوعات الإغريقية والرومانية . هذا الاتجاه الجديد الذى حطم أغلال المثل الكلاسيكى ، يبحث عن الجذور المحلية ، الكلتية منها والمسيحية ؛ وكان هذا الاتجاه إنذارا ببزوغ فكرة القوميات التى اجتاحت أوربا فى القرن التاسع عشر بعد ذلك . وبالتالى ، قضى على تصور وحدة أوربا التى ورثتها الأجيال السابقة بعد سيطرة روما وثقافتها على الكل، ولعدة قرون . وكان ذلك الاتجاه فى صورته الفنية قد بدأ ينتشر كالنار فى الهشيم ، فى ألمانيا بالذات ، وكان قد بدأ فيها وفى إنجلترا تحديدا .

٦- هذا ما يؤكده «چان إمرار» فى أسطورة الثورة ص ٢٤ .

٧- كان مؤلفه الضخم ، فى ٤ أجزاء ، « القاموس النقدى للثورة الفرنسية » الذى كتبه مع المؤرخة « مونا أوزوف » ، بمثابة ثورة فى تأريخ « الثورة الكبرى » . واعتبر الكتاب تحررا من سيطرة اليسار على سرد هذا التاريخ وفضح أساطير تبنتها «الجمهورية الثالثة » ، وصاغتها ونشرتها من سنة ١٨٨٠ إلى عام ١٩٥٠ تقريبا .

٨- «حرب ڤانديه» .. ، بحث «لفرنسوا لوبران» نشر فى مجلة «لستوار» أى التاريخ - عدد ١٦١ ديسمبر ١٩٩٢ .

٩- سوليه ، ص ٢٢٩ .

10 - François Furet et Denis Richet, La Révolution française, Pluriel, (1965)1973.

«فرنسوا فوريه» و «دينى ريشيه» : الثورة الفرنسية ص ٢٢٥.

١١- «ليون بلدرماير»، «لستوار» عدد ١٧١ - نوفمبر ١٩٩٣.

١٢- «دانيال مارتين» فى «أسطورة الثورة» ص ٢٠٦.

١٣- «باتريس جنفيه». فى «لستوار» عدد ١٧٧ - مايو ١٩٩٤ .

١٤- المؤرخ «بيير شونو» فى «لستوار» عدد ١٦٢ - يناير ١٩٩٣.

١٥- إن من أكثر الأفكار التى يمكن أن تنبت فى عقل أى سياسى، شذوذا، هى أن يظن أنه يكفى لشعب ما أن يدخل مسلحا على شعب آخر ليجعله يتبنى قوانينه ودستوره . ما من أحد يحب المبشرين المسلحين .

«فوريه وريشيه » . ص ١٤٩ .

١٦- «إيف بونيه» فى «أسطورة الثورة» ص٤٠٩ .

١٧- «أنطوان كور» المرجع نفسه ص٤٠٩ .

١٨- نشر فى عام ١٩١٦، الجزء الأول من كتاب «تاريخ فرنسا المعاصرة» لمؤلفه إرنست لافيس ، وهو الذى شكل المنهج التاريخى لأجيال من تلاميذ المدارس الفرنسية. ونقرأ فيه : «كان الفرنسيون

يلمحون ، من وراء ساحة قتال «ڤالمى»، الشعوب تتعانق، والجنس البشرى كله وقد تجدد بفضل الحرية والإخاء، والجنة محققة على الأرض » : « جان ميشيل جايار» فى « لستوار » عدد ١٢٥ سبتمبر سنة ١٩٨٩ .

١٩- نذكر منها مقاطعتى «بريتانيا» و «ألزاس» ، اللتين كانتا من نصيب ملكى فرنسا اللذين تزوجا وريثتى هاتين المقاطعتين.

كما اشترت الملكية جزيرة «كورسيكا» .. قبل سنة بالضبط من ميلاد نابليون بونابرت فيها . ومن الغريب أن سكان « بريتانيا » و «كورسيكا» فى مشاكل دائمة مع الحكومة المركزية الفرنسية حتى يومنا هذا، ومازالوا يعتبرون أنفسهم من قومية غير القومية الفرنسية. وسكان «ألزاس» على الحدود الألمانية يتحدثون لغتهم التى تدين للألمانية أكثر مما تدين للفرنسية .

20- Jean Starobinski, Le reméde dans le mal- Paris gallimard,1989.

جان ستاروبنسكى : «الدواء فى الداء» ص٣٥ .

٢١- كان هذا هو الهدف منذ اندلاع الثورة، وحتى قبل إعلان الجمهورية . ارجع الى النص ذى الهامش رقم ١٦.

22- Louis Madelin, La France du Directoire Paris, Plon, S.D.

«لوى مادلان» : فرنسا حكومة الادارة ص ١٤٧.

٢٣- «ايف بونيه» فى أسطورة الثورة» ص٤٠٩ .

٢٤- «فوريه وريشيه» : ص ٤٢٩ .

٢٥- «سوليه» : ص ١٤٥ .

٢٦- «فوريه وريشيه» : ص ٣٦٨-٣٠٤ .

٢٧- «سوليه» : ص ٢٣٢ .

٢٨ - «فوريه وريشيه » : ص ٣٨٧ .

٢٩- «سوليه» : ص ٢٣٧ .

30- Benoist - Méchin: Bonaparte en Egypte ou le Rêve inassouvi , Lausanne, Clairefontaine,1966.

«بينوا - ميشان» : «بونابرت فى مصر، أو الحلم الذى لم يتحقق ».

٣١- كان رموز العصر يلقبون بأسماء مشاهير الرومان ، فإذا وصف الجمهور أحدهم مثلا بالنزاهة ، قيل عنه : إنه «بروتوس» رمز النزاهة فى التاريخ الرومانى . وهكذا .

ويقى من هذا العصر اسم الثورى المفكر الكبير «بابوف» ، الذى لقب «بجراكوس» ، فأصبح اسمه «جراكوس بابوف» . و «جراكوس» هذا اسم اخوين فى تاريخ روما ، قتلا لمحاولتهما التصدى لجشع

النبلاء، وحاولا فرض قانون لتحديد الملكية. ونظرا لأن فلسفة «بابوف» كانت قائمة على فكرة المساواة الاجتماعية ، فقد لقب هكذا ، ويبقى حتى فى المعاجم الحديثة ، وكأن أهله هم الذين اختاروا له هذا الاسم بايحاءاته المفخمة لكفاحه وأفكاره ، فأصبح « جراكوس بابوف » للأبد .

32- Condorcet' L'essai d' un tableau des progres de l' esprit humain,1794.

بحث عن صورة تاريخية لتقدم (وانجازات) العقل البشرى ١٧٩٤ .

33- Mehmed Efendi : Le Paradis des infideles, François Maspero,1981.

محمد إفندى «جنة الكفرة» ص ١١٢ هامش ١٦٥ نجد فى هذا الكتاب تقريرا لسفيرين ، وتعليقات الصحف الفرنسية المعاصرة لبعثتيهما .

٣٤ - جانين اوبوابيه فى «لستور» عدد ٧٠ سبتمبر ١٩٨٤ ص ٦٦.

35 - Christopher Herold : Bonaparte en Egypte, Paris Plon,1964. ص ٣٥٢

«بونابرت فى مصر» ، ترجمة فؤاد اندراوس - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٦٧ ، وقد ترجم هذا الكتاب الى

العربية، والفرنسية . وقد أثار غضب بعض المؤرخين الفرنسيين، لأنه كشف الكثير مما كان مستورا حتى ظهوره، من أفعال الجند الفرنسيين في مصر . علاوة على انه ، وعلى حد قول احـد المـؤرخين : « لا يحترم الرجل الكبير » فالكثير من الفرنسيين لا يحتمل ، حتى الآن ، ان يمس بونابرت بنظرة ناقدة ، وإن كانت موضوعية وصحيحة علميا .

36- Henry Laurens : Le royaume impossible Paris, Armand Colin,1990

«هنرى لورانس» المملكة المستحيلة ص ١٤ – ١٥ .

37- Arthur Lévy : Napoléon et la paix Paris, Nelson, S.D.

«أرتور ليفى» : «نابليون والسلام» .

38- Balzac : le Médecin de campagne , Garnier,1961

. 39- Gérard de Nerval : Le voyage en Orient

وسنعود فيما بعد، وباستفاضة ، الى هذا الكتاب لأهمية ما يعطيه لنا من معلومات .

40- André Raymond : Artisans et commerçants au Caire au xviii siécle.
Damas, Institut français d' Etudes arabes,1973.

أندريه ريمون» : «حرفيون وتجار فى قاهرة القرن الثامن عشر» .

من أهم ما كتب أيضا فى الغرب عن مصر قبل الحملة ، كتاب الامريكى بيتر جران» : «الجذور الإسلامية للرأسمالية » .

41- Jean Tulard : Napoléon ou le mythe du sauveur, Paris, Fayard,1987.

«جان تولار» : «نابليون أو أسطورة المنقذ»

هوامش الجزء الأول

هوامش الفصل الثانى : نابليون بونابرت الجنرال والإمبراطور

٤٢- وهى فى مبنى الإنفاليد فى باريس، الذى تحول الى شبه معبد لذكرى الرجل العظيم ؛ وهو من أهم المزارات للسياح والمعجبين بنابليون حتى الآن .

٤٣- « عشاء بوكير» .

٤٤- «فوريه» و «ريشيه» : ص ٣٦٠ .

٤٥- «الثورة الفرنسية» .

46- Le Courrier de l' armée d' Italie ou le patriote français a Milan La France vue de l' armée d' Italie Le Journal des hommes vertueux.

٤٧- الثورة الفرنسية : ص ٥٠٦ .

48- Jean Tulard : Le Directoire et Le consulat, Paris , Que sais je.. P.U.F.1997.

«جان تولار » : «حكُما الإدارة والقناصل» ص ٧٦ .

٤٩- المرجع نفسه : ص ٩٩ .

٥٠- «الثورة الفرنسية » : ص ٤٤٤ .

٥١- كانت الثورة قد أبدعت تقويما جديدا منذ قيامها وكان للأشهر أسماء جديدة . ويبدأ عد السنين منذ بدايتها ، أى «السنة الأولى» من الثورة.. الخ.

٥٢- «شوسينان - نوجاريه» مجلة «لستوار» عدد ١٢٤ - يوليو - أغسطس ١٩٨٩ .

٥٣- المرجع نفسه : «ميشيل فينوك» : ص ١٠٨ .

٥٤- «حكُما الادارة و... » ص ٨٠ .

٥٥- فى مقال «لستوار» عدد ١٧٥ : مارس ١٩٩٤ ، عنوانه : «عبيد

الثورة السود» ، يقول كاتبه «فرنسوا ليبران» ايضا ، إن بونابرت لم يستطع إلا التخلى عن مستعمرة «سانت دومانج» ، بسبب فشل الحملة عليها، هذه الحملة التى كان يقودها زوج أخته ، الجنرال «ليكلار» الذى مات أثناءها .

وقلما تسمع عن هذه الحملة ، على الرغم من أهميتها .

فهذه النصف جزيرة ، كانت من المستعمرات القليلة التى بقيت لفرنسا فى القارة الأمريكية ، بعد هزيمتها فى حرب «السنوات السبع» سنة ١٧٦٣ ، والسبب معروف ، وهو أن القائد لم يذكر فى التاريخ ، إلا بصفته زوج إحدى أخوات نابليون .. أما إن كان الجنرال بونابرت هو قائدها ، فلابد أن الأمر كان سيختلف طبعا ، مثلما حدث مع الحملة على مصر . وقد فقدها كما فقد مصر بعد ثورتها هذه والحرب ضدها .

56- Maurice Descottes : La légende de Napoléon et les écrivains français du xix. Siécle, Minard,1967.

«موريس ديكوت» : « أسطورة نابليون والكتاب الفرنسيين فى القرن التاسع عشر » – ص ١٨١ .

٥٧ – وهذا النيشان لايزال يمنح من الحكومة الفرنسية حتى يومنا هذا . والكلمة – مثل كل ماكان مرجعه سياسيا فى عصر بونابرت –

مستوحاة من كلمة «الفيلق» الرومانية . والمعنى الحرفى هو «فيلق الشرق » .

٥٨ - من الأمور التي لايمكن أن تمر على القارىء دون إرجاعها الى جنون العظمة التى كان يعانى منها «الجنرال الجمهورى العفيف الزاهد» كما كان يراه المعجبون به ، أن أسقف مدينة « دانس » فى فرنسا ، هو الذى كان يتوج الملوك ولكن بونابرت أصر على أن يتوجه البابا نفسه ، وفى روما بإيطاليا ولحظة التتويج ، أخذ نابليون التاج ليضعه بنفسه على رأسه ، ثم توج زوجته «جوزفين» . ومن المعروف أنه أخذ ، من كنز مجوهرات ملوك فرنسا ، هذه الماسة العملاقة المسماة « بالوصى » ، وقد زين بها قبضة السيف الذى صيغ خصيصا لحفل التتويج ، وهو موجود حاليا بمتحف «اللوفر» ، كما نقرأ فى كتاب « ايريك لى نابور » ، عن « الوصى ، الليبرالى والفاسق » ، ص ٢٦٦ .

كذلك ، أعاد نابليون ترميم مقابر ملوك فرنسا فى « سان - دينى» ، قرب باريس ، سنة ١٨٠٦ ، أى بعد سنتين من تتويجه حتى يدفن بها مع زوجته : «جان - ميشال لينيو » في « لستوار» ، سنة ١٩٩٣ - عدد ١٦٧ - ص ٧٨ .

٥٩ - «تولار» - ص ٣٦٤ .

60- Jean Tulard : Le mythe de Napoléon, Paris, Armand Colin,1971.

«جان تولار» : «أسطورة نابليون » ص ٣٦ .

٦١ - «حكْما الادارة و ... » ص ٨٦.

٦٢ - هناك أكثر من مرجع يؤكد ، بل يعطى أسماء من طبق عليهم هذا الأمر ، الذى صدر لوزير الشرطة بالذات .

«ديكوت» ص ١٤٨ - ١٤٩ و«إدوار هيريوو»

- Edouard Herriot : Madame Recamier et ses amis, Paris, Payot,1928.

« مدام ريكامييه وأصدقاؤها » - ص ١٤٦ .

٦٣ - «أسطورة نابليون» : ص ١٢

64- Napoléon, Caricatures et dessins Bibliothéque Marmottan,1975.

«نابليون ، الكاريكاتور والرسومات » دون اسم مؤلف.

٦٥ - نقرأ فى إنجيل مرقص ، فى الإصحاح الأول (٤٠ - ٤٢) :

«فأتى إليه أبرص يطلب إليه جاثيا وقائلا له : إن أردتَ تقدر أن تطهرنى ، فتحنن يسوع ومد يده ولمسه وقال له : أريد فاطهر . فللوقت وهو يتكلم ذهب عنه البرص وطهر » .

٦٦ - ولد ابن نابليون من زوجته الثانية ، الأميرة النمساوية «مارى - لويز» عام ١٨١١ ، وقدم للشعوب بصفته «ملك روما» - ولكنه عرف فيما بعد باسم «النسر الصغير » ، وكان عنوان مسرحية ذاع صيتها ، كتبت فى نهايات القرن التاسع عشر ، وهى من أهم مكونات «أسطورة نابليون» . ومثلت دور «النسر الصغير » ابنة نابليون ، « سارة برنار » فى فرنسا ، وفاطمة رشدى فى مصر .

• ٦٧ - المرجع نفسه : ص ٣٢٠ .

تقص علينا « كاترين دريجيه » فى مقال عنوانه : « ممنوع الضحك على رئيس الدولة !» ، أن نابليون لم يكن يحتمل أى نقد ، وأنه أرسل شخصا لا قيمة له إلى مصحة الأمراض العقلية ، لمجرد أنه أطلق عليه نكتتين تافهتين ؛ مما يذكرنا بالنظام الستالينى الذى كان يرسل إلى المصحات النفسية من لم يوافق على سياسته .

«لستوار» ، عدد ١٧٧ - مايو ١٩٩٤ .

٦٨ - «بياترس كاسبريان - بريكور » : « الأوديسية المملوكية »

Béatrice Kasbarian Bricourt, L' Odyssée mameluke, Paris, 1988 L' Harmattan.

هذا الكتاب يحكى ماحدث للمماليك الذين خرجوا من مصر مع ماتبقى من الجيش الفرنسى سنة ١٨٠١ ، وكان بينهم «رستم» ، ذلك

المملوك الذى أهدى إلى بونابرت ، والذى لازمه بعد ذلك ، وأصبح من النجوم فى فرنسا ، بسبب ردائه الغريب عليهم . وقد كتب رستم هذا مذكراته .

وتأخذ منها المؤلفة ، الحادثة التالية : عندما أصر بونابرت على أن تخرج السفن إلى البحر فى مناورات كان قد أمر بها على الرغم من اعتراض أميرال البحار ، بسبب سوء الأحوال الجوية ، وكانت الكارثة ، و «شاهد رستم البحارة وهم يغرقون . وفهم لحظتها أن إرادة بونابرت تكاد تكون مماثلة لإرادة بكوات مصر » . ص ٩٩

٦٩ - قال نابليون حرفيا : « لقد أثبت أننى أريد إيقاف الثورات كلها . إن الملوك مدينون لى بأننى أوقفت شلال الفكر الثورى الذى كان يهدد العروش . إن كل العروش ستنهار إذا سقط عرش ابنى» : «تولار».

والغريب أن كثيرا من المؤرخين اعتبر ، حتى الأمس القريب ، أن نابليون هو «الثورة الكبرى » بعينها !

٧٠ - فى حديث نشر فى جريدة «لوموند» بتاريخ ٢٩ سبتمبر ١٩٩٥ يقول المؤرخ والمفكر «ماكسيمليان رويل» ، « إن : «كارل ماركس كان يدين ثلاثة أنواع من الدكتاتورية ، وكان يرى أن أحسن تعبير للدكتاتورية على الإطلاق ، كان قطعا دكتاتورية نابليون الأول » .

٧١ - حكْما الإدارة و ... ص ٢٠٢ .

72- Jean Tulard : Nouvelle bibliographie critique des Mémoires sur L'époque napoléonienne, Paris, Droz,1997.

«البليوغرافيا النقدية الجديدة لمذكرات المرحلة النابليونية »

نقرأ فى ص ١٣٠ ، عن مذكرات أحد «الجنود السويسريين فى خدمة الأجنبى » ، وكان صاحبها ، واسمه «جاتلن» - فى خدمة نابليون، إلى أن انقلب عليه لما يراه يحدث فى وطنه ، فكون فرقا للدفاع عن سويسرا ضد الفرنسيين - كذلك، نقرأ عن أحد مواطنى «جينيف» ، اسمه «ماسيه دى لاروه» ، وفى مذكراته ماحدث للجيش الفرنسى الذى طلب منه السويسريون «بالحاح » أن يترك المدينة ، وثورة نابليون عندما عرف أن الجيش انسحب بالفعل .

وقد نشر فى سنة ١٩٩٣، مجلد آخر بعنوان البيليوغرافيا المدروسة لما نشره الشهود العيان للحملة على مصر (١٧٩٨-١٨٠١) وقد قدم لها ايضا الاستاذ «جان تولار» .

Philippe de Meulenaere .- Bibliographie raisonnée des témoignages oculaires de lExpédition dEgypte (1798-1801),.
Librairie Chamonal,1993

٧٣- «المملكة المستحيلة» ص ١٩ .

٧٤- يرى «ريمون آرون» أن نابليون اخطأ لأنه ظن أنه مثل يوليوس قيصر، يستطيع أن يغزو العالم، فى عصر انتهت فيه مثل هذه الغزوات التى تتغاضى عن رغبة الشعوب فهزمته ثوراتها العفوية المنتصرة فى آخر الأمر : لقد حول تعاطف شعوب اوربا مع تجربة ثورة الشعب الفرنسى الى كراهية .

75- Chateaubriand : Mémoires dOutre Tombe - La Pléiade nr f,1946.

«شاتوبريان» : «مذكرات ما وراء القبر» . ص ١٠٠٤

الجزء الأول

هوامش الفصل الثالث : أسطورة الحملة ونابليون عند الأدباء

76- Alba : Histoire:1789-1939. Paris, Hachette,1940.

«أ. ألبا » : تاريخ 1798-1939

٧٧ - «المسار من باريس الى اورشليم» ص ٢٢١

78- Claudine Grossir : L' islam des romantiques - Paris, Maisonneuve et Larose,1948.

نضيف إلى كلامنا ، فقرة من هذا الكتاب ، قد توضح العقلية الغربية التى كانت تتعامل مع الشرق فى ذلك الزمن تقول «كلودين جروسير» : «إن مؤلف المسيرة» مقتنع تمام الاقتناع بأن المسلمين لا يعرفون شيئا عن الحرية وأن أوربا ، ووطنه بصفة خاصة ، لهم الحق بل من واجبهم تعليم المسلمين هذه الحرية، وشن الحرب ضد الطغيان من أجل رفاهية هذه البلدان المقهورة . وهو ، مثل بونابرت ، يقدم نفسه على أنه المحرر الذى لا يمتلك وسائل مواطنه الشهير العسكرية ، ولكنه لا ييأس من اقناع مواطنيه بضرورة التدخل الفرنسى في الشرق وهو لا يشك لحظة في نجاح مثل هذه المبادرة ، لأنه يرى أن هذه المساعدة مطلوبة ، بل منتظرة بفارغ صبر ص ٦٢ - ص ٦٣ .

نستخلص من هذا التحليل ، أن «شاتوبريان»، من جهة ، لم يشك لحظة فى نجاح الحملة على مصر، مع أنه عاصر فشلها. ومن جهة أخرى ، كان يحارب مبدأ نابليون وسلفه من البوربون ، لكبتهم الحريات! فهل يعقل أن فاقد الشيء يعطيه؟

٧٩- « مذكرات ما وراء القبر » ص٣٠٤ .

80- Las Cases : Le Mémorial de Sainte - Hélene, La Pleiade,

«لاس كاز» ميموريال سانت ، هيلانة » .

الجزء الأول ص ١٤٦ .

– كلمة « ميموريال » بالفرنسية تطلق على النصب التذكارى ، كما أنها تعنى سرد ما يستحق الحفظ والتدوين .

– نجد فى هذا الكتاب، الذى «صححه» نابليون بنفسه ، ليتأكد من مطابقة صورته فيه بالأسطورة التى نسجها لنفسه، وأراد للجمهور ألا يرى غيرها، نجد كلاما واضحا لا يحتمل أى تأويل، عن فلسفته فى شأن ما يدون عادة، ويصبح «التاريخ الرسمى الذى لا يكتبه إلا المنتصر حسب تعبيره هو نفسه. يقول مثلا عن التاريخ الكلاسيكى للإغريق ، وعن انتصاراتهم على الفرس : « لا ننسى أن من قال هذا الكلام ، هم الإغريق أنفسهم ، وأنهم كانوا سطحيين ، فعالين (فى تمجيد ذاتهم)، وأن مامن حولية فارسية نشرت لتجعلنا نحكم (بموضوعية) من خلال مناقشة تثير الجدل» (ص ١٨٤) : كلام ينطبق أولا وأخيرا على ما قاله هو نفسه عن حملته على مصر .. وباقى غزواته.

٨١– نذكر ، بمناسبة هذه التهويمات ، ما قاله عن الجنرال «ديسى» الذى اسماه البدو «السلطان العادل» (ص ٥٩٠) . وقد أصبح هذا

القول الوحيد لنابليون وحده، فيما بعد، من أكثر المسلمات رسوخا فى أدبيات الحملة .

٨٢- نراه فيما بعد، يوضح رؤيته لمستقبل العالم : «أوربا تغزو افريقيا من الجنوب (أى جنوب أوربا) ، والجنس الأوربى سيغمرها فى المستقبل كما غمر أمريكا (...) الجنس الأوربى سيغمر الكرة الارضية ويحكمها ؛ ونعم الحضارة ستكفر عن جرائم الغزو أو دنس الهدف ! » (ص ٦٩١) .

ألا يذكرنا هذا «الجنس الأوربى» ومشروعه بالفلسفة النازية؟ غير أن نابليون ، بعذره النبيل هذا ، وهو نشر الحضارة ، كان يتمتع بنفاق لم تتسم به الأهداف النازية .

٨٣- من البديهى أن نابليون ، فى ذلك الوقت، كان قد نسى الكثير مما حدث له فى مصر، وكان هذا الحديث يدون بعد مرور أكثر من عشرين عاما على ما يقصه ؛ عشرون عاما من الأحداث الصاخبة ، والدليل أنه احتاج الى «الرجوع مرارا إلى قراءات كتب عن مصر، ليصحح ما يقوله ، ويتأكد من صحة ذكرياته» (ص ٨٢٩) . كذلك، فهو يتعلم اللغة الإنجليزية «بقراءة الموسوعة البريطانية» ، وبالذات «مقال النيل، وكان يأخذ منه بعض الملاحظات، يستفيد منها عند إملاءاته للمارشال» .. الذى سيكتب عن حملته على مصر : «لقد دون (من هذا

المقال) نقاطا ستكون مهمة (لسرده أحداث) حملته على مصر» (ص ٣٧٣ - ٣٧٤) ..

٨٤- وقد تناسى كل القراء هذه الكلمات : «كان الإمبراطور يقول : فى التحليل الأخير ، لابد أن تكون عسكريا حتى تحكم : أنت لا تحكم إلا (وأنت ترتدى) المهماز والزى العسكرى » (ص ٨٧١) .

الجزء الأول

هوامش الفصل الرابع : الأسطورة عند الأدباء

٨٥- وهى الثورة التي وصفها رفاعة الطهطاوى فى كتابه «تخليص الإبريز .. » .

٨٦- من النتائج المباشرة لتلك الأسطورة انتخاب «لوى نابليون بونابرت» لرئاسة «الجمهورية الثانية» سنة ١٨٤٨، بصفته «ابن شقيق الامبراطور الكبير» . ثم قام «الأمير الرئيس» بانقلاب بعد ذلك بسنوات ثلاث، فأصبح «نابليون الثالث» ، وكانت الإمبراطورية الثانية فى فرنسا.

٨٧- وغالبا ما يكون هذا الاسم تحويرا لكلمة «المهدى»، الذى دوخ الفرنسيين هو وأتباعه فى الدلتا، إلى أن قتل فى معركته الأخيرة .

38- Stendhal, Le Rouge et le Noir, Librairie Mireille Ceni,1962.

المفروض أن تستعمل اللغة الفرنسية تعبير «كلمات الإنجيل» للتعبير عن المعنى الذى يقصده «ستندال» هنا. ولكن استعماله لكلمة «قرآن» تعنى، فى الوعى الفرنسى، ومنذ ذلك العصر، التشبث الأعمى، والإيمان المتطرف . وباقى النص يشرح هذا قائلا : «كان ليقبل الموت فى سبيل هذه الكتب الثلاث، ولم يؤمن يوما بغيرها» . والمعنى الهجائى الساخر واضح لمن يحلل النص فى السياق الفرنسى .

٨٩- كلمة فلاح بالفرنسية تنطق «بييزان»، ولكننا ، وحتى يومنا هذا، نقابل كلمة «فلاه» أى الكلمة العربية «فلاح»، بمعنى الفلاح المصرى بالذات، للتعبير عن الذل والبؤس والخنوع فى لغة الكثير من الفرنسيين، واستعمالها يكون دائما فى سياق الازدراء. والله أعلم لماذا. فلا سند تاريخى واقعى يَعضد هذه الرؤية، لو قورن الفلاح المصرى بنظيره فى فترات التاريخ القديم نفسها، اللهم إلا ما كتبه المؤرخون اللاتين من هجاء، بعد أن أرعبتهم كليوباترا ، عندما كادت تنقل سلطة العالم المعروف من روما إلى مصر . ومنذ ذلك اليوم، والصورة عن مصر دائما سلبية ، بعد الافتراءات الكاذبة للرومان على شعب خشوا بطشه إلى درجة قتله بالحياة، وتحويله إلى مزارع لصومعة الغلال الخاصة بهم ، ولا حياة له خارج هذا النطاق.

٩٠- حتى الشعراء المغمورون مثل «بارتيليمى» و«جوزيف ميرى»،. الذين نشرا قصيدة طويلة سنة ١٨٢٨، عنوانها. «حملة نابليون على مصر» .. "La Campagne d' Egypte de Napoléon.. ".

ثم نشر «بارتيليمى» .. قصيدة أخرى عنوانها «ابن الانسان» - "Le fils de l'homme" عن نابليون ايضا. وهذا اللقب يطلق عادة على النبى عيسى عليه السلام، بصفته ابن الله فى الديانة المسيحية .

«ديكوت» ص ٢٠٥ .

٩١- قد يكون سبب هذه الجملة أن بونابرت كان قد انتخب عضوا في شعبة الرياضيات فى المعهد الفرنسى الذى أنشأ له فرعا فى مصر.

هوامش الجزء الأول

الفصل الخامس
الأسطورة عند المؤرخين

٩٢ - «ميشيل فينوك» فى مجلة «لستوار»، العدد ٧٣، عام ١٩٨٤ .

93- Jean de Metz et Georges Legrain Aux pays de Napoléon - L' Egypte Grenoble - Jules Rey, Edit.,1917.

94 - La Décade Egyptienne

. Le Courrier d' Egypte.

جريدتان فرنسيتان طبعتا فى مصر، وقد لعبتا الدور نفسه الذى سبق أن لعبته الجريدتان المطبوعتان فى ايطاليا أثناء الحملة عليها قبل الحملة على مصر .

95- J - L. Gaston Pastre

Bonaparte en Egypte - Editions des portiques,1932.

٩٦- «ديكوت» ص ٤٦ .

٩٧- هذه هى المرة الوحيدة التى نجد فيها ذكر «طلبة المدارس العليا» بين علماء الحملة .

98- Général Georges Spillmann:

Napoléon et lslam - Librairie académique, Perrin,1969.

٩٩- إن نابليون وحده هو الذى قال ذلك فى كتاب الميموريال، فأصبح من المسلمات !

١٠٠- سبق أن أشرنا إلى ما وصلت إليه دراسة ترجمة الجبرتى من نتائج مؤسفة ، بسبب المغالطات العديدة التى فضحتها رسالة

السيدة / مها جاد الحق ، كما سنرى، عند قراءة كتاب «بريجون» فى الجزء الثانى، ما كان المترجمون يقولونه من أكاذيب لبونابرت ،

101- Jean Tranié et J.C.'Carmigniani. Bonaparte - La campagne d' Egypte, préface de Jean Tulard, Pygmalion - Gérard Watelet,1988.

(وجدير بالذكر أن اللوحات الموجودة فى دراستنا هذه ، مقتبسة من هذا الكتاب).

١٠٢- مقال فى مجلة :

Le Souvenir Napoléonien

«الذكرى النابليونية» ، العدد ٢٩١ يناير ١٩٧٧ وهو المرجع الذى استعمله المؤرخ وأرشدنا اليه .

١٠٣- اسمهم بالفرنسية :

Les Idéologues:

١٠٤- نشكر «تولار» على افصاحه عن مصدر معلوماته هذه.

فالسفير «شارل - روو» ، الذى كتب الكثير عن الحملة فى بدايات القرن العشرين كان لسان الاستعمارى الذى أكد اسطورة بونابرت ملهم المصريين ، ورفضهم لسياسته لعدم قدرتهم على استيعاب سمو مشروعاته. ومن أغرب ما أكده، أن المصريين لم يفهموا أن بونابرت

جاءهم كصديق، مع أن مؤرخنا قرأ، بلا شك، الميموريال، حيث يشرح نابليون مشروعاته الاستعمارية ، كما اسلفنا، دون أن يذكر ولو لمرة واحدة أى مشروع «صداقة» أو «تحضر» مع بلد كان سيستعمل أهلها جندا، تسهل التضحية بهم أمام مدافع أعداء طموحاته : والكلام منطقى لأنه طبق بالفعل مع البلاد الأوربية المستعمرة الأخرى .

ونظرا لشهرة «شارل - روو»، فلم نتعرض لكتاباته التى قرأها كل عربى مهتم بالقضية، وتأثيره واضح على كثير من المؤرخين العرب .

105- Nouvelle bibliographie critique des Mémoires sur l' époque napoléonienne, Genéve, Droz,1977.

١٠٦- « نابليون .. » ص ٣٩٢ .

107- Bertrand Solet, En Egypte avec Bonaparte

_ Le Livre de poche , Jeunesse , Paris, Hachette1988.

رقم الايداع ٣٤٤٠/٩٨

I. S. B . N

977 - 07 -0579- 9

الفهرس

المقـدمـة ٥

مـدخـل ١٩

الفصل الأول :

الحملة فى تاريخ الثورة ٢٥

الفصل الثانى :

نابليون بونابرت ، الجنرال والإمبراطور ١٠٧

الفصل الثالث :

أسس أسطورة الحملة ونابليون ١٥٣

الفصل الرابع :

الأسطورة عند الادباء ١٩٧

الفصل الخامس :

الأسطورة عند المؤرخين ٢١٩

الهـــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر
والعالـم العربـى

مارس ١٩٩٨ عدد ممتاز تقرأ فيـه :

● رجاء جارودى . حوار الحضارات .

● **الشباب إلى أين ؟**

(جزء خاص)

يشترك فى كتابته عدد من كبار مفكرينا .

رئيس مجلس الإدارة
مكـرم محمـد أحمـد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

روايات الهلال تقدم

أصوات الليل

بقلم

محمد البساطى

تصدر ١٥ مارس ١٩٩٨

كتاب الهلال يقدم

ابراهيم عبد القادر المازنى
رائدا .. ومبدعا .. ومفكرا

بقلم

د . احمد السيد عوضين

يصدر ٥ أبريل ١٩٩٨

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٥ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيوني زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

هذا الكتاب

يجدر بالقارئ العربي ، بعد مرور مائتي عام على الحملة الفرنسية ، أن يعرف ما قيل عنها عند أهلها ؛ وكيف تحولت إلى أسطورة وجدت ، من خلال أقلام المبهورين بها من الأدباء والمؤرخين ، مناخا نشأت فيه وترعرعت ، نظرا لأن بونابرت قد خلق من نفسه أسطورة ، بحيث أصبح كل ما يمسه ، أو يحكى عنه ، أسطوريا ؛ خاصة أنه جاء من ثورة كان عصرها عصر الأساطير.

هذا ما نراه تفصيليا في الجزء الذي بين أيدينا من هذه الدراسة «الحملة الفرنسية : تنوير أم تزوير ؟» والذي نعرف فيه مغزى الحملة ، كما كتبها المؤرخون حتى يومنا .

ومن ناحية أخرى ، فإن الدراسة قد تتبعت - في الجزء الثاني الذي سيصدر قريبا بإذن الله - الخيوط التي تؤدي إلى حقيقة تلك الحملة ، من أفواه شهود العيان ومؤرخيها الموضوعيين النزهاء ؛ تلك الحقيقة التي أغفلها المبهورون بالإمبراطور نابليون وأسطورته .

ويفضح الجزءان كلاهما زيف الأسطورة التي نسجت خيوطها لتصنع ما سمي تنويراً فرنسيا لمصر .

ولم تلجأ الدارسة في بحثها إلى مراجع عربية إلا فيما ندر؛ فقد كان الأهم معرفة الحقيقة التي يؤيدها التاريخ بأقلام الفرنسيين أنفسهم ، ومن خلال كتب لم يتعرف عليها القارئ العربي من قبل ، خاصة أن بعض الفرنسيين قد عملوا على طمس تلك الكتب لما تحوي من حقائق .

وبالرغم من أن المؤرخين الجدد ، قاموا بتحطيم كل الأصنام السابقة لتاريخ فرنسا، وأهمها ، أسطورة ثورة ١٧٨٩ ، وأسطورة الامبراطورنابليون ، فإنهم أصروا على أن الحملة على مصر، هي من أكثر صفحات تاريخ فرنسا مجدا. وبالتالي، فقد أصبحت الحملة على مصر، هي آخر أساطير التاريخ الفرنسي .

وترجو هذه الدراسة أن تكون قد وفقت في دحض آخر الأساطير مستندة إلى أقوال شهود عيان للحملة نفسها .